

جمهوريّة مصر العَرَبِيَّةُ

وزارة الثقافة والعلوم

مِنْ أَبْحَاثِ الْكَوْنِفِيرْدِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِتَارِيخِ الْقَاهْرَةِ

مارس - أبريل ١٩٦٩

صَوْرَهُمْ دُورُ الْأَزْهَرُ فِي

مِقاوِمةِ الْاِخْتَلَالِ الْفَرْسِيِّ لِمِصْرِ فِي أَوْلَى أَعْوَانِ الْقُوَّاتِ الْمُغْرِبَةِ

للأستاذ الدكتور

عبد العزيز محمد الشناوى.

أستاذ كرمي التاريخ الحديث بجامعة الأزهر



مطبعة دار الكتب

١٩٧١

أهداهات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح منصور

جَمِيعُهُ لِلْمَحَاجِرِ الْعَرَبِيَّةِ

وزارة الثقافة والادعية

أبحاث السنودة الدولية لنهاية القاهرة

مارس - أبريل ١٩٦٩

صُورَمِنْ دُورِ الْأَزْهَرِ فِي مِقاوِمَةِ الْإِخْتَلَافِ الْفَرْسَنِيِّ لِمَصْرِ فِي أَوْلَى الْقُرُونِ الثَّانِيَةِ عَشَرَ

للأستاذ الدكتور

عَبْدُ الرَّزِيزِ مُحَمَّدُ الشَّنَادِي

أستاذ كرسي التاريخ الحديث بجامعة الأزهر

بحث نوقش في الندوة العلمية الدولية لألفية القاهرة في الجلسة

الصَّبَاحِيَّةِ الَّتِي عَقِدتْ فِي ٣١ مِنْ مَارْسِ ١٩٦٩

مُطبَّعَةُ دَارِ الْكِتَابِ

١٩٧١

من نقاط البحث الرئيسية

- سياسة بونابرت الإسلامية :
- حكومة الديركتوار تضع خطة عمل دبلوماسي تحدد المركز القانوني لمصر تحت الحكم الفرنسي :
- مظاهر من سياسة بونابرت الإسلامية :
- الأزهر يتنادى إلى الثورة في أكتوبر ١٧٩٨ :
- السبب الرئيسي لثورة أكتوبر :
- عوامل مشجعة : تحطيم الأسطول الفرنسي ، استحالة وصول تعزيزات عسكرية من فرنسا ، اندلاع ثورتين في المنصورة ودمياط :
- عوامل مساعدة : النسائيات — القاهرة الخليعة — تعيين يوناني شرس وكيلًا لمحافظ القاهرة—استيلاء المسيحيين على إيراد الأوقاف الإسلامية—استعلاوةهم على المسلمين—إعدام محمد كريم — القروض الإجبارية—التشريعات المالية :
- تكوين مجلس الثورة وأساليبه في تحرير ثورة هادرة :
- مجلس الثورة يحدد ساعة الصفر :
- الأزهر مركز الثورة :
- عرض سريع لأحداث الثورة :
- بونابرت يأمر بهدم الجامع الأزهر ليلاً إذا أمكن :

- ٤ -

- إعدام علماء الأزهر بطريقة وحشية .
- شخصيات ثورة أكتوبر .
- ثورة دينية .
- ثورة نظيفة .
- ثورة إنسانية .
- العلاقة بين الشيخ محمد السادس رئيس مجلس الثورة وبين الفرنسيين .
- مزيد من سياسة بونابرت الإسلامية عقب ثورة أكتوبر .
- حقيقة العلاقات بين الأزهر وبين سلطات الاحتلال الفرنسي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في صيف ١٧٩٨ هبطت أرض مصر حملة فرنسية يقودها الجنرال بونابرت، وكانت هذه الحملة أول غزو عسكري أوروبي في التاريخ الحديث لبلد عربي إسلامي من بلاد الدولة العثمانية ، وإذا كان هذا الغزو قد سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا وهولندا ، على دول وإمارات إسلامية في أواسط آسيا ، وجزر الهند الشرقية ، والهند ، إلا أن هذه السيطرة الأوروبية المبكرة لم تمس قلب العربوبة ، كما فعلت حملة بونابرت على مصر .

سياسة بونابرت الإسلامية

أدرك بونابرت في وقت مبكر أنه مقدم على تجربة جديدة في حكم شعب شرق ، له حضارة تليدة ، وتحتاج دياناته ولغته وثقافته وتقاليده عن مثيلاتها لدى الشعوب الأوروبية ، ولذلك اتجهت أنظار بونابرت من أول الأمر إلى الأزهر وإلى المشايخ علماء الأزهر ، على أساس أن الأزهر هو مركز الدراسات العليا الإسلامية العربية في مصر ، وأنه يتبوأ مكاناً علياً في العالم الإسلامي : وقد قرر في مذكرةاته التي أملأها في منفاه بجزيرة سانت هيلاانه ، أن الأزهر يقابل جامعة السوربون La Sorbonne في باريس ، وأنه أشهر جامعة في الشرق.^(١) ونظر بونابرت إلى المشايخ علماء الأزهر نظرة إجلال وتقدير عميقين ،

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798- 1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le général Bertrand, Paris, 1847, 2 vols. t. I, p. 212.

— ٦ —

استناداً إلى أن لهم صفتين : الصفة الأولى أنهم الصفة الممتازة من الطبقة المستنيرة في البلاد ، المتعمدون في الدراسات الدينية واللغوية ، أو السوربونيون ^(١) ، وعلى مبلغ علمي ، كان بونابرت أول من أطراق Les Sorbonistes على المشايخ علماء الأزهر المصطلح الجامعي للحديث « دكتورة الشريعة » ^(٢) ، وأما الصفة الثانية فهي أنهم زعماء الشعب المصري ، Les Docteurs de la loi اعتقاد أن يفزع إليهم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بوجه خاص ، عندما انهالت عليه المظالم من يمين ويسار ، فكان علماء الأزهر يتذمرون لدى الحكام لرفع المظالم عن الشعب الكادح . وفي ظل الأوضاع التي كانت قائمة في مصر وقتذاك ، كان علماء الأزهر فعلاً ، وفي نظر بونابرت ، أكثر عناصر المجتمع المصري نفوذاً وهيبة ، وعلماً واحتراماً ، واستقراراً .

وقد أرسى بونابرت مبادئ عامة لسياسة التي اعتمدها في حكم المصريين ، وأطلق المؤرخون الأوروبيون على هذه السياسة المصطلح التاريخي : سياسة بونابرت الإسلامية ^(٣) La Politique Musulmane de Bonaparte ، وقامت هذه السياسة على إظهار الاحترام العميق للدين الإسلامي ، والتقاليد الدينية ، ولإسهام الجيش الفرنسي إسهاماً رسمياً مع الشعب المصري في الاحتفال بالأعياد

(١) من مدلولات هذه اللفظة باللغة الفرنسية : المأزون لدرجة الدكتوراه في العلوم الدينية من جامعة السوربون .

(٢) انظر على سبيل المثال ما جاء في مذكراته السابق الإشارة إليها .

t. I. pp. 369-371.
t. II p. 152.

وانظر جريدة :

Courrier de l'Egypte. No. 6. Le 2ème jour complémentaire, VIè année de la République. p. I.

(3) Charles-Roux (F.) ; La Politique Musulmane de Bonaparte. Revue des Etudes Napoléoniennes. XIV^o année t. I, janvier-février, 1925, pp. 23-47.

— ٧ —

الدينية الإسلامية وغيرها من الأعياد التي كانت الجماهير تحفل بها ، والتقارب إلى المشايخ علماء الأزهر ، وإعطاء كبارهم مزيداً من النفوذ ، وقدراً من السلطة ، باختيارهم أعضاء في ديوان القاهرة ، وسائر الدواوين التي احترم إنشاءها في أقاليم مصر ، وبذلك يضفي على حكومته الطابع الإسلامي ، على أن يمارس المشايخ علماء الأزهر ذلك النفوذ وهذه السلطة ، تحت إشراف الفرنسيين ومراتبهم :

وقد وضع بونابرت في ذهنه أن يتخد من هؤلاء المشايخ العلماء أداة يوضحون له المسائل التي يستعصى عليه تفهمها من ناحية ، ويشرحون بجماهير الشعبحقيقة المنشروقات التي يعتزم تنفيذها من ناحية ثانية ، وينقلون إلى السلطات الفرنسية مشكلات الجماهير وشكاليتهم من ناحية ثالثة . وكان قيام المشايخ علماء الأزهر بهذا الدور – في تقدير بونابرت – كفيلة بتنمية الجلو بين الحاكم والمحكومين ، وقطع دابر مروجي الشائعات ، وأهم من ذلك كله ، كسب تأييد علماء الأزهر للحكم الفرنسي ، ويكون لهذا التأييد أصداء بعيدة في نفوس جماهير الشعب المصري ، فيخلدون إلى السكينة ، وعدم المقاومة : وكان نجاح هذه السياسة الإسلامية – إذا قدر لها النجاح – مؤدياً في آخر الأمر إلى إنشاء المستعمرة الفرنسية التي أرسلت حكومة الديركتور صفة العلماء الفرنسيين والقادة العسكريين ، لمساعدة القائد العام للحملة على إنشائها^(١) ، وبعبارة أخرى ، كان الهدف النهائي من هذا التنظيم هو توطيد دعائم الحكم الفرنسي في مصر ، وقد أفصحت بونابرت في مذكراته عن البواعث التي أملت

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على . القاهرة . لم تذكر سنة للطبع . الناشر : دار المعارف ، ص ١٦٣ .

(١) عليه التقرب إلى المشايخ علماء الأزهر : فمال : لأنهم زعماء الشعب المصرى ، وإنهم ظفروا بشقة ومودة سكان مصر على بكرة أبיהם ، ومضى يقول : إن مشاعر الغيرة والخذلان قد افتعلت في نفوس الأتراك العثمانيين والمماليك على علماء الأزهر ، فيجعلتهم يعملون على إقصاء هؤلاء العلماء عن المشاركة في تصریف الشئون العامة . وقرر بونابرت أنه كان من خطأ الرأى أن يحلوا الفرنسيون حذو الأتراك العثمانيين والمماليك في انتهاج هذه السياسة ، كما أنه كان في حكم الاستحالة أن يتطلع الفرنسيون إلى ممارسة نفوذ «برير» على المصريين ، لأن الفرنسيين أغраб عن الشعب المصري ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة — في نظر بونابرت — إلى وساطة بين الحكم الفرنسي وبين جاهير الشعب ، ثم قال : « وقد فضلت العلماء وذكارة الشريعة ، لأنهم أولاً : هم كذلك بطبيعة الحال ، وثانياً : لأنهم هم مفسرو القرآن ، وإن أكبر العقبات التي واجهتنا ، وسوف تواجهنا أيضاً ، إنما تنبثق عن الأفكار الدينية ، وثالثاً : لأن هؤلاء العلماء ذوو طباع هادئة ، ويحبون العدالة ، وعلى درجة من الثراء ، وأصحاب مبادئ خلقية عالية ، وهم بدون منازع أكثر الناس أهانة في مصر ، ولا يركبون الخيل ، ولا يمارسون أعمالاً عسكرية ، ولا ينتظرون منهم ترجم حركة مسلحة » .

(٢) قال بونابرت في مذكراته « إن العلماء كبار المشايخ هم قادة الشعب العـربـي ». وكان يقصد المصريين بعبارة الشعب المصري ، لأن ذكر ذلك « مباشرةً أن هؤلاء العلماء ظافروا بشقة ومحبة جميع سكان مصر ، ويلاحظ أيضاً أن بونابرت وكتاب الفرنسيين المعاصرين للحملة وعلماءها كانوا يطلقون لفظة « العرب » على المصريين عموماً ، سواء في الريف أو في المضر ، ولم يقتصروا استعمال هذه اللفظة على عرب البادية ، كما جرت عادة الناس حتى ذلك الوقت .

انظر :

محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدورس الموائل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم . مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٤٤ .

(٣) كان مما جاء في مذكرات بونابرت :

“Les ulémas, les grands cheyks sont les chefs de la nation arabe; ils ont la confiance et l'affection de tous les habitans (sic) de =

- ٩ -

دبلوماسية حكومة الديركتوار

وبجانب هذه السياسة الإسلامية التي اعتمدت بونابرت انتهاجها في حكم الشعب المصري ، كانت هناك خطوة عمل دبلوماسي وضعفت بعانياً في وزارة الخارجية الفرنسية قبل إبحار الحملة إلى مصر ، وكان من بين أهداف هذه

« l'Egypte, c'est ce qui a, dans tous les temps, inspiré aux Turcs et aux Mamelouks tant de jalousie contre eux, et les a décidés à les tenir loin du maniement des affaires publiques. Je n'ai pas cru devoir imiter cette politique. Il nous est impossible de prétendre à une influence immédiate sur des peuples pour qui nous sommes si étrangers. Nous avons besoin pour les diriger d'avoir des intermédiaires; nous devons leur donner des chefs, sans quoi ils s'en choisiront eux-mêmes. J'ai préféré les ulémas et les docteurs de la loi.

1^e. parce qu'ils l'étaient naturellement.

2^e. parce qu'ils sont les interprètes du Coran, et que les plus grands obstacles que nous avons éprouvé et que nous éprouverons encore, proviennent des idées religieuses.

3^e parce que ces ulémas ont des mœurs douces, aiment la justice, sont riches et animés de bons principes de morale. Ce sont sans contredit les plus honnêtes gens du pays. Ils ne savent pas monter à cheval, n'ont l'habitude d'aucune manœuvre militaire, sont peu propre à figurer à la tête d'un mouvement armé. Je les ai intéressés à mon administration. Je me suis servi d'eux pour parler au peuple; j'en ai composé les divans de justice; ils ont été le canal dont je me suis servi pour gouverner le pays.....»

انظر :

Napoléon 1er; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. II, pp. 151 - 152.
ولذلك أن بونابرت كان يتجاهل الأحداث التاريخية حين قرر في مذكرةه أن علماء الأزهر لا ينتظروننيم أن ينزلوا سخرة مساجدة ، و الواقع أن علماء الأزهر قادوا ثورة هادرة في أكتوبر ١٧٩٨ على الحكم الفرنسي ، ثم اشتركوا في قيادة ثورة عارمة في شهر مارس وإبريل ١٨١٠ على هذا الحكم أيضًا ، وقادوا ثورة ثالثة في سنة ١٨٠٥ على والى عثمان غازى هو سور شيه باشا ، وهي الثورة التي جاءت بمحمد علي والإمام على مصر ، و كان الشيخ عبد الله الشرقاويشيخ الجامع الأزهر ، والسيد سهر مكرم نقيب الأشراف من زعمائها ، ومن المعروف أن بونابرت أولى مذكرةه وهو في منفاه في جزيرة سانت هيلانة عقب هزيمته في معركة واترلو Waterloo سنة ١٨١٥ ، بمعنى أنه عاصر هذه الثورات الثلاث ، و اشتراكه في إخماد الثورة الأولى ،

الخطة الإبقاء على العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وبين فرنسا ، وإظهار فرنسا بمظهر الدولة الخليفة للسلطان ، الحريصة على احترام السيادة العثمانية على مصر ، وأنها لم توجه حملتها العسكرية إلى مصر إلا ابتغاء القضاء على الأمراء المماليك الذين استأثروا بالحكم ، وتجاهلوا حقوق السلطان ، وأوغلو في الإساعة إلى الرعایا الفرنسيين : وكان في تقدير بونابرت أن هذه الخطة الدبلوماسية هي مناخاً صحيحاً لحملة مصر لإعلان صداقه فرنسا للسلطان ، الأمر الذي يخفف من مقاومة الشعب المصري للحملة ، ويجعله يتقبل الحكم الفرنسي في ظل سيادة عثمانية أممية ، وبعبارة أخرى يقوم نوع من التعايش السلمي بين المصريين وبين الفرنسيين في مصر :

(١) قامت خططة العمل الدبلوماسي على إجراء مفاوضات سياسية مع الباب العالي فور نزول القوات الفرنسية الأراضي المصرية ، وأن تتمل السفارة الفرنسية في الاستانة على إطالة أمد المفاوضات شهرين أو ثلاثة أشهر كسباً للوقت ، ريثما يتمكن بونابرت من توسيع مركز الحملة العسكري في مصر ، وبذلك يقوى مركز المفاوضين الفرنسي ، ويضع رجال الباب العالي أمام الأمر الواقع .

ووضعت الخطة على أساس تقديم مشروع ، فإذا رفضه الباب العالي قدم المفاوضون الفرنسي مشروع ثانياً ، ويقوم المشروع الأول في خطوطه الرئيسية على احتفاظ السلطان بالسيادة الإسمية على مصر ، مع وجود القوات الفرنسية بها ، فيعين السلطان نائباً عنه في مصر يحمل رتبة باشا ، ويكون لهذا الباشا رئاسة شكلية على الحكومة المصرية ، ويتحول الفرنسيون حكم مصر ، بدلاً من الأمراء المماليك ، وتدفع فرنسا بانتظام للسلطان جزية سنوية قدرها ألف وخمسمائة كيس (الكيس خمسة جنيهات) ، ويتعهد الفرنسيون باحترام ديانته المصريين وأرواحهم ومتناكلاتهم ، أما المشروع الثان فيقوم على تنازل الدولة العثمانية لفرنسا عن مصر ، في مقابل استيلادها على الجزر الأيونية ، وتنهى فرنسا بمساعدة الدولة العثمانية على استرداد بعض الولايات التي فقدتها ، مثل بلاد القبرن ، وكانت روسيا قد انتزعتها منها بمقتضى معاهدة كتشك كينارجي عام ١٧٧٤ .

وكان منصب سفير فرنسا في الاستانة شاغراً في ذلك الوقت ، منذ أن توفى فجأة أو بير ديباي Aubert Dubayet ، يسمى روفا Ruffin ، ورأى حكومة الديركتوار ضرورة الإسراع بشغل هذا المنصب ، وتعيين أحد الدبلوماسيين البارزين ، واقتصر بونابرت أن يكون هذا السفير هو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية نفسه ، وأن يتسلمه مهام منصبه في أوائل شهر مايو ١٧٩٨ قبل تحرك الحملة إلى مصر - وكان مقرراً لوصولها شهر أغسطس ١٧٩٨ - حتى يكون وجود السفير =

مظاهر من سياسة بونابرت الإسلامية

تلحقت مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية وهو لا يزال في عرض البحر المتوسط ، في طريقه إلى مصر ، وتمثلت المظاهر الأولى في عدة منشورات ، كتبها وهو على ظهر بارجة القيادة أوريان Orient ، فأصدر مانشوري مؤرخاً في الثاني والعشرين من يونيو ١٧٩٨ إلى جيش الشرق ، وأذيع على الجنود في الثامن والعشرين من يونيو ، أى قبل وصول الحمامة إلى الإسكندرية بيومين ، وقد أوضح بونابرت للمجنود أن الشعب المصري يدين بالإسلام ، وأن أول ركن من أركان الدين الإسلامي هو الشهادتان « لا إله إلا الله ، محمد

الفرنسي في الأستانة ، مخلفاً للأثر السيء الذي يترك في دوائر الباب العالى تزول القوات الفرنسية في مصر ، وأن يتخذ الإجراءات للمحافظة على سلام الرعايا الفرنسيين ، وأن يبذل مزيداً من الجهد لتبديد شكوك الباب العالى ومخاوفه من فرنسا ، وأن يشرع فوراً في إجراء المفاوضات على التسوى الذى شرحته .

ولم ينفرد بما جاء في خطة العمل الدبلوماسي بعدة أسباب ، كان من أبرزها إسحاق تاير ان عن النهاية إلى الأستانة سفير فرنسا ، ونشاط الدبلوماسية الإنجليزية والروسية ، وتعاظم الأسطول الفرنسي في مصر كأقى البحرية ، وتلقي باريس في تعين سفير فرنسا في الأستانة بدلاً من تاليران ، فلم يصدر قرار بتعيين ديكورش Descorches سفيراً في الأستانة إلا في النصف من سبتمبر ١٧٩٨ ، وبعدها كان يستعد للسفر إلى مقر منصبه ، كانت الحكومة العثمانية قد سددت موقفها بشكل نهائى وحاصل من الدوافع الفرنسية على مصر ، فأصدرت في التاسع من سبتمبر ١٧٩٨ منشوراً ضد فرنسا والحملة الفرنسية ، ثم اعتقلت في آخر سبتمبر روزنا اللاثم بالأعمال الفرنسى ، وأودعته قلعة الأبراج السبعة المسماة يدى قوله ، وألقت القبض على رعايا فرنسا ، وزجت بهم في السجون ، وكان هذا الإجراء التقليدي بمثابة إعلان الحرب على فرنسا .

انظر بخصوص خطة العمل الدبلوماسي التي قامت بجانب سياسة بونابرت الإسلامية ، واعتبرت مكملة لها ، كلام من :

La Jonquière (C.) ; L'Expédition d'Egypte 1798 - 1801.
Paris, Charles-Lavauzelle, 1899 - 1907. 5 vols. t. II. pp. 587-609.

Shafik Ghorbal ; The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era based on Researches in the British and French Archives. London, 1928. pp. 35 - 36.

— ١٢ —

رسول الله» ، فلا ينبغي على الفرنسيين معارضته المصريين في عقidiتهم الدينية ، أو تحضيرهم فيها ، بل عليهم أن يسلكوا معهم نفس المسلوك الذي انتبهوه من قبل مع اليهود والإيطاليين ، وعليهم أن يظهروا نحو المشايخ والأئمة الاحترام الذي أظهروه لخانحات اليهود وأساقفة المسيحيين ، وعليهم أن يكونوا متسمحين حيال الأعياد والاحتفالات التي يذكرها القرآن الكريم ، وأن يحترموا المساجد كما يحترمون كنيس اليهود وكنائس المسيحيين والأديرة ، وأن يحترموا ديانة محمد ، كما يحترمون ديانة موسى وديانة المسيح ، وممضى بونابرت في منشوره يقول للجنود : إن في مصر عادات تختلف عن العادات في أوروبا ، فلما مناص من أن يعتادها الجنود ويألفوها ، وذكر أن معاملة المصريين للسيدات تختلف عن معاملة الفرنسيين لهن ، وقال : إن الشخص الذي يعتدى على سيدة في أي بلد من بلاد العالم إنما هو شخص ذئ ، وحضر بونابرت [جنوده من ارتكاب أعمال النهب ، وقال إن مثل هذه الأعمال تثير أقالية ضئيلة من رجال الجيش ، ولكن ضررها ينسحب ويمتد إلى كل الفرنسيين ، يجعلهم موضع كراهية شديدة من الشعب المصرى ، وأكده لهم أن مصالحة الفرنسيين تتطلب اكتساب صداقه المصريين ومودهم :

ويعتبر هذا المنشور من المعلم الأولى لسياسة بونابرت الإسلامية ، وقد أراد أن يحمل جنوده على التزام هذه السياسة ، ويلاحظ أن توزيع هذا المنشور كان مقصورةً على العسكريين الفرنسيين دون سواهم ، وقد جاء في صورة أمر عسكري واجب التنفيذ ، صادر عن القائد العام بليش الشرق ، ولم يعاصم به الشعب المصرى ، واستهدف بونابرت منه اجتذاب قاوب المصريين نحو

(1) Napoléon 1^{er}; Correspondance de Napoléon 1^{er}, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III. Paris, Henri Plon, 1858 - 1870, 32 vols. t. IV; doc. no. 2710, en date du 4 Messidor VI^e année de la République (22 juin, 1798).

— ١٣ —

الفرنسيين ، إذ يرون جيشاً أوروبياً مسيحياً يستولى على بلادهم عنوة ، ولا ياجأ
إلى أعمال النهب والسلب ، والقتل وانتهاك السحرمات .^(١)

* * *

وكتب بونابرت أيضاً وهو على ظهر البارجة أوريان منشوراً باللغة
الفرنسية موجهاً إلى الشعب المصري شرح فيه الخطوط الرئيسية لسياسة التي
يعتزم انتهاجها في مصر ، وقام المستشرقون المرافقون لامحقة بترجمة المنشور
إلى اللغة العربية ، وساعدهم مترجمون من الأسرى المسلمين الذين كان فرسان
القديس يوسف قد اعتقاوهم في جزيرة مالطة منذ سنوات طويلة ، وألقوا بهم
في غيابة السجن ، وأطلق بونابرت سراحهم عقب استيلائه على الجزيرة وهو
في طريقه إلى مصر ، وقد جاءت الترجمة غير دقيقة وفي أسلوب ديكاك ،^(٢)

(١) بلغ من حرص بونابرت على تنفيذ هذه السياسة أنه أصدر عقب استيلائه على الإسكندرية
أمرًا عسكريًا إلى قادة الجيوش ، طلب فيه ضرورة احترام الدين الإسلامي ، والمحافظة على أرواح
الأهالى ومتلكاتهم ، وإلقاء الحرية التامة للمصريين فى إقامة الصلاة فى المساجد ، كما كانوا يفعلون
من قبل ، وتحريم دخول أي فرنسي ، سواء كان عسكرياً أو مدنياً المساجد ، ومنع الفرنسيين من
الاحتشاد أمام أبوابها ، وأمر بونابرت فى هذا المنشور قادة الجيوش بأن يصدروا الأوامر بمحبع
ضباط الكتائب بإذاعة هذه الأوامر على الجنود ، والتذكير عليهم بتجنب أعمال السلب والنهب ،
ومعاقبة كل من يخالف هذه الأوامر بالإعدام رمياً بالرصاص . وأمر أيضاً بأن يدفع الجنود أثمان
السلح الذى يقتلونها ، وأن تكون الحرب محصورة بين الفرنسيين والماليك ،
انظر نص هذا المنشور فى :

Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 2734 en date
du 15 Messidor, VI^e année de la République (3 juillet, 1798).

(٢) استدل بونابرت هذا الحادث سياسياً ، تمشياً مع خطة العمل الدبلوماسى الذى أشرنا إليها ،
فهدى إلى الجنرال شابو Chabot قائد الحامية الفرنسية فى جزيرة كورفو بالاتصال بالقائم
بأعمال السفارية الفرنسية فى الأستانة وهو رووفا Russin ليقوم بإبلاغ الباب العالى أن
الجيش资料 قد أطلق سراح الأسرى المسلمين فى جزيرة مالطة ، عقب سحق قوات فرسان القديس
يوسپھ ، وكان المعتقلون المسلمين أخلاقاً شتى من الآتراك والمناربة والشوام وغيرهم ، وكلهم
من دعايا الدولة العثمانية ، وبلغ عددهم سبعينة أسير : قدم لهم بونابرت الملابس والتقويد والأطعمة
قبل السماح لهم بالسفر إلى بلادهم .

انظر ما كتبه بونابرت عنهم فى مذكراته :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, p. 133.

وأضيفت إليها— بتوجيهه من بونابرت— عبارات لم ترد في الأصل الفرنسي كما سنرى، وأمر بونابرت بطبع الترجمة العربية للمنشور ، والحملة لا تزال في عرض البحر، حتى يكون المنشور معداً للتوزيع على أفراد الشعب المصري بمجرد وصول الحملة إلى الإسكندرية، وكان بونابرت قد أحضر مع الحملة مطبعة مزودة بالحروف الفرنسية واليونانية والعربية التي جمعها من باريس، ثم استكمل لها الحروف العربية الناقصة من مطبعة البروباجندا في روما^(١)، ولما نزلت الحملة في الإسكندرية في يوم الاثنين الثامن عشر من محرم ١٢١٣ الموافق الثاني من يوليو ١٧٩٨ وزع المنشور على المصريين ، كما أرسلت نسخ منه إلى القاهرة مع أسرى مالطة ، فوزعوه في العاصمة قبل وصول الفرنسيين إليها^(٢) .

بدأ بونابرت منشوره إلى الشعب المصري بهذه العبارات الدينية : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، لَا وَلَدَ لَهُ ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ : مِنْ طَرِفِ الْفَرْنَساوِيَّةِ الْمَبْنِيِّ عَلَى أَسَاسِ الْحَرْبَةِ وَالْتَّسْوِيَّةِ السُّرِّيَّةِ عَسْكَرُ الْكَبِيرُ أَمِيرُ الْجَيُوشِ الْفَرْنَساوِيَّةِ بُونَابِرْتُهُ ، يَعْرُفُ أَهْلَ مِصْرَ بِجَمِيعِهِمْ أَنَّ : »

(١) كان بونابرت قد كتب إلى مونج Monge العالم الفرنسي في الرياضيات وإلى إلپيزال ديزيه Désaix ، وكانت في روما، يطلب منها الاستيلاء على القسم العربي من مطبعة البروباجندا، وأن يتعاقداً مع بعض المترحبين من الشرقيين المقيمين في إيطاليا ، وقد تم التعاقد مع الخواجة إلياس فتح الله ، والخواجة يوسف مسابكي وغيرهما.

(٢) يلاحظ أن الأصل الفرنسي جاء خالياً من هذه العبارات الدينية ، وقد استهل بونابرت المنشور بهذه العبارة :

« بُونَابِرْتُ عَضُوُّ الْجَمِيعِ الْعَلَمِيِّ الْقَوْمِيِّ ، وَالقَائِدُ الْعَالَمُ بِلِيَشِ الشَّرْقِ » .
ويلاحظ أيضاً على الترجمة العربية أنها ذكرت إحدى الشهادتين وهي : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » وأغفلت الشهادة الثانية وهي : « مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ » .

(٣) التسوية يقصد بها المساواة L'égalité .

(٤) السر عسكر ، مصطلح تاريخي ، يتكون من كلمتين : إحداهما فارسية والأخرى عربية ، ومنه هذا المصطلح رئيس الجند ، أو القائد العام .

— وهذه الملفقة المركبة تكتسب في بعض المصادر التاريخية ، بُعيدة من أدلة التعریف ، وفي مصادر أخرى مضاعفة إليها أدلة التعریف وبصيغتين مختلفتين :

الساده، عسكندر، ساره، المستك

و تجمع في المصادر التاريخية في صيغ مختلفة

سواري، سترن، سواري، سترن، سواري، سترن

كما أن هذه الفحولة المركبة تظاهر في مصادر تاريخية ، مكتوبة بحرف العصاد بدلاً من حرف السين على النحو الآتي :

صلاری، عسکری، صهاری، عسکری، صهاری، عسکری

ويذكر المدرقي هذه الكلمة تارة يخُرُف السين، وتارة يخُبُر في المساد

1

عبد الرحمن الجبرق : *حجاجيب الآثار في التراجم والأنباء* ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، ١٨٨٠ م أربعة أجزاء ، ج ٣ .

وفي المرات التي تظهر هذه الكلمة مكتوبة بحرف الصاد ، نذكر على سبيل المثال ص ١١ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٦ .

وأورد الجيرق عبارة حددت معنى هذه الكلمة ، وقد سجاهت في ثنايا منشور على النحو التالي :

«من عبد الله سجاك فهو سر عسكري أمير عام جيوش دولة جمهور الفرساناوية بالشرق»، ومتلهم حكموتها بغير مصر حالاً إلى كافة المشايخ والعلماء الكرام ...»، ج ٣، ص ١٤٩.

ونحت الجبرق من هذه الكلمة أمّا عاماً هو السر عسكريّة ، فقال بعد أن تكلم عن مصرع الجنرال كليبر وتشييع جنازته إنّه « اتفقى أمره ، واستقر عوضه في السر عسكريّة قائلة سام عبد الله جاك » ح ٣ ، ص ١٣٤ .

و انظر أيضاً بخصوص هذه الفقفة كلاماً من :

على مبارك باشا: المعلطل التوفيقية الجلدية لمصر والقاهرة ومدنها وببلادها القديمة والشجيرة ، بولاق ١٣٠٦ (١٨٨٨ م) ، عشرون جزءاً ، ج ٩ ص ٦٦ .

^٤ أمين سامي باشا : تقويم النيل . المجلد الثاني ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٢٨٩ .

Dozy: Supplément aux dictionnaires arabes. 2ème édition, Leyde-Paris. 1927. t I, p. 649.

Deny : Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire. 1930.
p. 67.

أكَد بونابرت في أكْثُر من موضع في هـذا المنشور أنه لن يتعرض بسوء للدين الإسلامي ، بل إنه أكْثُر من المماليك عبادة لله ، واحتراماً لنبيه صلوات الله عليه ، وللقرآن الكريم ، وقرر في منشوره أن الفرنسيين مسلمون مخلصون ،^(١) وحاول أن يقيم الدليل على صحة هذا الزعم ، فقال إن الأمة الفرنسية وجهت الجيش الفرنسي إلى روما ، وحاربت البابا لأنَّه كان يفرض دائمًا النصارى على محاربة المسلمين ،^(٢) وأضاف بونابرت إلى ذلك قوله : إنه وهو في طريقه

== وقد لمح كل من على مبارك باشا وأمين سامي باشا صفة من هذا الاسم ، فقلال سر عسكري ، وإنفرد أمين سامي باشا بفتح صيغة أخرى للصفة ، مشتبكةً، من هذا الاسم هي : سرى عسکر . وقد استخدمت الكلمة سر عسکر في اللغة الفرنسية بنفس المعنى : قائد عام الجيش ، وهي تكتب في اللغة الفرنسية بإحدى صيغتين : *sérasquier* أو *séraskier*

الظاهر :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. II. p. 113.

(١) جاءت هذه العبارة في الأصل الفرنسي :

«إننا أصدقاء المسلمين المخلصين»

“Que nous sommes amis des vrais musulmans”.

ولم يقع هذا التحريف في الترجمة الفرنسية ، بل جاء مقصوداً ، ولم يقبل بونابرت أن يسجل على نفسه هذا الإهانة في الأصل الفرنسي بأنَّ الفرنسيين مسلمون مخلصون مصادقون بهما قبيل من ميررات أمام الرأى العام الفرنسي ، ولكن قام المترجمون بإدخال هذا التعديل وغيره في الترجمة العربية بعوبيه من بونابرت ،

وقد ناقش أسد الباحثين الأوروبيين أصحاب وجود الاختلاف بين الأصل الفرنسي كما وضعاه بونابرت ، وبين الترجمة العربية التي وضعاها مترجموها تبر جهوا الحملة ، وكما وزعت على الشعب المصري .

انظر :

Chauvin Victor; La Légende Egyptienne de Bonaparte. Mons., 1902, pp. 36 - 37.

(٢) كانت هذه العبارة من باب التقويم على المصريين ، واستثناءً عدم معرفتهم في ذلك الوقت بأحداث الثورة الفرنسية ، والحقيقة أنَّ الجيش الفرنسي كان موجهاً ضد النمسا ، لأنَّها كانت عضواً في التحالف الدولي الأول الذي تكون ضد الثورة الفرنسية ، فوجهت ضدها حكومة الديركتور جيلين : حملة رئيسية بقيادة الجنرال مورو Moreau والجنرال سوردا Jourdan تزحفت على شيئاً عن طريق نهر الدانوب ، وبالغاً السواداء ، وحملة فرعية بقيادة بونابرت ، تزحفت على إيطاليا ، لأنَّه كان للنمسا ممتلكات هامة في شبه الجزيرة الإيطالية ، وبذلك تضطرب النمسا إلى —

إلى مصر قد استولى على جزيرة «العلة» ، وطرد منها فرسان القديس يوحنا^(١) ،
الذين يزعمون أن الله قد طلب منهم قتل المسلمين^(٢) ، وعماد بونابرت في منشوره

= توزيع قواه في ميدان متابعين ، وشاءت الأقدار أن تفشل الحملة الرئيسية ، وأن تتبع الحملة
الفرعية بنجاحاً خاطئاً باهراً .

(١) جاءت في الترجمة العربية المنشورة لفظة «الكونكريه» ، وفي الأصل الفرنسي cavalleries
وعلى الرغم من أن استخدام الكلمة الكونكريه دليل على صعف المترجمين الذين عربوا المنشور ،
إلا أنها كانت شائعة في ذلك الوقت ، وقد وردت في صيغ شتى في مصادر أخرى مثل مذكرات نقولا
ترك ، وفي مخطوط كوسينا Costa المحفوظ في المكتبة الشيمورية بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
وسيدير شهاب ، وعلى سبيل المثال :

كونكريه ، كونكريه ، كونكريه ، كونكريه ، كونكريه ، كونكريه .

وهي مقتبسه أصلاً من اللغة الإيطالية cavaliere ، وانتقلت إلى اللغة الفرنسية وغيرها ،
وكان بونابرت يقصد بهذه الكلمة الطيشة الدينية الصليبية العسكرية المعروفة باسم فرسان القديس
يوحنا ، أو فرسان الإستفارية ، وكانوا قد اخذوا لهم من جزيرة مالطة مقاماً مستقراً ، بهـ
أن نجح السلطان العثماني سليمان المشرق في إجلائهم عن جزيرة رودس سنة ١٥٢٣ .

(٢) لم يكن النشاط العدائى الذى مارسه هؤلاء الفرسان ضد المسلمين ، هو السبب الذى جعل
بونابرت على غزو مالطة والقضاء عليهم ، ولكن انبعث مشروع غزو الجزيرة عن اعتبارات تتصل
بالسياسة العليا لفرنسا ، واستهدف توفير الأمن الداخلى والخارجي لنظام الحكم الذى جاءت به الثورة
الفرنسية . كان فرسان القديس يوحنا قد أذهروا شعوراً طيباً نحو أ Oasis السادس عشر ملك فرنسا
وأمدوه بالأموال لمواجهة أزماته المالية ، ولمساعدته عند هروبه من باريس إلى الحدود الشمالية
الشرقية ، وهو المروب الذى فشل بالقبض على الملك فى فالرن Varennes ، ولما
أعدمت الثورة الملك أقام فرسان مالطة صلاة على روحه ، واعتبرت حكومة الثورة هذا التصرف
عملًا غير ودى ، وردت عليه باعتقال فرسان هذه المنظمة المقيمين منهم فى فرنسا ، وصادرت
أملاكهم ، وأعدمت بعضًا منهم ، يضاف إلى ذلك أن بعض المهاجرين الفرنسين كانوا قد بخلوا
إلى مالطة إبان الثورة ، واعتُقدت باريس أن جزيرة مالطة قد غدت وكراً للدسائس ، يحيكها
عملاء بريطانيا والروسيا والنساء ، وخشيَت أن تبادر إحدى هذه الدول إلى احتلال الجزيرة ، فتكونون
مصدر خطر دائم على مركز فرنسا في حوض البحر المتوسط ، وقال بونابرت في تقرير له إلى
حكومة الديركتواد : «إن هذه الجزيرة سوف تسقط عاجلاً أو آجلاً في يد الإنجليز ، إذا كنا على
درجة كبيرة من النباء ، ولم نسيق الإنجليز إلى احتلالها» . وكان قد انتخب أحد الفرسان الألسان
واسميه دى هومبيش de Hompesch رئيساً طيشة فرسان القديس يوحنا ، واعتبر انتخابه
هزيمة لفرنسا ، وانتصاراً للدبلوماسية النسائية ، ومن ثم صاحت عزيزة حكومة الديركتواد على غزو
الجزيرة ، وأوفدت بوسيليج Poussielgue سكرتير المفوضية الفرنسية في جنوا إلى مالطة —

إلى تذكير المصريين بأنهم ينتمون إلى إقليم هو أحسن بلاد في العالم ، وأنهم أمة لم تبدأ من فراغ ، بل بدأت من مجد عريض ، وأنها طاولت الزمن وجوداً ، وصنعت الحضارات صنعاً . وقال : إن حكم المماليك الباغي هو الذي انحدر بالمصريين إلى هذه الحالة التعسفة من الفاقة والبؤس . وحاول في منشوره أن يفصل بين الشعب المصري وبين المماليك ، فقرر أنه جاء ليحاربهم ومحاربهم ^١ ولينقض المصريين من مظالمهم ، ويقتصر منهم ، لأنهم يضطهدون التجار الفرنسيين ، ويعتصرون أرزاق المصريين ، ويغتصبون خيرات البلاد ومحاصيلها ، وينعمون بالحواري الحسان ، والخيول المطهمة ، والقصور الفخمة ، وأكد أن مصر ليست ملكاً لهم ، وقال : « فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليروا الحجارة التي كتبها الله لهم » ، وتکلام عن وضاعة أصلهم ، ووصفهم بأنهم أغراط عن مصر جلبوا من خارجها . وذكر أن جميع الناس عند الله سواء ، وأن العقل والفضائل والعلوم هي التي تميز الأفراد بعضهم عن بعض ، وليس للمماليك من هذه الخصال نصيب ، ووعد بونابر特 المصريين بأن الحكم الفرنسي سوف يتبع عديد الفرص أمام « العلماء والفضلاء والعقلاء » لتسولي المناصب الحكومية . وحاول أن يحافظ على علاقات ودية مع السلطان العثماني ، وقد وصفه بأنه « محينا دام بقاوه » ، واختتم منشوره بتعليقات يغلب عليها طابع التهديد ، فهدد بحرق كل قرية تقاصم الجيش

^٢ في مهمة سرية لجمع المعلومات اللازمة قبل النزول الفرنسي ، وقد وصل هذا المخطوط إلى ثالثاً عاصمة الجزيرة في ٢٤ ديسمبر ١٧٩٧ ، وأرسل تقريراً مشجعاً على غزو الجزيرة .

انظر :

Correspondance de Napoléon, t. IV.

الوثائق رقم ٢٤٩٦ ، ٢٤٩٧ ، ٢٤٩٨ ، ٢٤٩٩ ، ٢٥٢٠ ، ٢٥٢٢ ، ٢٥٢٣ ، ٢٥٢٤ ، ٢٥٢٥ ، ٢٥٢٦ ، ٢٥٢٧ ، ٢٥٢٨ ، ٢٥٢٩ ، ٢٥٣٠ ، ٢٥٣١ ، ٢٥٣٢ .

وانظر أيضاً عرضاً دبلوماسياً لتطورات مشروع غزو الجزيرة في فصل عنوانه :

The Genesis of the Expedition.

ف

Shafik Ghorbal; ouvr. cit., pp. 7 - 32.

الفرنسي ، وأما إذا أظهرت القرية ولاءها للفرنسيين ، فيسمح لها برفع العلم العثماني ، وأن على جميع القرى الواقعة على مسيرة ثلاثة ساعات أن تبعث بهنار بينها عندها للقائد العام يعلنون الولاء ، وأنهم رفعوا العلم الفرنسي « الذي هو أيضاً وكحل وأحمر » ، وطلب من المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة الاستمرار في أداء مهام مناصبهم ، والتحفظ على أملاك المماليك ، وأن تستمر إقامة الصلاة في المساجد كالمعتاد ، وأن يكون كل انسان مطمئناً في مسكنه : وكانت آخر عبارات المنشور أن طلب بونابرت من المصريين أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على زوال دولة المماليك قائلين بصوت عال :

أدام الله إجلال الساطان العثماني
أدام الله إجلال العسكر الفرنسي
لعن الله المماليك
وأصلاح حال الأمة المصرية .

تحريراً في ١٣ شهر ميسidor سنة ٦ من إقامة الجمهورية الفرنساوية^(٣)

والحق أن هذا المنشور يلخص سياسة بونابرت الإسلامية ، واستهدف منه تأكيد المبادئ الآتية في أذهان الشعب المصري :

أولاً : إن الفرنسيين مسلمون مخلصون ، وإنهم لا يضمرون شراً للإسلام ، بل إنهم يكتنون احتراماً عميقاً للنبي صلوات الله عليه ، ول القرآن الكريم ، ويحرضون على أن تستمر إقامة الصلاة في المساجد كالعادة . واستهدف من ذلك إشاعة الطمأنينة في نفوس المصريين ، وجذب قلوبهم إلى الحكم الفرنسي

(١) جاءت في الترجمة العربية الصنفاج ، وهي لفظة تركية ، تكتب أحياناً سجنج ومن معانها العالم.

(٢) جاءت في الأصل الفرنسي ثلاثة فراسخ .

(٣) نشر النصي الفرنسي المنشور تحت عنوان Proclamation ف :

Correspondance de Napoléon ; t IV, doc. no. 2723, en date du 4 Messidor, VIe année de la République (2 juillet, 1798).

ونشرت الترجمة العربية كما وزعمت على الشعب في :

الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٤ - ٥

- ٣٠ -

ثانياً : الفصل بين المصريين والمماليك ، والهدف من ذلك اسماة المصريين إلى التزام موقف الحياد ، وحصر العمليات الحربية في أضيق نطاق ممكن ، وتصيير الحرب مقصورة على الفرنسيين من ناحية ، والمماليك من ناحية أخرى ، وبذلك يتم له التغلب على المماليك في سهولة وسرعة ، ودون وقوع خسائر فادحة في الأرواح أو العتاد في الجانب الفرنسي .

ثالثاً : الاهتمام بباريز صفة أراد بونابرت أن يلصقها بالفرنسيين ، وهي أنهم لم يجيئوا إلى مصر غزاها قاهرين ، بل جاءوا محررين للشعب من ظالم المماليك واستبدادهم ، ولذلك زوج في منشوره بعض كلامات تحمل بعض الشعارات التحررية في الثورة الفرنسية مثل الحرية والمساواة ، وقد عرب الكلمة الأخيرة المترجمون المرافقون للحملة بكلمة « التسوية » .

رابعاً : إن الحكم الفرنسي سيهيء للمصريين من أمرهم رشداً ، وسوف يتبع لهم الفرنس لشغل المناصب القيادية ، وبذلك يرضى المصريون عن الحكم الفرنسي ، على أساس المصالح المشتركة .

خامساً : تذكير المصريين بحضارتهم القديمة ، وأن المماليك هم الذين عصفوا بهذه الحضارة ، وأنهم السبب في فقر وشقاء المصريين ، وفي هذا القول إثارة لشعور الشعب على المماليك :

سادساً : إيجاد علاقات ودية بين الفرنسيين وبين السلطان العثماني ، حتى لا يرکن المصريون إلى الثورة على الفرنسيين ، بسبب ولايهم للسلطان ، الذي كان الشعب ينظر إليه على أنه سلطان المسلمين .

- ٢١ -

وللجزئي تعليق عنيف ولاذع جداً على هذا المنشور ، وقد كتب هذا التعليق في كتابه « مظهر التقديس بذهب دولة الفرنسيين » ، وجاء عنوان التعليق على النحو الآتي : « تفسير بعض ما أودعه هذا المكتوب من الكلمات المفكرة والتركيب الملعونة » ، وقد فند الجبرتي معظم الآراء التي جاءت في منشور بونابرت ، ودلل على ما فيها من تضليل . نذكر على سبيل المثال ما جاء في تعليقه على قول بونابرت إنه يحترم القرآن العظيم : « إن احترام القرآن تعظيمه ، وتعظيمه بالتصديق بما فيه ، وهو من آيات النبي الدالة على صدقه ، وأنه نبي آخر الزمان ، وأن أمته أشرف الأمم ، وهؤلاء بجميع ذلك نافون ، وفيما عادوه كاذبون ، وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون . أما التعظيم الحسى ، فهو فرض مأمور به بقوله تعالى « لا يمسه إلا المطهرون » ، فيحرم على المحدث والجنب مس آية من

(١) توجد في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ثلاثة نسخ خطية من كتاب مظهر التقديس ، وهي تحمل الأرقام الآتية :

المخطوط الأول : ١٣٢٨ تاريخ ، المكتبة التيمورية ، عدد صفحاته ٤٠٦ ، سنة ١٢٤٠ هـ .

المخطوط الثاني : ٣٣٠ تاريخ ، عدد صفحاته ٣٨٣ ، سنة ١٢٦٣ هـ .

المخطوط الثالث : ١٠١ تاريخ ، مكتبة الأمير مصطفى فاضل ، عدد أوراقه ١٤٥ ، سنة ١٢٢٤ هـ .

ويلاحظ أن الترقيم في المخطوط الأخير يعطى للورقة بصفحتها ، وليس الصفحة الواحدة ، ومعنى ذلك أن ١٤٥ ورقة تعادل ٢٩٠ صفحة ، وقد لاحظنا أيضاً أن الكتابة في هذا المخطوط الأخير تملأ الورقة كلها ، بحيث أن عدد الأسطر في كل صفحة منه أكثر من عدد الأسطر في صفحات النسختين الآخرين ، ولاحظنا كذلك أن خط المخطوط الأول أكثر وضوحاً وتنسقاً من المخطوطين الآخرين ، وهناك ملاحظة هامة هي أن عنوان المخطوط على النلاف الخارجي يختلف عن الاسم الذي اختاره الجبرتي لكتابه ، فعل النلاف الخارجي يذكر اسم المخطوط على هذا النحو :

مظهر التقديس بروال دولة الفرنسيين .

بينما ذكر الجبرتي في مقدمة كتابه « وسبنه » :

مظهر التقديس بذهب دولة الفرنسيين

وهذا هو سر الخلط الذي يقوم فيه الباحثون ، والعبرة بالعنوان الذي يختاره المؤلف لكتابه ،

القرآن ، وهو لاء قد شوهه الكثير منهم يتغوط ويسلك بأوراق المصاحف ، ويرميها ملطخة في الطريق ومحل النجسات ، فلنهم لا يستنجون بالمساء ألبته ، وجليلهم وحقرهم يستعمل ما يجده من الأوراق ، ودخل بعض الناس داراً من دورهم ، فوجد باب المهنة مسنوداً بمصحف كبير ، فأدخله وفتحه فوجده ختمة شريفة مكلفة ، فثار راغب ، وطلب أن يقتدي به بدرأه ، فامتنع صاحب الدار من بيعه إلا يبلغ كذا ، فسعى الرجل حتى استرضي خاطره ، واستنقذ الختمة ، وهم في كل ذلك يضحكون ، ويدعون الرجل كأنه مجانون ، فأين أعزك الله التعظيم الذي يزعمه هذا المفترى^(١) ؟ وقد تعرض الخبرى في مواضع أخرى من كتابه المخطوط إلى التضارب بين ما جاء على لسان بونابرت في هذا المنشور ، وبين التصرفات التي صدرت عنه في حكم الشعب المصرى ، ونشر إليها في مواطن قادمة في هذه الدراسة ، أما بونابرت فإنه سفر من هذا المنشور حين أعيدت عليه قراءته بعد مضي سنوات طويلة لم تقل عن تسع عشرة سنة ، وهو في منفاه بجزيرة سانت هيلانة ، حيث طبل به بعض القادة الفرنسيين الذين عاشوا معه في المنفى ، وقال لهم إن هذا المنشور قطعة من الدجل^(٢) :

* * *

(١) إن هذا التعليق موجود في الخطوطات الثالثة على النحو التالي :

الخطوط الأولى الذي يحمل رقم ١٣٢٨ ص ٣١ - ٣٥

الخطوط الثانية الذي يحمل رقم ٣٣٠ ص ٢٨ - ٣٢

الخطوط الثالثة الذي يحمل رقم ١٠١ الوجه الثاني من ورقة رقم ١٢ وورقة رقم ١٣ بوجهها ، أى أن التعليق استغرق في هذا الخطوط ثلاثة صفحات وهي تعادل خمس صفحات في كل من الخطوطين الأولين.

(2) Gourgaud et Montholon ; Mémoires pour servir à l'histoire de France sous le règne de Napoléon, écrits à Sainte Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité. Paris, Didot, 1823, 7 vols. t. II, pp. 261-262.

وابجز الثاني من هذه الأجزاء السبعة يختص أحداث الحملة الفرنسية على مصر.

وانظر أيضاً :

Guémard (G.) ; Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts de l'Institut d'Egypte. Le Caire, 1936, pp. 105-106,

وحرص بونابرت في ذات الوقت على إظهار صداقته للسلطان العثماني أمام كبار الموظفين العثمانيين في مصر ، تمثيلياً مع خطبة العمل الدبلوماسي ، والتي أراد لها أن تكون مكملة لسياسته الإسلامية ، فكتب خطاباً مؤرخاً في الثالث من يونيو ١٧٩٨ إلى الوالي العثماني واسمه أبو بكر باشا ، ولقبه "الطرابلسي" ، قال فيه : إن الغرض من الحملة على مصر إنما هو معاقبة الأمراء المالكين الذين أسرفوا في الإساءة إلى التجار الفرنسيين ، وقد عجزت وسائل الباب العالي عن كسر شوكتهم ، وإعادتهم إلى جادة الحق والصواب . وحاول بونابرت في منشوره أن يثير أبو بكر باشا الطرابلسي على المالكين ، فقال : لقد كان من المفروض أن يكون البشا العثماني في مصر هو السيد المطاع في أرجاء البلاد ، ولكن جرده المالكين من كل جاه ونفوذ ، ولذلك يجدر بالباشا أن يتلقى نبأ قدوم الحملة الفرنسية بالغبطة والابتهاج ، واختتم خطابه بهذه العبارات « واعلم أنّي لم أحضر للتعرض للدين ، ولا للقيام بأمر يسيء إلى السلطان . إن الأمة الفرنسية هي الخليفة الوحيدة للسلطان في أوروبا ، فهمام إذاً لما نابتنا ، والعن معنا المالكين وعنصرهم الخبيث » . وقد بعث بهذا الخطاب من الإسكندرية مع أحد الضباط العثمانيين التابعين لأحدى السفن الحربية العثمانية الثلاث التي كانت راسية في مياه التغر . وجدير بالذكر أن بونابرت اتخذ من هذا الخطاب وسيلة لدعاية إلى سياسته الإسلامية ، فأمر بنشر الترجمة العربية لهذا الخطاب في الإسكندرية ، كما كتب بونابرت خطاباً في هذا المعنى إلى إدريس بك قائد « عقاب بحري » كبرى السفن العثمانية الثلاث ، المرابطة

(١) تولى حكم ولاية مصر في ٢٨ سبتمبر ١٧٩٦ (١٢١١ ربيع أول ٢٥) ، وغادر القاهرة في ٢١ يوليو ١٧٩٨ (٧ صفر ١٢١٣) عقب معركة إمبابة ، واتخذ طريقه إلى بلبيس ثم غزه .

(٢) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2719, en date du 12 Messidor VI^e, année de la République (30 juin, 1798).

(٣) Napoléon I^r; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I., p. 133.

(٤) Loc. cit.

في الإسكندرية ، وقال له بونابرت في هذا الخطاب « إنك تابع صديقنا العظيم سلطان تركيا »^(١) :

نمر بعد ذلك مروراً سريعاً على مظاهر أخرى لسياسة بونابرت الإسلامية تجاه الشعب المصري . احتل الجيش الفرنسي الإسكندرية ، وزحف على القاهرة ، وفي طريقه إليها أوقع هزيمة بالمحاليل عند قرية شباريس (١٣ من يوليو ١٧٩٨) ، ثم انتصر عليهم في معركة إمبابة (٢١ يوليو) ، وحسمت هذه المعركة موقف الحرب لصالح الفرنسيين ، وأطلقوا عليهم اسم يخلد ذكرها في التاريخ فسموها موقعة الأهرام . وفي غداة هذا الانتصار مضى بونابرت في الإعلام عن سياسته الإسلامية ، فأذاع منشوراً وجهه إلى سكان القاهرة أكد فيه بعض النقاط التي جاءت في منشوره الأول ، ثم أضاف جديداً هو عزمه على إنشاء ديوان حكم القاهرة يتكون من سبعة أعضاء يكون الحامق الأزهر مقرأ له ، ولم يرد ذكر لهذا المنشور في كتاب الجندي ،

(١) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2721, en date du 13 Messidor VI^e, année de la République (1^{er} juillet, 1798).

(٢) تجمع معظم المصادر الفرنسية على أن المعركة دارت في شباريس وليس في شبراخيت . وتنسب هذه المصادر بikan المعركة إلى Choubra Reis أو وبالرجوع إلى الخلط التوفيقية نجد أنه يوجد في الوجه البحري قريتان تحملان اسم شباريس ، إحداهما شباريس البحيرة ، وهي قرية على الشاطئ الغربي لفرع رشيد : تقع في إقليم البحيرة ، وتتبع مركز شبراخيت ، وتقع الفريدة في جنوب مركز شبراخيت على مسيرة نصف ساعة . أما الأخرى فهي شباريس المنوفية وهي قرية تقع على الشاطئ الغربي للترعة الباجرورية ، وتقع في إقليم المنوفية ، وتتبع مركز تلا ، وتقع في جنوب كفر الزيات على مسيرة ثلاثة ساعات . والمعركة دارت في قرية شباريس البحيرة .

انظر : على مهارك باشا ، مرجع سابق ذكره ، ج ١٢ ، ص ١٢٢ .

(٣) يعتبر الفرنسيون انتصارهم في معركة إمبابة صفحة فخار في التاريخ العسكري الفرنسي ، ولذلك أطلقوا عليها اسم « معركة الأهرام » ، وهذا الإنجليز هذا اللذو فأطلقوا على معركة أبي قير البحري (أول أغسطس ١٧٩٨) اسم « معركة النيل » ، وهكذا عمد الفرنسيون والإنجليز من قبل الزهو إلى إطلاق أسمين لكل منها رنين ، وأغفلوا الآسينين الحقيقيين لمعركتين حاسمتين ، لأن كلا من هذين الآسينين : إمبابة ، وأبي قير قرية صغيرة ، لا يكاد يعرفهما أو يسمع عنهما أحد في أوروبا ، وستلتزم في هذه الدراسة بالآسينين الحقيقيين هاتين المعركتين .

ولكن ورد نصه الأصلى باللغة الفرنسية في مجموعة الوثائق الرميمية الخاصة
بالحملة^(١) ، وهذه هي الترجمة العربية للنص الفرنسي :

« معسكر الجيزة ، في ٤ تمريور إلى أهل القاهرة :
« إنني مسحور من سلوككم ، وقد أحسنتم صنعاً بعدم اشتراككم في مقاومتي :
لقد جئت هنا لأبيد جنس المالكين ، وأهمي التجارة ، وأهل البلاد الأصليين :
فليعلمون الحائفون ، ولبعد الذين تركوا بيوبتهم إليسا ، ولتقام الصلاوات
في المساجد ، كما كانت تقام من قبل ، وكما أريد أن تقام دائماً ، لا تخشوا
 شيئاً على عاتلاتكم وبيوتكم وأملاككم ، لاسيما دينكم ، دين النبي الذي
أحترمه وأقدسه .

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2818, en date du 4 Thermidor VI^e année de la République (22 juillet, 1798).
وهناك منشور آخر يحمل نفس التاريخ وجده بونابرت إلى سكان القاهرة، حين ذهب إليه
في الجيزة في ٢٢ يوليو وقد يشكون من شخصين، كان أحدهما مغربياً يعرف الفرنسية، يستفسران
 منه عن الإجراءات التي يعتزم اتخاذها عقب معركة إمبابة، وقابلهما بونابرت بالترحاب، ثم قالا
 له إنهم يريدان أنفساً من بونابرت إلى سكان القاهرة، فأجابهما بأنه أذاع منشوراً في هذا المعنى،
 فقالا عثروا على الوفد : إنما يفضلون منشوراً جديداً يحملونه ممهماً إلى سكان القاهرة، واستجاب
 بونابرت طاھ الرغبة، وكتب منشوراً موجهاً إلى سكان القاهرة أو ردد الجبرق نصه، وهذا هو :
 « من معسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر :

« إننا أرسلنا لكم في السابق كتاباً فيه الكفابة، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة
المالكين الذين يستعملون الذر نساوية بالذل والاحتقار ، وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولمسا
حضرنا إلى البر الغربي شرحاً إلى فتاوىنا بهما يستحقونه ، وقتلنا بعضهم ، وأمرنا ببعضهم ،
ونحن في طليهم ، حتى لم يبق أحد منهم بالقلع المصرى ، وأنا المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب
والرعبه فيكترون هنائين ، وفي مسامعهم مرتاحين » .

انظر :

الجبرق ، مصدر سابق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠ .
و النص الفرنسي لهذا المنشور يتماشى تماماً مع ما ورد في الجبرق ، ويزيد عليه أن بونابرت
طلب حضوره وقد إليه من المشايخ علماء الأزهر . انظر :

Correspondance de Napoléon. t. IV, doc. no. 2817 en date du
4 Thermidor, VI^e année de la République (22 juillet 1798).

« ولـا كانت المحافظة على الأمن من المسائل التي لا تتحمل تأخيراً ،
فسيكون هنا ديوان مؤلف من سبعة أعضاء ، يجتمعون في الجامع الأزهر ،
يتصل اثنان منهم دائمًا بالقائد ، ويتخصص أربعة منهم للمحافظة على الأمن ،
ومراقبة شؤون الشرطة » .

وأقام بونابرت عقب معركة إمبابة في قصر مراد بك بالجيزة ، والأخذ
منه مقرًا للقيادة العامة للجيش الفرنسي ، وفي أثناء إقامته في هذا القصر كان
علماء الأزهر هم أول الشخصيات الذين طلب مقابلتهم ، فكان هذا الطالب
^(١) مظہرًا علیاً لاعترافه بزعامتهم للشعب المصري . فذهب إليه وفد كان على
رأسه اثنان من كبار العلماء ، هما الشيخ مصطفى الصاوي ، والشيخ سليمان
القيوبي . وتمشياً مع سياساته الإسلامية أحسن بونابرت مقابلة أعضاء الوفد ،
وتودد إليهم ، ولـا علم منهم أن عدداً من كبار المشايخ علماء الأزهر قد
غادروا القاهرة عقب معركة إمبابة ، طلب ^{أن} تكتب لهم خطابات تدعوهم
إلى العودة إلى العاصمة ، وتؤكد لهم أنه لن يصيّبهم سوء . وأعلن بونابرت

(1) "Comme il est urgent que la tranquillité ne soit pas troublée, il y aura un divan de sept personnes qui se réuniront à la mosquée d'El Azhar".

(2) عقد اجتماع في الأزهر صبيحة معركة إمبابة ، ضم بعض العلماء والأعيان الذين بقوا
في القاهرة ، كما شهدوه مصطفى كتخدا باشا – أى نائب الوالي العثماني – وقاضي القضاة العثماني ،
وقدارسو الموقف ، واستقر رأيهم على ضرورة الإفراج عن الفرنسيين الذين كان مراد بك قد
أمر بوضفهم « تحت اليقظة » ، أى اعتقالهم قبل معركة إمبابة ، وقيل إنه كان بتعزم قتيلهم ، لولا
أن تدخل روسي Rossetti فحصل النسأ العام ، واتفقا أبصراً على أن يبعثوا برسالة إلى بونابرت
يستفسرون منه عن نواياه بعد المعركة ، وكان الجيش الفرنسي لا يزال مرابطاً في البر الغربي لم يعبر
النيل بعد إلى القاهرة ، فذهب رسولان بالرسالة إلى الجيزة ، وبعد أن وقفت بونابرت على مضمونها
قال على لسان الترجحان : « وأين عظاؤكم ومشايخكم ؟ ولم تأتوا في الحضور إلينا ، لزرت لهم
ما يكون فيه الراحة ؟ وطضمهم وبش في وجوههم . »

لأعضاء الوفد عن عزمه على إنشاء ديوان « لأجل راحتكم وراحة الرعية ،
 وإجراء الشريعة » :

ولا بد أن بونابرت قد علم من أعضاء الوفد - طالما أن حديده معهم
 قد تناول كبار القوم الذين خادروا القاهرة عقب معركة إمبابة - أن أبي بكر
 باشا الطرابلسى الوالى العثمانى قد ارتحل هو الآخر مع إبراهيم باك ، كما علم
 بونابرت أن بن الدين آثروا الهجرة من القاهرة الشيخ عبد الله الشرقاوى
 شيخ الجامع الأزهر ، والسيد محمد السادس ، والسيد عمر مكرم نقيب
 الأشراف ، والسيد أحمد المحروم شهبندر التجار القاهرة . فأرسل بونابرت
 خطاباً من الجيزة مؤرخاً في ٢٢ يوليو إلى أبي بكر باشا الطرابلسى ، على أمل
 أن يصله هذا الخطاب في بلبيس ، واقتصر بونابرت أن خطابه الأول الذى
 أرسله إليه من الإسكندرية لم يصله ، وقد أبدى بونابرت في خطابه أسفه

= هذا ويوجد اختلاف بين أقوال الخبرق ، ونقولا ترك ، ولاكروا Lacroix ، وريبو Reybaud
 التي تمت بين بونابرت وكبار سكان القاهرة لتسليم العاصمة ، كما يوجد خلاف حول تاريخ دخول
 بونابرت القاهرة ، وهل هو يوم ٢٤ أو ٥ يوليو ١٧٩٨ ، والأصح هو ٢٤ طبقاً لرواية
 الخبرق ، ولاجونكير La Jonquière .

(١) الخبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠ .

(٢) لحقت به كلمة الشرقاوى لأنه من أبناء مديرية الشرقية ، إذ ولد في قرية الطويلة
 شرق بلبيس ، وبالقرب من القرىن حوالي سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) ، أما اسمه
 الحقيقي فهو « عبد الله حجازى » ، وتولى مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ أحمد العروسي شيخ
 الجامع الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م) ، وقدره أنه يعاصر ويشترك في الأحداث الجسام التي
 مرت بمصر في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد اشتهر سهامه
 صور الحملة الفرنسية ، وحسماً لاحظ الخبرق ، بعماته الكبيرة جداً « التي كان يضرب بعظامها
 المثل » ، وله مؤلفات عديدة في العقائد والأصول والنحو ، وكتاب في طبقات الشافية ، وكتاب
 في تاريخ مصر ، سنثيرون إليه في مواطن قادمة في هذه الدراسة ، وقد توفي سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) .

انظر ترجمة الخبرق له في ج ٤ ، ص ص ١٥٩ - ١٦٤ .

(٣) شهبندر التجار ، معناها كبير التجار ، أو سر التجار .

الشديد، لأن إبراهيم بك استعمل معه العنف وأكرهه على مغادرة القاهرة ، ثم قال له : « إذا كنت سيداً مطاعاً فارجع إلى القاهرة ، وستظفر بالاحترام والتقدير الحديرين بممثل صديقنا السلطان » ، ومضى يقول في خطابه إنه سبق القوة العسكرية للمماليك ، ثم طلب إليه أن يؤكّد للسلطان أن الأسلحة التي جعلت فرنسا تنتصر على المماليك ستكون دائماً تحت تصرف السلطان^(١) . وفي اليوم التالي أرسل بونابرت خطابه الثالث إلى أبي بكر باشا ، وقد حاول أن يحدد فيه على نحو من الأنحاء وضع مصر السياسي بعد الغزو الفرنسي ، وقد جاء في هذا الخطاب الثالث : « إن هدف الجمهورية الفرنسية من احتلالها مصر هو طرد المماليك الذين طالما شتوا عصيا الطاعة على الباب العالى ، وأظهرروا شعوراً عدائياً نحو الحكومة الفرنسية . والآن ، وقد استطاعت الجمهورية الفرنسية ، بانتصار جيواشها ، أن تضيق يدها على مصر ، فإن من أقصى رغبات الجمهورية أن تحافظ على نفوذ نائب جلالة السلطان ، ولذلك أرجوكم أن تؤكّدوا للباب العالى أنه لن يخسر شيئاً بوجودنا في مصر ، وسأحرص على أن تتلقى حكومة جلالة السلطان الجزية التي كانت ترسل لها من مصر » .

ومن الواضح أن هذا الخطاب كان يمثل جانباً من خطة العمل الدباؤماسى التي وضعت بعناية في وزارة الخارجية الفرنسية ، والتي كانت مكلمة لسياسة بونابرت الإسلامية ، كما ذكرنا من قبل :

* * *

عبر بونابرت النيل ودخل القاهرة في ٢٤ يوليو ١٧٩٨ ، وأقام في قصر محمد بك الألباني بخط الساكت بالأزبكية ، واتخذت مقراً لقيادة العمادة

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2819, en date du 4 Thermidor VI^e année de la République. (22 juillet 1798).

(2) Op. cit., doc. no. 2824, en date du 5 Thermidor VI^e année de la République. (23 juillet 1798),

- ٢٩ -

للجيش الفرنسي ، وكان الألني قد فرغ من بنائه في السنة السابقة على الغزو
الفرنسي ، وأنفق الأموال الوفيرة على تأثيثه وزخرفته ، حتى أصبح من أروع
قصور مصر كلها^(١) ، ولم تطل إقامته فيه أكثر من ستة عشر يوماً ، فكانه كان
بنيه وينفق عليه بسخاء ليسكته بونابرت . وفي هذا القصر أصدر بونابرت
القرار التالي :

« معسكر القاهرة ، في ٧ تير ميلدور من السنة السادسة للجمهورية :
« نحن بونابرت عضو المجتمع العلمي القومي ، والقائد العام للجيش ،
نأمر بما يأتى :

أولاً : تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء هـ

ثانياً : يتالف هذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشراوى ،
والصباوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعرىشى ، وموسى السرى ، والسيد
عمر نقىب الأشراف ، ومحمد الأمير . وعليهم أن يجتمعوا اليوم ، الساعة
الخامسة مساء في منزل كخيا الشاويشية ، وعليهم أن ينتخبوا رئيساً لهم ، وأن
يختاروا أميناً (كاتم سر) من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة
يعرفان الفرنسية والعربية ٰ

(١) وصف الخبر في هذا القصر وصفاً مستفيضاً ، وهو يترجم محمد بك الألنى . انظر :

الجبرق ، مصدر سابق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٢٦ - ٤٢ .

(٢) كان بونابرت عضواً في المجتمع العلمي الفرنسي منذ ديسمبر ١٧٩٧ ، وهذه العضوية هي
التي يقصد بها ويشير إليها في صدر هذا القرار ، وكان بونابرت يز هو بعضويته في هذه الهيئة العلمية
الفرنسية الرفيعة ، ولذلك كان في القرارات والأوامر العسكرية التي يصدرها يذكر صفتة العلمية
أولاً ، ثم صفتة العسكرية بعد ذلك ، وكانت توسيع الصياغة الفظوية لدبياجة أو مقدمة القرارات
والأوامر العسكرية على النحو التالي :

Bonaparte, Membre de l'Institut National, Général en chef,
ordonne :

بونابرت ، عضو المجتمع القومي ، والقائد العام ، يأمر :

- ٣٠ -

« ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند) لإدارة الشرطة ، وعليه أن ينتخب بلجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتمويل المدينة ، وبلجنة من ثلاثة آخرين يعهد إليهم بمهمة الإشراف على دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها إلى امتداد فرسخين منها »

ثالثا : يجتمع أعضاء الديوان كل يوم من الظهر ، ويبيق منهم ثلاثة أعضاء على الدوام في دار المجلس »

رابعا : يقام على باب الديوان حرس فرنسي ، وآخر تركي »
خامسا : على الجنرال بيرتيه^(١) Berthier ، وقومدان المدينة أن يكونا في الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لإجراء ما يلزم لأعضائه ، ولكي يأخذنا عليهم تعهداً بألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش » :

لنا على هذا القرار ثلاث ملاحظات ، تتصل بسياسة بونابرت الإسلامية ، أولها أن جميع أعضاء الديوان كانوا من المشايخ علماء الأزهر ، وقد عهد إليهم بالإدارة المحلية لمدينة القاهرة وضواحيها . أما الملاحظة الثانية فهي أن الاتفاق على اختيار أعضاء الديوان قد تم في حضور مصطفى باك كتخدا البasha — أي نائب الوالي العثماني — ، وقاضي عسكر أفندي — أي كبير القضاة

(١) رئيس هيئة أركان الحرب .

(٢) كان الجنرال ديتوى Dupuy يشغل هذا المنصب ، وكان بمنبة حاكم القاهرة ، وكان يلقب أحياناً بشيخ البلد ، وهو اللقب الذي كان يطلق على كبير الأمراء المماليك في القاهرة إبان الحكم العثماني ، ويلاحظ أن اسم هذا الجنرال كان يكتب في مذكرات بونابرت Dupuis . انظر : الجزء الأول ص ٢٤٨ ، ص ٢٤٩ على سبيل المثال .

(٣) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2837, en date du 7 Thermidor, VI^e année de la République. (25 juillet, 1798).

(٤) كان الكتخدا هو وكيل البasha ، وكان يعينه السلطان برتبة صنفق ، ويعاون البasha في أعماله الرسمية وغير الرسمية ، ويوقع الأوراق نيابة عنه في أثناء غيابه ، وكان يتغير بتغيير البasha ⑤

(١) العثماني. وكان حضورهما هذا الاجتماع أمراً له دلالته السياسية، فإن بونابرت كان حريصاً على المحافظة على العلاقات الودية مع السلطان ، والإبقاء على السيادة العثمانية الشكلية على مصر ، كما أن حضورهما يوحى بأنهما وافقاً على هذا التنظيم الجديد للإدارة المحلية ذات السلطة المدنية في منطقة القاهرة ، واللاحظة الثالثة أن بونابرت تراجع عن رأيه الذي سجله على نفسه في منشوره الذي أذاعه على أهل القاهرة بتاريخ ٢٢ يوليو ١٧٩٨ بأن يجعل من الجامع الأزهر مقراً لديوان القاهرة . ولا يمكن أن يقال إن بونابرت أراد أن يهيئ المناخ الصحي للأعضاء الديوان ، حتى يباشروا اختصاصاتهم ، بعيدين عن المؤثرات الدينية العنيفة ، أو عناصر الشغب ، أو غير ذلك من عوامل قد تعرقل أعمال الديوان ، ولكن الحقيقة المجردة التي تفسر هذا التراجع هي أن بونابرت قد تعجل في إصدار هذا الرأي في منشوره ، ثم تبين له استحالة تنفيذه ، لأن التقاليد الدينية لا تجيز دخول غير المسلمين في المساجد ، ويباشرون وظائف عامة من داخلها ، وكان بونابرت في القرار الذي أصدره بإنشاء الديوان قد عهد إلى اثنين من كبار قواد الجيش الفرنسي بالتوارد في دار الديوان « لإجراء ما يلزم لأعضائه ، ولكي يأخذوا عليهم تعهداً بـألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش » ، كما أن بونابرت عين في ٢٧ يوليو مندوباً له في الديوان، عرف باسم القوميسير commissaire ، ووقع اختياره على أحد كبار العسكريين وهو بوفوازان Adjudant Général Beauvoisins وطلب

(١) يقول الجبرق : « وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر ١٢١٣ أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قائم مقام صارى عسكر ، فلما استقر بهم البلوس خاطبواهم وتشاوروا منهم في تعيين عشرة أئمة من المشايخ للديوان وفصل الحكومات ، فوقع الاتفاق على الشيخ وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضى ». انظر : ج ٣ ، ص ١١ .

منه أن يرفع إليه عقب كل جلسة تقريراً عن كل ما دار فيها^(١)، يضاف إلى ذلك أن مراقبة حرس فرنسي عند باب الجامع الأزهر – فيها لو اتخذ الديوان من الأزهر مقراً له – مما يثير ثائرة الرأى العام في مصر ، وكان بونابرت حريراً^(٢) الحرص كله على استرضائه ، واستلال الضغينة من نفوس الجماهير.

* * *

ومن مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية تودده إلى المشايخ علماء الأزهر، أضفي عليهم الكثير من مظاهر الاحترام والتقدير، واستبقي لهم امتيازاتهم ، وعلى رأسها حصصهم في نظام الالتزام في القرى ، وتنظر لهم على الأوقاف . وأمر بأن يُؤدى رجال حرس الشرف الذين يرابطون أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر ، إذا جاءوا إلى مقر القيادة ، فإذا دخلوا هذا المقر خف لاستقبالهم رجال الياوران والمترجمون يرحبون بهم ، ويقودونهم إلى الصالون الرئيسي في القصر ،

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no 2866, en date du 9 Thermidor, VI^e année de la République. (27 juillet, 1798).

وقد حدث أن أوفر بونابرت هذا الضابط في مهمة رسية إلى الجزائر باشا والى عكا ، فعين في ٣١ من أغسطس ١٧٩٨ فرنسي آخر مكانه هو تاليا Tallien ليكون ممنوباً لبونابرت لدى الديوان ، وكانت مهمته الأولى التجسس على الأعضاء ، فقد جاء في أمر تعينيه ما يأق : « على المواطن تاليا أن يحضر جميع جلسات الديوان ، وأن يعمل على معرفة أخلاق أعضائه ، ومبليغ الثقة التي يمكننا أن نوليهم إياها ». انظر :

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3207, en date du 14 Fructidor, VII^e année de la République. (31 août, 1789).

(2) استفسر بونابرت من أعضاء الديوان عن أفضل طريقة لحكم مديريات القطر المصري ، فأدلو إليه بإجابات أعجب بها ، وعلى ضوئها أصدر أمرآ في ٢٧ يوليو ١٧٩٨ بأن ينشأ في كل مديرية ديوان يتألف من سبعة أعضاء ، وحدد في هذا الأمر اختصاصات الدواوين ، والأجهزة التي تعاونها في مباشرة اختصاصاتها . انظر :

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no 2858, eu date du 9 Thermidor, VI^e année de la République. (27 juillet, 1798).

(3) Napoléon I^r; Guerre d'Orient. etc., t. I. p. 213.
وقد كرر بونابرت في الجزء الثاني من مذكرة المشار إليها موضوع التحية العسكرية التي أمر أن يؤديها العسكريون الفرنسيون للمشايخ علماء الأزهر .
انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٢ من مذكرياته .

وتقادم لهم المرطبات ثم القهوة ، فإذا فرغوا من تناولها دخل عليهم بونابرت ورحب بهم ، وجلس وسطهم ، شاعوا أن يدخل في نقوسهم العلمانية والثقة . وكان يخوض معهم -- بواسطة المستشرق فانتور الذي كان يقوم بوظيفة المترجم -- في مناقشات علمية ، تناول القرآن الكريم ، ويطلب بونابرت من المشايخ تفسير بعض الآيات . وكان يحرص على إظهار الاحترام الشديد للنبي صلوات الله وسلامه عليه . وينخرج المشايخ من عنده وهم ألسنة تلهج بالشكر والثناء ، ويذهبون إلى الجامع الأزهر ، ويجتمعون بنـ فيهـ ، ويتحدثون إليـهمـ عـما شـاهـدوـهـ وـسمـعـوهـ . ويعلق بـونـابـرتـ عـلـىـ هـذـاـ المـسـلـكـ بـأنـ المشـاـيـخـ عـلـمـاءـ الأـزـهـرـ قـدـ أـدـوـاـ خـدـمـاتـ جـالـيـلـةـ لـلـجـيـشـ الفـرـنـسـيـ . وقد أـشـادـ فـيـ مـذـكـرـاتـهـ بـخـصـائـصـهـ ، وـقـالـ لـهـمـ طـاعـنـوـنـ فـيـ السـنـ ، وـإـنـ عـاـمـهـمـ وـطـبـاعـهـمـ وـلـرـاءـهـمـ ، بـلـ وـعـرـاقـةـ أـصـوـلـهـمـ ، وـكـرـمـ مـتـهـمـ ، كـلـ أـولـثـكـ يـحـمـلـ الإـنـسـانـ عـلـىـ إـظـهـارـ مـزـيدـ مـنـ الـاحـتـرـامـ نـحـوـهـمـ . وـمـضـىـ بـونـابـرتـ فـيـ مـذـكـرـاتـهـ فـقـالـ : إـنـهـ كـانـ مـفـاجـأـةـ سـارـةـ لـعـلـمـاءـ الأـزـهـرـ حـينـ أـدـرـكـواـ بـهـ مـشـرـقـ شـهـرـ وـاحـدـ مـنـ دـخـولـ الـفـرـنـسـيـنـ الـقـاهـرـةـ أـنـهـمـ أـصـبـحـواـ ذـوـيـ نـفـوذـ كـبـيرـ ، وـأـنـهـمـ يـشـرـكـونـ

(١) اسم Jean Michel Venture de Paradis. كان من كبار المستشرقين ، وأكبر أعضاء هجيم مصر العلمي سنة ١٧٤٢ فهو من مواليد مارسيليا سنة ١٧٤٢ . وكان أحد كبار الخبراء الفرنسيين في مسائل الشرق الأدنى ، قام بجولات طويلة في بلاد الشرق ، وأقام بها سنوات عديدة ، وعمل مترجماً في السفاررة الفرنسية في الاستانة ، ثم مدرساً للغة التركية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، إلى أن وقع اختيار بونابرت عليه ليكون كبيراً لمترجعي الحملة ، ومستشاراً له في الشؤون الشرقية ، وقد أصيب بالدوستاريا في أثناء حصار عكا ، وقضى ثعبه هناك ، ونمساً بونابرت إلى ديوان القاهرة ، وقال عنه البرق : « ومتى ورد هذا ترحان سارى عسکر ، وكان لبيباً متبعاً ، ويرف باللغات التركية والبربرية والروسية والطالية والفرنساوية » (ج ٣، من ٦٨) وكانت وفاته خسارة فادحة للعام ، إذ لم يقدر له أن يضع شيئاً عن الحملة الفرنسية ، وكان من تلاميذه مارسيل MarcelJaubert الذي خلف فانتور في منصبه كبيراً لمترجعي الحملة .

(2) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I. pp. 213-214.

في شئون الإدارة والحكم ، وكانت كل قراهم ومتلكاتهم الخاصة ووضع الرعاية التامة ، ولم يسبق أن تمنع هؤلاء الرجال بمثل هذا التقدير . وكانوا يجتمعون في وقت واحد بين عدة صفات ، فهم كبار رجال الدين والقضاء ، ورمز الأристقراطية ، ولم يحدث أن سعى الناس إليهم يائسين حمايتهم ، كما حدث إبان الحكم الفرنسي ، إذ لم يكن المسالكون وحدهم هم الذين يرجون هذه الحياة ، بل كان ينشد ها أيضاً المسيحيون من الأقباط واليونانيين والأرمن المقيمين في مصر^(١)

وما هو جدير بالذكر أن بونابرت أصدر في ٢٧ يوليو ١٧٩٨ – أي في خلال الأسبوع الأول للدخوله القاهرة . قراراً بتخصيص حصان لكل عضو من أعضاء ديوان القاهرة ، وكان هذا القرار يحمل معنى التكريم والتقدير للمشائخ علماء الأزهر بالذات ، لأن عضوية ديوان القاهرة كانت في تلك الفترة مقصورة عليهم ، فكان هذا القرار يناسب عاليهم ، كما أن وسائل المواصلات في مدينة القاهرة كانت تخضع في ذلك الوقت للتفرقة العنصرية ، وللنظام الطبقي معاً : فالخيل يستخدمها الأتراك العثمانيون والماليك . أما البغال فيركبها العلماء بقوله أنها تسير الموينا ، وفي هذه يناسب وقار العاجاء . أما الخمير

(١) كان ماجا، في ذكراته :

“Tous leurs villages, toutes leurs propriétés particulières furent ménagés avec une délicate attention. Jamais ces hommes qui étaient à la fois les chefs de la religion, de la noblesse et de la justice n'avaient été plus considérés; jamais leur protection n'avait été plus recherchée, non seulement par les Musulmans, mais même par les chrétiens, Coptes, Grecs, Arméniens établis dans le pays.”

Loc. cit

(2) Correspondance de Napoléon ; t. IV, doc. no. 2865 en date du 9 Thermidor VI^e année de la République. (27 juillet 1798).

فكان تركبها الجماهير^(١) ، وعلى مبلغ علمنا لم يوضع قرار بونابرت هذا موضع
التنفيذ^(٢) :

* * *

وكان من مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية اهتمامه العميق بالأعياد الدينية الإسلامية ، في شهر أغسطس ١٧٩٨ — وهو الشهر التالي لدخوله القاهرة — حلت مناسبة دينية يحتفل بها المصريون احتفالاً شعبياً واسعاً ، وهي المولد النبوى الشريف ، وكان الاتجاه العام لدى الشعب هو عدم إقامة احتفالات في هذه الذكرى الكريمة نظراً لظروف العصبية التي كانت تجتازها البلاد وقتذاك . ولعل هذا الموقف السلبي في تلك المناسبة الدينية كان تعبراً شعبياً دينياً عن السخط على الحكم资料 ، ولكن كان هذا الموقف من ناحية أخرى يتعارض تماماً مع سياسة بونابرت الإسلامية ، ومن ثم أمر بأن تقام

(١) كانت طائفة المكارية أو المارة أكثر طوائف الحرف عدداً في مدينة القاهرة .

(٢) يستفاد من الجبرى أن علماء الأزهر وفيهم أعضاء الديوان لم يستخدموا في تنقلاتهم إلا المقال . وقد سبق أن ذكرنا أن بونابرت قرر في مذكرةه أن علماء الأزهر فرع يمليون إلى الوداعة ولا يركبون المليل . كما أنه كتب في مذكرةه أيضاً وصفاً دقيناً لرثى المشايخ علماء الأزهر البغال يحيطها الأتباع .

(٣) كان بونابرت قد احتفل قبل ذلك بأسبوع — أي في ١٧ أغسطس ١٧٩٨ — بوفاة النيل ، وهو عيد كانت تشارك فيه قطاعات مختلفة من سكان القاهرة المسلمين والأقباط ، وكذلك أفراد من أهل بلاد الشام المسيحيين ، ومن اليونانيين ، ويتبين من كلام الجبرى أن المصريين انصروا عن المشاركة في الاحتفال به ، على الرغم من أنهم كانوا يتوجهون به كل سنة قبل الفزو الفرنسي ، فهو يقول بعد أن وصف حفل وفاة النيل ، وما استحدثه الفرنسيون من مباهج : « وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه في المراكب على العادة ، سوى النصارى والشوم والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسائهم ، وقليل من الناس البطاليين حضروا في صبحها » .

الظرر :

الجبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٤ - ١٥ .

احتفالات كبرى ، تفوق في روعتها وبهاها الاحتفالات التي كانت تقام في هذه المناسبة على عهود السلاطين المماليك ، وغيرهم من الحكماء المسلمين ، كما أمر أن يشترك الجيش والموسيقات العسكرية في الاحتفالات ، وأن تطاق المدفع نهاراً ، والألعاب النارية والصواريخ ليلاً ، وأن تعاق أمام مقر القيادة العامة للمجيش الفرنسي فناديل ذات زجاج متعدد الألوان ، لتبدو في غاية الجاذبية عند إضاءتها ليلاً^{١)}

وقد مهد بونابرت لاحتفالات المولد بشغل منصب ديني كبير هو منصب نقيب الأشراف ، وقد ظل شاغراً منذ أن هاجر عمر مكرم إلى الشام عقب معركة إمبابة ، ولعل المشايخ أعضاء الديوان أو المطلعين إلى هذا المنصب من أسرة البكري هم الذين فاتحوا بونابرت في ضرورة شغل منصب نقيب الأشراف قبل أن تبدأ احتفالات المولد النبوى الشريف ، والاحتفال الثاني هو الأصح ، لأن أسرة البكري كانت صاحبة المصلحة في إعادة نقابة الأشراف إليها . وتشياً مع هذا التوجيه أصدر بونابرت قراراً بتعيين السيد خليل البكري نقيباً للأشراف ، وذهب بنفسه إلى دار الشيخ خليل البكري ، حيث كان المشايخ أعضاء الديوان قد سبقوه إليها ، وهناك وفي حضورهم خلع بونابرت

(١) كانت نقابة الأشراف في أسرة البكري ، وكان السيد محمد البكري هو نقيب الأشراف وشيخ المساجدة البكرية ، فلما جاز إلى ربه بدون عقب في ١٨ ربيع آخر ١٢٠٨ - ٢٣ نوفمبر ١٧٩٣ ، عين الأميران المملوكيان إبراهيم بك ومراد بك في منصب النقيب السيد عمر مكرم ، كما عين السيد خليل البكري شيئاً للمساجدة ، وكان تعيين عمر مكرم نقيباً للأشراف بمثابة مكافأة له حل السفاراة التي قام بها في يونيو ١٧٩١ من أجل إعادة إبراهيم بك ومراد بك إلى الحكم في القاهرة ، وكان في ذلك الوقت في الصعيد يسمى سعيداً حيثما لاستمداد حكمهما السليم ، الذي أطاحت به الحملة العثمانية بقيادة حسن باشا الجزائري على مصر سنة ١٧٨٦ .

انظر ملabbat هذا الموضوع في مؤلفنا: عمر مكرم ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٤-٢٨

خلعة ثمينة على النقيب الحمديك ، وكان هذا الإجراء بمثابة إعلام رسمي بتنقاضه المنصب ، ومارسته لسلطات وظيفته ، ويقول الحبرتى : « نودى في المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب » .^(١)

ويصف الحبرتى اهتمام بونابرت باحتفالات المولد ، واشتراك الجيش الفرنسى في الاحتفال به ، فيقول : « سأل صارى عسكراً عن المولد النبوى ولماذا لم يعملاه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال ، فلم يقبل ، وقال لا بد من ذلك ، وأعطى له ثلائة ريال فرنساوى معاونة . وأمر بتعليق تعاليق وأحجال وقناديل . واجتمع الفرنساوية يوم المولد

(١) انظر عرضاً لاختصاصات نقيب الأشراف ، وملاقات الأشراف بنتيجهم ، ومارق محاكماتهم في بحث بعنوان :

Essai sur les mœurs des habitans (sic) modernes de l'Egypte, par M. de Chabrol.

وقد نشر في الجزء ١٨ المجلد الأول ص ١ - ٣٤٠ في « وسوعة وصف مصر »

Description de l'Egypte, ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée Française. Seconde édition, dite de Panckoucke, Paris, 1821 - 1829. 26 volumes de texte et le même nombre de planches.

والمجموعة التي في متناول الباحثين في دار الكتب والوثائق القومية في القاهرة هي الطبعة الثانية المشار إليها في هذا المامش ، وقد رجعنا إليها في بحث بعض النقاط التي تضمنها هذه الدراسة ، ولذلك فإن الإحالة في هوامش الصفحات التالية من هذا البحث تشير إلى الطبعة الثانية من « وسوعة وصف مصر » .

(٢) الحبرتى ، محدث سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩ ،

ولعبوا ميادينهم ، وضرروا طو لهم ودبادتهم ، وأرسل الطلاب خاتمة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكري ، واستمرروا يضررونها طوال النهار والليل بالبركة تحفظ داره ، وهي عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات التوبية التركية ، وعدة آلات وزمامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا في الليل حرارة نفو ط مختلفة ،^(١) وسوار يخ تصعد في الهواء » .^(٢)

واستمرت الاحتفالات بالمولد النبوى من ١٩ إلى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ ، أوقدت خلال لياليها القناديل ، وأمسيت شوارع القاهرة وطرقاتها بمثابة أسوق ليلية . واحتضن الفرنسيون ثلاثة بيوت في القاهرة بالإضاءة القوية الكثيفة الممتازة طوال الليالي الخمس التي استغرقتها احتفالات المولد ، وكانت هذه البيوت هي : دار بونابرت ، ودار ديوبى الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة ، ودار السيد خليل البكري .^(٤) وكان أرباب الطرق الصوفية والأتباع والمربيدون والبراوىش وأصحاب الأشایر ومن لهم يطوفون في مواكب جراره ، يحملون المشاعل والأعلام ، وينشدون في أصوات هادرة عبارات دينية بين دق الطبول والتكبير ، وذكر اسم الرسول صلوات الله عليه . وسارت في أثر هذه المواكب الدينية مواكب الطوائف ، يتقدم كل طائفة شيخها ونقيبها وأعلامها وشاراتها .

وحضر بونابرت الليلة الخاتمية للمولد في دار السيد خليل البكري ، كما حضرها العلماء الفرنسيون أعضاء مجمع مصر العلمي ، وكبار ضباط الجيش .

(١) فرقة الموسيقى العسكرية .

(٢) يقصد برقة الأزبكية بالقرب من ميدان الأزبرا حالياً .

(٣) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٤) Courrier de l'Egypte. No 1. en date du 12 Fructidor VI^e année de la République (29 août 1798). p. 3.

وجاء القائد العام أرضاً ساعات طوالاً يستمع إلى المقرئين يتلون آيات القرآن الكريم ، وإلى المنشدين وهم يتلون القصة النبوية ، والتواشح الدينية : وكان كبار المشايخ يجلسون أرضاً حوله ، وكل منهم يمسك مسبحة في يده ، ينصت لما يتل . وبلغ من دهاء بونابرت أنه أخذ يقلد الحاضرين ، فكان يهتز ذات اليدين وذات الشمال كأنه مدرك لما يقولون ، متأثر بما يتلون . وأظهر صبراً لم ينف في شهود حفلة الذكر من بدايتها حتى نهايتها ، وقد تحملتها مأدبة عشاء أقامها السيد خليل البكري . ومدت الأسمطة على الطريقة الشرقية : واشترى الضيوف الفرنسيون مع المدعويين المصريين في الجلوس أرضاً على وسائل إلى هذه الأسمطة . وكان السطاط الذى جلس إليه بونابرت ، والسيد خليل البكري يتتوسط الأسمطة الأخرى ، وقد بلغ عددها خمسين سطاطاً وكان بونابرت يأكل بيديه ، فيمد يمينه في تلال الأرض وأكمام اللحم وأطعيب الطعام المقدم على صوان نحاسية ضخمة مستديرة ، وحذا الضيوف الفرنسيون على مضمض حذو بونابرت ، فكانوا يأكلون بأيديهم مع المشايخ والأعيان ، ويشربون الماء المعطر برائحة الورد :

وانتفع بونابرت سياسة إعلامية نشيطة عقب الاحتفالات بالمولود النبوى الشريف ، أرسل رسالة مؤرخة فى الحادى عشر من شهر فركتيلدور Fructidor من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٢٨ أغسطس ١٧٩٨) إلى الجنرال

(1) Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali - bey, et suivi du récit des événemens (*sic*) survenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed - Ali, Paris, Denain 1830 - 1836, 10 vols. t. III. pp. 376 - 378.

- ٤٠ -

مارمون^(١) Marmont يطلب منه مقابلة الشيخ محمد المسيري كبار علماء الإسكندرية ورئيس ديوانها ، ويشرح له كيف احتفل بونابرت بالمولود النبوى في القاهرة ، وأمره بأن يذكر له في ثنایا الحديث أن بونابرت يجتمع ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف الذين ينحدرون من الدوحة النبوية الشريفة ، وأن له مع هؤلاء وأولئك أحاديث ومناقشات ، ثم قال في رسالته : « إنه لا يوجد من هو أكثر مني اعتقاداً في طهارة وقدسية الديانة المحمدية » .

“ , et que personne plus que moi n'est persuadé de la pureté et de la sainteté de la religion mohamétane.”^(٢)

وفي ذات اليوم - ٢٨ أغسطس - أرسل بونابرت إلى الشيخ محمد المسيري رسالة كان مما جاء فيها : « تعلمون التقدير الخاص الذى شعرت به نحوكم منذ اللحظة الأولى التى عرفتكم فيها ، إننى أرجو ألا يتأخر الوقت الذى استطيع فيه جمع كل الرجال العقلاء ، وال المتعلمين فى البلاد ، وإقامة نظام موحد يقوم على مبادئ القرآن التى هي وحدها المبادئ الحقة ، والتى هي وحدها قلبيرة على إسعاد الناس » .

(١) تصفه الوثائق الفرنسية بأنه كان يشغل في ذلك الوقت منصب قائد طابور متحركة بين رشيد وأبي قير .

commandant d'une colonne mobile entre Rosette et Aboukir.

(٢) عين الشيخ محمد المسيري رئيساً لديوان الإسكندرية ، عندما أنشأ الجنرال كليلير هذا الديوان في ٢١ أغسطس ١٧٩٨ ، تفيذآ لأوامر أرسلها إليه بونابرت .

(3) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3147, au Général Marmont, en date du 11 Fructidor VI^e année de la République. (28 août, 1798),

“ Vous savez l'estime particulière que j'ai conçue de vous au premier instant où je vous ai connu. J'espère que le moment ne tardera pas où je pourrai réunir tous les hommes sages et instruits du pays, et établir un régime uniforme, fondé sur les principes de l'Alcoran, qui sont les seuls vrais et qui peuvent seuls faire le bonheur des hommes. ”⁽¹⁾

ومضى بونابرت في سياسته الإعلامية ، مستغلًا احتفالات المولد النبوى الشريف ، فأرسل في ٢٩ أغسطس إلى الجنرال كلير نسخة من عدد جريدة *Courrier de l'Egypte* الصادر في ذات اليوم ، وكان هو العدد الأول من هذه الجريدة الإخبارية الفرنسية التي أصدرتْها قيادة الحماة ، وكانت تطبع في القاهرة . وقد تضمن هذا العدد مقالاً عن الاحتفالات التي أقيمت بالقاهرة بمناسبة المولد النبوى ، وإسهام الفرنسيين في هذه الاحتفالات إسهاماً رسمياً ، وقد طالب بونابرت من كلير اتخاذ الإجراءات لترجمة هذا المقال إلى اللغة العربية ، والعمل على طبعه وإذاعته في كافة أنحاء الشرق ، وأن يرسل إلى بونابرت أربعين نسخة من الترجمة العربية .⁽²⁾

تناقلت الجاهير بتحفظ شديد أنباء هذه المشاركة البونابرتية في احتفالات المولد النبوى ، وأدرك الشعب بسليقةه أن هذه الأفعال ليست صادرة عن عقيدة حقيقة وإيمان صحيح ، وإنما هي ضرب من الخداع والنفاق ، وأن بونابرت استهدف منها تخدير الشعب ، حتى توطد دعائم الحكم الفرنسي في مصر ، ثم يظهر بونابرت على حقيقته ، وهكذا جاءت نتيجة عكسية لإسراف بونابرت في التظاهر باحترام الإسلام ، ويقول أحد الباحثين الفرنسيين في هذا الصدد إن الطريقة الحقيقة لكسب قلوب المسلمين من وجهة النظر الدينية ،

(1) Ibid, doc. no. 3148, au Cheikh El Messiri. (la même date).

(2) Ibid, doc. no. 3176 au Général Klebér, en date du 12 Fructidor VI^e année de la République. (29 août, 1798),

هـ لـ إـ فـاهـمـهـمـ بـالـأـقـوـالـ وـالـأـفـعـالـ أـنـ الإـسـلـامـ مـوـضـعـ الـاحـتـرامـ ،ـ أـمـاـ التـمـادـيـ فـيـ إـظـهـارـ مـثـلـ هـذـاـ الـاحـتـرامـ فـإـنـهـ يـثـرـ شـكـوكـ الـمـسـلـمـينـ وـسـخـريـتـهمـ ،ـ وـيـجـعلـهـمـ يـنـظـرـونـ إـلـىـ مـتـزـعـمـ هـذـهـ السـيـاسـةـ عـلـىـ أـنـهـ مـنـاقـفـ أـوـ دـجـالـ هـ

* * *

وكان منصب أمير الحج شاغراً ، إذ كان صالح بك قد تقلد إمارة الحج في منتصف ١٢١٢ هـ قبيل الغزو الفرنسي بشهور معدودات ، وكان من أتباع مراد بك المقربين إليه . يذكر الجبرتي أن مراد بك شيد له داراً بجوار قصره في الجيزة ، فلما عاد صالح بك من الحجاج مع قافلة الحج المصري رفض أن يذهب إلى القاهرة وأنضم إلى إبراهيم بك في بلبيس ، ثم ارتحل معه إلى بلاد الشام حيث توفي في ذات السنة^(٢) . وأراد بونابرت استغلال هذه الفرصة بشغل المنصب ، وخلق جو من الدعاية لسياسته الإسلامية ، ووقع اختياره على مصطفى بك كتخدان البشا العثماني . وقد مر بنا أن مصطفى بك قد آثر البقاء في مصر ، ولم يتحقق بالباشا في ارتحاله عن البلاد مع إبراهيم بك وعمرو مكرم وغيرهما ، وكان رجلاً مهاباً ، ذا نفوذ واسع : وقد نجح بونابرت في حمله على قبول إمارة الحج : واستهدف بونابرت من تعيينه التقارب إلى الباب العالي ، لأن منصب أمير الحج

(1) "Au point de vue religieux, la vraie façon de gagner les cœurs est été de tout mettre en œuvre pour faire comprendre aux musulmans, par des paroles et des actes, qu'on respectait sincèrement leur religion. Aller au-delà, c'était risquer d'exciter les défiances de tous et de se rendre ridicule par des jongleries.

Chauvin Victor; ouvr. cit., p. 10.

(٢) انظر ترجمة صالح بك في الجبر في ج ٣ ، ص ص ٦٦ - ٦٧ ، ويقول الجبرى : إنَّه بعد أن مُنْتَهِيَتْ مُدَةُ عَلِيٍّ وفَاتَهُ « أَرْسَاتْ زَوْجَهُ فَأَحْضَرَتْ رِمَّةَ وَدَفَنَتْهَا بِمَصْرَ بَرَبَةُ الْمُحَاوِرِينَ » .

كان يتولاه أحد كبار الأمراء المماليك من رتبة طباخانة . ويقرر بونابرت أن هذا التعيين قد أدهش جميع الناس ، وأنه أمر بأن تدفع لأمير الحجيج الجديد كل المخصصات المقررة لشاغل هذا المنصب ^(١) ، وكان منصب أمير الحج من المناصب الرئيسية في مصر . وكان يراعى في اختيار المرشح له شروط معينة ، لأنه كان يتحمل مسؤوليات ضخمة ، أهمها حماية الحجاج من اعتداءات البدو على قافلة الحج ، وكذلك المحافظة على الأموال المعروفة باسم «الصرة» وغير هامن الخيرات التي ترسل من مصر إلى شريف مكة ، للإنفاق منها على الحرمين الشريفين ، وعلى فقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة : ونذكر بهذه المناسبة أن اتصال الحجاز مصر كان حتى القرن التاسع عشر أقوى من اتصاله بالدولة العثمانية نفسها .

وأقيم الاحتفال بتعيين مصطفى بك أميراً للحج في ٢ سبتمبر ١٧٩٨ ، وذهب بونابرت إلى الديوان ، وخلع عليه في حضور المشايخ علماء الأزهر خلعة خضراء ، وأهدى إليه جواداً كريماً ، وغطاء للرأس مرصعاً بقطع من الماس والأحجار الكريمة ، وأمر بإطلاق المدفع كوسيلة إعلامية لإبلاغ سكان القاهرة بهذا التعيين ^(٢) . وغادر مصطفى بك مقر الديوان في موكب رسمي ^(٣) وفي أثناء مسيرة الموكب أطلق المدفع ست طلقات ، ورددت عليها مدفوعة القلعة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقضى بونابرت يحيط شغل هذا المنصب بالحلو الإعلامي ، فعهد إلى ديوان القاهرة بإبلاغ أمر هذا التعيين إلى سلطان الدولة العثمانية ، وإلى شريف مكة ، وحكام طرابلس وتونس والجزائر . ويلاحظ أن حجاج شمال أفريقيا كانوا يحضرون إلى مصر وينضمون إلى

1) Napoleon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 228.

2) Charles- Roux F.; Bonaparte, Gouverneur d'Egypte. Paris, 1935. p. 84.

3) Reybaud; Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 80.

— ٤٤ —

قافلة الحج المصري قبل تحركها إلى الحجاز ، ومن هنا جاء اهتمام بونابرت بإبلاغ سكان شمالي أفريقيا أن الحكم الجديد في مصر قد كفل الأمان والطمأنينة للحجاج ، وبذلك لا ينقطع قدم حجاج هذه الأقاليم إلى مصرف موسم الحج .

ثم توسع بونابرت في سياسته الإعلامية ، فأمر بإذاعة مذكرة الديوان على أفراد الشعب المصري عن طريق الملصقات في شوارع القاهرة وعند مفارق الطريق .

ثم خططا خطوة أخرى حين أمر بتوجيهه هذه المذكرة إلى سائر حكام البلاد الإسلامية ، وهذه المذكرة تحمل تاريخ عشرين من ربيع أول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر ١٧٩٨) . ومن الواضح أنها وضعت أولًا باللغة الفرنسية ، ثم ترجمت إلى العربية ، ويقرر أحد الباحثين الفرنسيين أن الشيخ محمد المهدى هو الذي قام — بعد أن تمت ترجمتها — بتنميقتها قبل إعدادها لطبع ونشر ، واهتمت المصادر الفرنسية بنشر النص الفرنسي الكامل لهذه المذكرة ، زاعمة أنها ترجمة فرنسية للأصل العربي ، أما الجبرى فقد ذكر ملخصاً لها^(١) .

والمذكرة تحوى عرضًا عاماً لأعمال الفرنسيين في مصر ، منذ أن انتصروا في معركة إمبابة ، وقالت إن وفداً من المشايخ علماء الأزهر — ونعتهم المذكرة بأنهم دكتورة الشريعة *docteurs de la loi* — قد عبروا النيل إلى الجيزه ، وذهبوا إلى بونابرت عقب معركة إمبابة ، وطلبوه إليه الأمان ، فأجابهم إلى طلبهم ، ثم رجعوا أن يأذن في أن يستمر الدعاة للسلطان في خطبة الجمعة ، فأقر لهم على ذلك ، وأعلن لهم أنه صديق مخلص للسلطان . وقررت المذكرة أن

(1) Chauvin (V.); ouvr. cit., p. 14, note 1.

(2) ذكر على سبيل المثال :

Courrier de l'Egypte. No 6. Le 2ème jour complémentaire, VIe année de la République. pp. 1 - 3. Voir aussi: Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 81 - 85.

(3) الجبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢١ .

الفرنسيين حر يصون حر صاً شديداً على احترام الشعائر الدينية الإسلامية، وعلى استئمار أدائها بصورة ريبة منتظمة ، من حيث فتح المساجد، وإقامة الصلاة، وتلاوة القرآن . وقالت المذكورة أيضاً إن بونابرت ذهب إلى مديرية الشرقية وأنقذ الحجاج من اعتداءات العربان، وإنه احتفل بوفاء النيل والمولود النبوى، وقلد مصطفى بك وكيل البشا العثمانى إمارة الحج ، وإن هذا الاختيار لابد أن يصادف الارتياح فى دوائر الآستانة ، لأنه يؤكّد حقوق الباب العالى فى مسألة هامة. وخلصت المذكورة إلى أن بونابرت مهمّهم بتيسير معدات الحج في الموسم الجديد ، وأن قواقل الحج لن تتعرض لأى خطر وهى فى طريقها إلى مكة ، لأنّها ستكون في حراسة عسكرية قوية ، تجعلها بآمن من اعتداء البدو عليها :

ويلاحظ أن الجبرى أغفل ذكر أجزاء من هذه المذكورة ، ولعله اعتبر هذه الأجزاء نوعاً من التفاق ، أو الدجل السياسى ، فقد ورد في النص الفرنسي أن بونابرت قد حطم الصليبان وهدم الكنائس في البلاد التي فتحها في أوروبا، وبخاصة في البندقية ، وأنه عصف بعرش البابا في روما . أما الجبرى فقد قال إنه ورد في تلك المذكورة ذكر « بمعنى الكلام السابق من قوله إنهم مسلمون ، وأنهم ختمون للقرآن والنبي ». وتلخيص الجبرى للمذكورة يعطى القارئ العربي صورة عن جهود بونابرت في سياسة الإسلامية . وعباراته أو عبارات الشيخ المهدى لا تخلو من الفائدة التاريخية ، ولذلك نذكر هنا الفقرات الأخيرة كما وردت في الجبرى ، فهي تقرر أن الفرنسيين « أو صلوا الحجاج المتشتتين وأكرمواهم ، وأركبوا الماشي ، وأطعموا الحشيعان ، وسفوا العطشان ، واعتنوا بيوم الرينة يوم جبر البحر ، وعملوا له شأنًا ورونقًا ، استجلاباً لسرور المؤمنين ، وأنفقوا أموالاً برسم الصدقه على الفقراء ، وكل ذلك اعتنوا بالمولود النبوى ، وأنفقوا أموالاً في شأن انتظامه ، واتفق رأينا ورأيهم

- ٤٦ -

على لبس حضرة الحناب المحترم مصطفى أغا كتخدا بكر باشا والى مصر حالا،
فاستحسنا ذلك لبقاء علقة الدولة العلية ، وهم أيضاً مجتهدون في إتمام مهمات
الحرمين ، وأمررنا أن نعلمكم بذلك ^(١) .

* * *

وأقام بونابرت في ٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨ احتفالاً عسكرياً مهيباً بمناسبة
الذكرى السابعة لإعلان قيام الجمهورية الفرنسية . وعلى الرغم من أن مناسبة
هذا الاحتفال تتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ فرنسا القومي ، ولا تمت لسياسة
بونابرت الإسلامية بأية صلة ، إلا أنه أراد أن يستغل هذه المناسبة ذات الطابع
الفرنسي البحث ، ليبرز إمام المصريين الحناب الدينى الإسلامى في سياساته
في حكم مصر ، استعد بونابرت لهذا الحفل قبل حلول موعده بمدة طويلة ،

(١) المصدر السابق . ويلاحظ أن بونابرت سبق أن أرسل مذكرين : الأولى في ٢٥ أغسطس
والثانية في ٢٧ أغسطس إلى غالب بن مساعد شريف مكة ، أبلغه فيها بتصميم الفرنسيين الأكيد على
حماية قافلة الحج المصري ، وأنهم سيرسلون إلى الشريف لإبراد الأوواقف الخيرية المرصودة على الحجاج .
وجاء في المذكرة الأولى : « نحن أصدقاء المسلمين ولدين النبي ، ونرغب أن نعمل كل مافى استطاعتنا
لتكون تصرفاتنا متماشية مع الدين ، وأرجو أن تذيعوا في كل مكان أن قافلة الحج لن تتعرض لأى
اضطراب ، وأنها ستكون موضع حمايتنا ، وأنها لن تخشى من الأعراب شيئاً » .

Correspondance de Napoléon; t. IV:

Doc. no. 3110, en date du 8 Fructidor, VI^e année de la République (25 août 1798).

Doc. no. 3136, en date du 10 Fructidor, VI^e année de la République (27 août 1798).

(٢) أصدر بونابرت أمراً في ٢٦ أغسطس ١٧٩٨ يقتضى بأن يقام احتفال القاهرة في ميدان
الأزبكية ، واحتفال إسكندرية عبنة عبود السوارى ، واحتفال الصعيد عند أطلال طيبة ،
في الأقصر ، علماً بأن القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديزيه لم تكن قد بلغت بعد مدينة الأقصر .
انظر :

Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 3117, en date du
9 Fructidor, VI^e année de la République. (26 août 1798).

فأقام احتفال القاهرة في ميدان الأزبكية أمام مقر القيادة العامة للجيش الشرقي، وأمر بإقامة قوسين نصر كبيرين .. أى بوابتين .. ، وكتب على إحدى البابتين « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ^(١) ، ونقش على البوابة الأخرى صورة معركة إمبابة ، كما تخليها الفنان ريجو Rigo ^(٢) عضو لجنة الفنون بمجمع مصر العلمي ، كما أمر بنصب ١٠٥ سارية بعمر المقاطعات الفرنسية ، وسارية عظيمة في الوسط ، كان ارتفاعها سبعين قدماً، زينها الفنان ريجو بنقوش بدبوة ، وكان يرفرف في أعلىها العلم الفرنسي المثلث الألوان ، وأطلق الفرنسيون عليها « شجرة الحرية ». أما أهل القاهرة فقد أطلقوا على هذه السارية اسماً لادعاً ببله نقولا ترك في مذكراته: « إن هذه شارة الخاوزق الذي أدخلوه فيها ، واستيلائهم على مملكتنا » ^(٣) . كما أقيمت تماثيل جانبية من الخشب كتبت عليها أسماء قتلى الجيش الفرنسي في مصر .

وكان من بين المدعوين الذين وجهت إليهم الدعوة لحضور الحفل : مصطفى بك أمير الحج ، وقاضي القضاة العثماني ، وأعضاء ديوان القاهرة ،

1) Reybaud (L.) et autres, ouvr. cit., t. III, p. 379. Voir aussi: Courrier de l'Egypte. N. 8. Le 6 Vendémiaire, VIIe année de la République.

وعلى الرشن من أن المصادر والمراجع الفرنسية ذكرت كتابة الشهادتين على قوس النصر ، إلا أن الجبرق لم يشر إلى هذه الواقعة إطلاقاً ، ولم يذكر كتابة الفرنسيين للشهادتين فوياً من التفاق السياسي لا يستحق الذكر .

(٢) قام ريجو بأمر من بونابرت برسم الشخصيات المصرية والهجائية البارزة في مصر على عهد الحملة ، ووضعت هذه الصور في «وسوعة «وصف مصر» » .

(٣) نقولا الترك : ذكر « تملك جهود الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشابة » . نشر وترجمة ديرانج . باريس ، ١٨٣٩ ، ص ٤٥ .

Nakouala El Turk; Histoire de l'expédition des Français en Egypte par Nakoula El-Turk, publié et traduite par M. Desgranges aîné. Paris, 1839.

ودواوين الأقاليم ، والأعيان من المسلمين ، والأقباط ، والشمام ، ولبسوا في ذلك اليوم « ملابس الافتخار » ، وأجلسوا إلى المنصة الرئيسية التي أقيمت عند شجرة الحرية ، وفرشت المنصة وما حولها بالأبسطة الفاخرة ، وشاهد المدعوون عرضاً عسكرياً مهيباً ، تخلله إطلاق المدفع ، وكانت موسيقى الجيش تعزف الأنماط العسكرية والوطنية . ولما انتهى العرض العسكري اصطفت وحدات الجيش حول شجرة الحرية ، وتليت عليهم خطبة باللغة الفرنسية ، يقول عنها الجيرتي : « إنما ورقة بلغتهم لا يدرى معناها إلا هم ، وكأنما كانوا صبية أو النصيحة أو الوعْظَة^(١) ». ولكنها لم تكون شيئاً من ذلك ، كانت خطبة بليغة ، ألهب بها بونابرت حماس الجنود ، وأشاد بالأمجاد العسكرية التي حققوها على عهد الثورة في ميادين القتال في مختلف الجهات الأوروبية ، وأكد لهم أن جميع المواطنين في فرنسا وعددتهم أربعون مليوناً، وهم يحتفلون بإفادة الحكم الدستوري ، يتوجهون بعواطفهم وأفكارهم إلى رجال الحملة في مصر، ويذكرون في احتفالاتهم في فرنسا أنهم « مديتون لجهادكم ودمائكم بما يتمتعون به من السلام والطمأنينة ، والرخاء والحرية » . وأرسل بونابرت كتيبة من الجنود ليرفعوا على قمة هرم الجيزة الأكبر العلم الفرنسي المثاث بالألوان ، ثم دعى المدعوون إلى دار بونابرت حيث أقيمت ولية لمائة مدعو ، وبعد الظهر نظم سباق للخيول في ميدان الأزبكية ، ولما سمعوا الليل « أوقفوا

(١) الجيرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ١٨ .

(2) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 348 - 349.

(٣) انظر وصفاً صافياً للحفل في جريدة Courrier de l'Egypte تحت عنوان : Détails de la Fête du 1^{er} Vendémiaire célébrée au Kaire, pour l'anniversaire de la fondation de la République.

No. 8. Le 6 Vendémiaire, VII^e année de la République (27 septembre, 1798). pp. 2 - 4.

والنظر أيضاً كلام :

Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit. t. I. pp. 226 - 227.
Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. III, pp. 378 - 385.

جميع القناديل التي على الحبال والتماثيل ، والأهمال التي على البيوت ، وتنسق
العشاء عملاًوا حرارة بارود وسواريغ ونفوط وشهـ سوـاقـ وـدوـالـيـبـ من قـارـ
ومـدـافـعـ كـثـيرـةـ نـحـوـ سـاعـتـينـ مـنـ الـلـيلـ ، وـاستـمـرـتـ الـقـنـادـيلـ وـوقـدـةـ حـتـىـ طـالـعـ
الـهـارـ (١) ، وـفـيـ الـيـوـمـ التـالـيـ أـزـالـ الـفـرـنـسـيـوـنـ كـلـ هـلـهـ المـاشـاتـ ، وـأـبـقـواـ شـجـرـةـ
الـخـرـيـةـ وـقـوـسـ النـصـرـ المـتـقـوشـ فـوـقـهـ رـسـمـ مـعـرـكـةـ إـمـباـبةـ ، وـأـقـاـمـواـ قـوـةـ فـرـنـسـيـةـ
تـتـنـاوـبـ الـحـرـاسـةـ لـيـلـاـ وـنـهـارـاـ . وـلـمـاـ أـزـالـ الـفـرـنـسـيـوـنـ السـارـيـةـ بـعـدـ عـشـرـةـ أـشـهـرـ
استـبـشـرـ أـهـلـ الـقـاهـرـةـ خـيـرـاـ ، وـاعـتـبـرـواـ إـذـالـهـاـ فـآلـاـ حـسـنـاـ بـقـرـبـ جـلاءـ الـفـرـنـسـيـوـنـ
(٢) (٣) عن مصر ؟

لا ريب أن الأمر الذى أصدره بونابرت بأن تكتب على إحدى ابوابتين الشهادتان : « لا إله إلا الله، محمد رسول الله »، وهما من أركان الإسلام الخمسة ، وفي احتفال فرنسي قومي بحثت ، كان وسيلة ثم عن نهاية المدهاء السياسي بلذب قلوب الشعب المصرى ، لأنه لا يمكن أن تكون الشهادتان صادرتين عن عقيدة وإيمان في نفس بونابرت . ومن المعروف أن الثورة الفرنسية — بتأثير حزب إيبير Jacques-René Hébert (1747 - 1794) وشومت Pierie-Gaspard Chaumette (1763 - 1794) أعلنت إلغاء الدين المسيحي في فرنسا ، وإحلال عبادة العقل culte de la raison مكانها ،

(١) الجبرى ، مصلحة سق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨

(٢) يقول الجبرتي : إن قوس النصر قد سقط في الثانى من أكتوبر ١٧٩٨ بعد عشرة أيام من القضاء الحالى « وفي يوم الثلاثاء ٢١ من ربيع آخر ١٢١٣ - ٢ من أكتوبر ١٧٩٨ سقطت البوابة المصنوعة ببركة الأزبكية ، المقابلة لباب المرواء ، التى كانوا وذموها فى يوم عيدهم ، وقد تقادم شر حماها وصفتها ، وسبب سقوطها أنهم لما نبوا المساء من دشول للبركة ، وسدوا القنطرة كما تقدم ، علا المساء فى أرض البركة ، وتخلخلت الأرض ، فسقطت تلك البوابة . »

انظر : الحلاق ، مصلحة سق ذكره - ٣ ، ٦٠ .

(٣) نقولا ترك، لش دخغانچ، ص ٤٥

— ٥ —

وكان على الإنسان أن يعبد العقل ، والعقل مثل في سيدة ، وكان يدخل في الديانة الجديدة بعض مظاهر الفسق والمجون ، فالثورة الفرنسية العارمة تجهمت للديانات السماوية بوجه عام . ومجدير بالذكر أن بونابرت ، وهو ابن الثورة، لم يكن له اعتقاد ديني صحيح ، وقد قرر في مذكرةه أن الجيش الفرنسي لم يمارس أية عبادة منذ قامت الثورة الفرنسية ، وأنه في خلال الحملة التي خاضها الجيش في شبه جزيرة إيطاليا لم يذهب أحد من الجنود إلى الكنائس ^(١) وقد نجح الجيش هذا النجاح في مصر ، فلم يتردد على الكنائس ، وجاءت الحملة إلى مصر وهي لا تضم أحداً من رجال الدين ، قسياً كان أو أستقلاً :

* * *

وتابع بونابرت سياسته الإسلامية ، فأمر بالاحتفال بمواليد الإمام الحسين ، وكانت نية أهل القاهرة منصرفة عن إقامته في تلك السنة (١٢١٣-١٧٩٨م) بالنسبة للظروف التي كانت تحيط بها البلاد وقتذاك . وعلم بونابرت بهذا الاتجاه ، فأصر على إقامة الاحتفال كما جرت العادة ، وقيل له إن الاحتفال بهذا المولد يقام كل عام عقب الانتهاء من احتفالات المولد النبوى الشريف ، وقد أقيم الاحتفال في يوم الثلاثاء الثاني من أكتوبر ١٧٩٨ ، أو الحادى والعشرين من ربيع آخر ١٢١٣ ، وأشرف الشيخ محمد السادات على

(١) “Depuis la revolution, l'armée française n'exerçait aucun culte. Elle n'avait pas fréquenté les églises en Italie, elle ne les fréquentait pas davantage en Egypte”.

Napoléon I^e; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 215.
(٢) نود بهذه المناسبة أن نصحح خطأ وقع فيه الجبرتي ، إذ قرر أن الخطبة التي أعدها بونابرت خطل ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨ في القاهرة قد ألقاها « كبير قسوبيم ». والحقيقة أن الذي ألق هسنة الخطبة نيابة عن بونابرت هو أحد كبار العسكريين الفرنسيين ، واسميه بوير Adjudant Général Boyer.

انظر كلام من :

الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨
Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. III, pp. 380-381.

- ٦ -

الاحتفال ، وفي الليلة الختامية لموارد « حضر صارى عسكر وشاهد الوفدة »
ورجع إلى داره بعد العشاء ^(١) .

سياسة بونابرت الإسلامية في المجال الدبلوماسي

ومن مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية — في المجال الدبلوماسي —
الحوالات التي بذلت للاتصال بالصدر الأعظم وبأحمد باشا الجزائر والى عكا
والتوحد إليهما . وكان من بين أهدافه من هذه الاتصالات إقناع المصريين بأن
السلطان العثماني صديق للفرنسيين وأنه راض عن احتلالهم مصر . وقد وقع
اختيار بونابرت على بوڤوازان Beauvoisins — مندوبه لدى ديوان
القاهرة ... كى يسافر إلى الشام لإجراء مباحثات سياسية واقتصادية مع أحمد
باشا الجزائر . وقد زوده بتعلیمات مسجلة في الوثيقة رقم ٣٠٧٧ وتاريخها ٢٢
أغسطس ١٧٩٨ ^(٢) وقد أمره فيها بالذهاب إلى دمياط والإبحار منها على سفينة
عثمانية أو يونانية إلى يافا ويطلب مقابلة أحد باشا الجزائر « لكي يصرح له بصوت
عال أن المسلمين ليس لهم أصدقاء في أوروبا مثلنا . وأنى قد علمت مع الأسف
أنهم يعتقدون في بلاد الشام آن اعتزم الاستيلاء على بيت المقدس والقضاء على

(١) الجرق ، مصدر سابق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٢

(2) Correspondance de Napoléon, t IV.

(٣) يقول نقولا ترك في مذكراته إن هذا المندوب سافر على سفينة تابعة لأحمد باشا الجزائر
كانت راسية في ميناء دمياط وقت وصول الفرنسيين إلى مصر فاحتجزوها . ورأى الجنرال فيال
الحاكم العسكري لدمياط إطلاق سراح السفينة كى يسافر عليها بوڤوازان . وبعث في طلب
ربان السفينة واسمي العيدروس ، وأمره بأن يستعد للإبحار وأن يأخذ به على السفينة « مندوب
من طرف الدولة الفرنساوية لمقابلة أحد باشا الجزائر لأجل عقد اتفاق الصلح وإقرار السلام » ، وأخذ
بوڤوازان معه مقادير من الأرز بهدفه هدية للجزائر ، وأصطحب معه ترجمانا وتجزيرين عربيين شاميين
مسيمحيين هما أنطون زغيب ، وحسنا عطية .

انظر :

مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ثيت ، ص ص ٣٣ - ٣٤ .

الدين الإسلامي ؛ وليقل له إن هذه الظنون بعيدة عن رغبتي وميولي ؛ فليكن مطمئن البال و يجب عليه ألا يخلط بيننا وبين غيرنا من الأوروبيين ، ذلك لأننا عشرون فرنسيين لانستعبد المسلمين ، بل على العكس إننا ننسع طم طريق الحرية » وطلب بونابرت من مندوبيه أن يسافر إلى عكا إذا لم يجد الحzar باشا في يافا ؛

أما الخطاب الذي بعث به بونابرت إلى الحزار وأخذه معه بوفوازان فيحمل ذات ، التاريخ وهو الثاني والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ . وهذا نصه .

« إلى أَحْمَد باشا حاكِم صَيْدا وَعُكَّا

« ماجشت مصر محارباً المسلمين ، ولكن جئتها محاربة البقوات المملاليك ؛ واعتقدت أنني باستئصال شأفتهم قد أديت عملاً عادلاً وموافقاً لمصلحتك ، لأنهم كانوا أعداءك . ولابد أنك تعلم أنني لما استوليت على مالطة كان أول إجراء قمت به هو أنني أطلق سراح الأسرى العثمانيين ، وعددهم ألفان ، قضوا سنوات عديدة في ذل الأسر والاستعباد . ولم أكُد أصل إلى مصر حتى اطمأن بالأهل . وقد بالغت في احترام العلماء ورجال الدين ومساجد المسلمين ، ولم يسبق للحجاج المسلمين أن ظفروا بمثل العناية والرعاية التي لقوها مني ، ولم يسبق أن احتفل بالمولود النبوى بمثل ما احتفلت به وبمثل ما أصفت على الاحتفال به من أبهة كاملة واحترام عميق ؛

« وقد بعثت إليك بهذا الخطاب مع ضابط يستطيع أن يوقفك على اتجاهاتي ورغباتي في أن تسودنا علاقات صفاء وسلام لتعاوننا معاً على ترقية الوسائل المؤدية إلى نمو التجارة وخير البلدين . وأؤكد أنه لا يوجد للمسلمين أصدقاء أكثر إخلاصاً من الفرنسيين . » وقد فشل بوفوازان في مهمته فشلاً ذريعاً ، إذ رفض الحزار باشا مقابلته كما رفض المدية وقال « آخر حلا

(١) التجار وأرزاهم من البركندة . ونزل هذا الكافر مع ترجمانه في أحد النقايير ، وأخبره بأن يرجع إلى حيث أتي ، وإن لم يرجع في هذه الساعة سأحرق فيه النقرة » وتم نقل بوفوازان وترجمانه إلى سفينة أخرى عادت بهما مع كميات (٢) الأرز إلى دمياط . أما التجاران فقد أمر الحzarباشا بقتلهمما ومصادرة بضائعهما .

أما الاتصالات التي قام بها بونابرت مع الصدار الأعظم فقد أخذت صورة مذكرة مؤرخة في ٢٢ من أغسطس ١٧٩٨ بعث بها وردد فيها قوله أو زعمه أن الجيش الفرنسي قد جاء إلى مصر ليعاقب البقوات المالكى على الإهانات التي أدواها على توجيهها إلى التجار الفرنسيين ، وقال إن حكومة الديركتوار قد عينت تاليران — بيريهور Talleyrand-Périgord وزير الخارجية سفيرًا في الاستانة ، وأنها زودته بتعليمات لعقد معااهدة تستهدف توسيع العلاقات الودية القديمة بين الدولتين وتذليل ما قد ينشأ من صعاب بسبب الاحتلال الجيشى الفرنسي لمصر . وقال أيضًا إنه أرسل هذا الخطاب لتوضيح التوایا الطيبة للحكومة الفرنسية نحو الدولة العثمانية ، لأنه يخشى أن يكون وصول السفير الفرنسي إلى الاستانة قد تأخر بعض الوقت بسبب بعض الطوارئ . واقتراح عليه

(١) بركندة لفظة تستعمل في اللغة التركية بمعنى سفينة ذات صاريين ، وما سطح أو ظهر واحد ، وهي مشتقة من الكلمة الأيطالية brigantino ، ومنها دخلت اللغة الفرنسية انمار :

Meynard Barbier de; ouvr. cit., t. I, p.196, et p. 394.

(٢) نقايير ، فردها نقرة ، وهى سفينة و كانت تطلق و قيادها على القرفاطة . corvette

(٣) مذكرات نقولا ترك من ص ٣٣ - ٣٤ وتنتفق رواية نقولا ترك في جوهـها مع رواية البرق وإن كان نقولا ترك أكثر تفصيلاً . ذكر البرق وهو يستعرض حوادث شهر ربـيع أول سـنة ١٢١٣ « حضر القاـصد الذى كان أرسـله كـبير الفـرسـاوـية بمـكـاتـبات وـهـلـية إـلـى أحـد باـشاـالـجزـارـ بهـكـاـ ، وـذـاكـ عـنـدـ اـسـتـقـرـاـرـهـ بمـصـرـ وـصـحـبـهـ أـنـفـارـهـ منـ سـفـائـنـ أـحـدـ باـشاـ . فـلـماـ وـصـلـواـ إـلـىـ عـكـاـ وـعـلـمـ بـهـمـ جـانـبـ أـرـزـ ، وـنـزـلـواـ وـنـزـلـواـ ثـغـرـ دـمـيـاطـ فيـ سـفـيـنةـ مـنـ سـفـائـنـ أـحـدـ باـشاـ . فـلـماـ وـصـلـواـ إـلـىـ عـكـاـ وـعـلـمـ بـهـمـ أـحـدـ باـشاـ أمرـ بـذـلـكـ الفـرسـاوـيـ فـتـقـلـوـهـ إـلـىـ بـمـشـنـ النـقـايـرـ ، وـلـمـ يـوـاجـهـهـ وـلـمـ يـأـخـدـ مـنـهـ شـيـئـاـ ، وـأـمـرـ بـالـرجـوعـ مـنـ حـيـثـ أـتـىـ ، وـعـوـقـ عـنـهـ نـصـارـىـ الشـوـامـ كـانـواـ بـصـحـبـتـهـ » .

— ٥٤ —

في هذه الحالة أحد حلين : إما أن يرسل الصدر الأعظم مندوباً مزوداً بالتعيمات والصلاحيات لإجراء مفاوضات سياسية ، أو يرسل الصدر الأعظم فرماناً إلى بونابرت . وعلى ضوء ما يجيء في هذا الفرمان يرسل بونابرت مندوباً للدخول في مباحثات لتحديد مستقبل مصر ولتسوية المسائل « التي تكون في مصالحة جلاله السلطان والجمهورية الفرنسية حلليفه الأكثر أمانة ، وتوقع في الارتباك والخيرة البكوات المملاليك أعداعنا المشتركين . »

ولم يكن لهذا الخطاب أى صدى في دوائر الباب العالى، لأن هذه الدوائر كانت قد حزبت أمرها على امتناع الحسام ضد فرنسا ، وشجعها على ذلك تحطم الأسطول资料 الفرنسى فى معركة أبي قير البحرية ، ثم دخول روسيا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية ضد فرنسا . وكان العامل الثانى هو الحاسم فى تحديد موقف الدولة العثمانية .

* * *

الأزهر ينادى إلى الثورة

حسبنا أن نقف مؤقتاً عند هذه المظاهر التي ذكرناها لسياسة بونابرت الإسلامية لتبين صداتها في نفوس المصريين ، لأنه في صباح ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨ اندلعت ثورة دينية عارمة في القاهرة ضد الحكم الفرنسي ، تنادى إليها الأزهريون ، وترعمها الشيخ محمد السادات ، بعد أن كانوا مجلساً لقيادة الثورة ، جعل من الجامع الأزهر مقراً لهذا الحمام الثورى ، وانطلق المؤذنون من مآذن المساجد في القاهرة يدعون المسلمين إلى الحفاظ على دينهم ، بالقيام على الفرنسيين . وكانت استجابة المسلمين من سكان القاهرة والقرى الخطيئة بها لهذا النداء الدينى الثورى استجابة فورية ، فنفروا شفافاً وثقالاً يجاهدون الفرنسيين ، وأخذت شوارع القاهرة تموج بالثوار وهم يهتفون : نصر الله دين الإسلام .

الأزهر ملتقى المعارضين للحكم الفرنسي

ويلاحظ أن الجامع الأزهر كان ملتقى المعارضين للحكم الفرنسي ، والساخطين عليه ، ويشير بونابرت في أكثر من موضع في مذكراته إلى أن هؤلاء الناقدين على الحكم الفرنسي كانوا يجتمعون في رحاب الجامع الأزهر كلما صادر عن السلطات الفرنسية تصرف يسيء إليهم ، وحسبنا أن نشير هنا إلى إحدى هذه المرات ، فقد ذكر بونابرت أنه لما صدرت الأوامر بهدم المقابر ، تقاطرت وفود سكان القاهرة إلى مقر القيادة العامة للمجيش الفرنسي في الأزبكية ، وكان يتزعم هذه الوفود الشعبية أمم المساجد ومؤذنوها . ويصفونه بونابرت بأنهم قوم مسرورون في تعصبيهم ، وأنهم تكالوا أمامه بانفعال شديد ، وصباوا جام غضبهم على المهندسين الفرنسيين . وعلى الرغم من أنه أصدر الأوامر بإيقاف عمليات هدم المقابر فوراً ، فإن المتظاهرين خرجوا من عنده (1) وذهبوا إلى الجامع الأزهر ليتدارسو الموقف .

أحداث سباق قيام الثورة

(1) Napoléon I^r; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, pp. 229-230.

القائد إلى الشعب المصري بتاريخ ٢ يوليو ١٧٩٨ ، فيقول إن استجابة الشعب إلى هذا المنشور جاءت على غير ما كان يرجو بونابرت ، إذ لما باعثت القاهرة أنباء انتصار الفرنسيين في معركة شبراريس ، ومواصلة زحفهم على القاهرة ، نودى بالغير العام ، وصدر عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القاهرة وأنزل منها علمًا كبيراً أطلق عليه العامة « البيرق النبوى » ونشره بين يديه ، ومئى به من القلعة ، مطوفاً بشوارع القاهرة ، داعياً إلى الجهاد الدينى ، وانهى به المطاف في بولاق ، حيث كان الأمير إبراهيم بك قد أقام معسكراً لقتواه المملوكية على الضفة الشرقية للنيل ، ووقف الأمير مراد بك بقواته في إمبابة على الضفة الغربية ، وأغلق التجار حواناتهم ، وخات الأسواق من روادها ، واشتركت طوائف الحرف في التطوع ، وكانت كل دائفة تجمع الأموال من أفرادها ، كل على قدر طاقته ، واشتري رؤساء الطوائف الأسلامة والذخائر والحيام ، وتطلع الأثرياء بتجهيز جماعات من المغاربة والشمام بالسلاح والطعام وغير ذلك ، وتوافد على القاهرة جموع كثيفة العدد من عرب البحيرة والشرقية والصعيد ، ليشتراكوا في الكفاح . يقول الخبرى : « إن جميع الناس بذلك وسعهم ، وفعلوا ما في قوتهم وطاقتهم ، وسمحت نقوتهم بإنفاق أموالهم : فلم يشع في ذلك الوقت أحد بشيء يملأه ومحصل الأمر أن جميع من ينصر من الرجال تحول إلى بولاق ، وأقام بها من حين نصب إبراهيم بك العرضي هناك ، إلى وقت المزيمة ، سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى ، فرجعون إلى بيوتهم ويبيتون بها ، ثم يصبحون إلى بولاق »^(٣)

(١) تذكر المصادر والمراجع العربية أن المعركة دارت في بلدة شبراخيت، بينما تذكر معظم المصادر الفرنسية المعاصرة لأحداث الحملة أن المعركة وقعت في مكان يسمى شبراريس Choubrâ Reïs وقد سبق أن تعرضنا لهذه المسألة وحدتنا مكان قرية شبراريس إلى دارت فيها المعركة.

انظر ص ٤٤ هامش رقم (٢) في هذا البحث .
 (٢) العرضي كلمة مأخوذه من اللغة التركية : أوردو ، ومعناها عسكري ، وقد وردت

(٣) الجيرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧ .

وبعد انتصار الفرنسيين في معركة إمبابة، رفض عمر مكرم و٢٠٤ نفر من المصريين أن يكونوا من دعائم الحكم الجديد، وأتوا المهاجرة إلى بلاد الشام، وفضلوا النفي الاختياري والتشريد وشظف العيش، على التعاون مع الفرنسيين في أية صورة من صور التعاون :

وأصدر بونابرت قراراً بإنشاء ديوان القاهرة، وحدد فيه أسماء أعضائه – كما ذكرنا – ولكن رفض ثلاثة منهم هم : عمر مكرم، والشيخ محمد السادات، والشيخ محمد الأمير عضوية الديوان أنفة، فحل شاههم ثلاثة آخرون هم المشايخ : الدمنوري، والشبراخيطي، والداخلي. وستعرض في موطن قادم من هذه الدراسة طبيعة العلاقات بين الفرنسيين وبين المشايخ علماء الأزهر، الذين قبوا عضوية الديوان، وسيرى كيف أدرك بونابرت وغيره من كبار رجال الحملة أن قلوب علماء الأزهر كانت نافرة من الحكم الفرنسي :

* * *

السبب الرئيسي للثورة

قامت ثورة أكتوبر ١٧٩٨ قبل أن تنتهي ثلاثة أشهر على دخول الفرنسيين القاهرة، وكان بونابرت حريصاً الحرص كله خلال هذه الأشهر الثلاثة على انتهاج سياسة الإسلامية تقرباً إلى الشعب، فكان نشوب الثورة دليلاً على إخفاق سياسته الإسلامية. وترجع هذه الثورة إلى سبب رئيسي وإلى عوامل مشجعة، وأخرى مساعدة، ويتمثل السبب الرئيسي في استحالة إيجاد جو من التعايش السلمي بين الحكم الفرنسي لمصر الإسلامية وبين الشعب المصري بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين، وكان الشعب في القرن الثامن عشر يشكل مجتمعاً دينياً إسلامياً متزوجاً، ينظر إلى الدولة العثمانية على

أنها دولة الإسلام الكبرى ، وأن سلطانها هو سلطان المسلمين ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد بين أفراد الشعب المصري ، وكانت ثقافتهم ثقافة دينية ، ولم تكن الدولة العثمانية بالنسبة لمصر دولة أجنبية من ناحية الفقه الإسلامي ، لأنها من المبادئ المقررة في الشريعة الإسلامية أن بلاد المسلمين جميعها تعتبر داراً واحدة ، منها تعدد أقاليمها ، والفقه الإسلامي يقسم العالم إلى قسمين : دار الإسلام ، ودار الحرب ، وتشمل الأولى البلاد التي يكون للمسلمين ولاية عليها ، وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم الدينيون والمستأمنون ، أما دار الحرب فتشمل البلاد التي ليس للمسلمين ولاية عليها ، ولا تقام فيها أكثر شعائر الإسلام ؟ يضاف إلى ذلك أن اشتراك الدولة العثمانية في حروب خارجية ، شلتها عاليها الدول الأوروبية طوال القرن الثامن عشر ، والانتصارات التي أحرزتها النمسا والروسيا عليها ، كل أولئك جعل الشعب المصري يزداد تعليقاً بالدولة العثمانية ، وولاء لسلطانها :

في هذا الجو الديني المتزمت هبط الفرنسيون أرض مصر ، واستولوا
عليها عنوة ، وغادر مصر أبو بكر باشا الطراباسي الوالي العثماني ، ومعه الأمير
إبراهيم بك شيخ البلد ، وعمر مكرم تقىي الأشرف ، وعدده من المصريين ،

(١) نذكر هنا حادثين يؤكدان هذه الحقيقة ، وقد وقعا أيام الحكم الفرنسي ، وكان الحادث الأول عندما قدم نلسن بالأسلوب الإنجليزي إلى الإسكندرية ، قبل حتى العملة الفرنسية بمحض عنها ، وأرسل نلسن مندوباً إلى حاكم الشفر ، وهو السيد محمد كريم ، فقال له الأخير في سياق حديث مثير : « هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين ، ولا لنميرهم علىها سبيل » .
أما الحادث الثاني ، فقد وقع في أعقاب ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس - ٢١ أيريل ١٨٠٠)
حين حدد الجنرال كليبر يوم ٣ من مايو ١٨٠٠ موعداً لمقابلة المشايخ علماء الأزهر ، وفي هذا الاجتماع قال المشايخ عن السلطان العثماني إنه « سلطاناً القديم ، وسلطاناً المسلمين » .
انظر عن هذين الحادثين :

الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٢ - ٣ ، وص ١٠٧ على التوالي .
(٢) دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولي العام . دراسة لضوابطه الأصولية ،
ولا حكماته العامة . القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ص ٤١ - ٤٦ .

وبمغادرة البالا العثماني للبلاد زال مظاهر من مظاهر السيادة العثمانية على مصر ، وأصبح بونابرت على رأس النظام الجديد Le Nouveau Régime ، أو الحكم الجديد ، ولم يكن بونابرت مسلماً ولا عثمانياً ولا ملوكياً . ونظر المصريون إليه على حقيقته : حاكماً مسيحياً أو روبياً عسكرياً أجنبياً ، استولى على بلادهم عنوة . وكان المصريون حتى ذلك الوقت لا يرثون عن أوروبا إلا وجهها الكريه ، فذكريات الحروب الصليبية كانت لا تزال عالة في أذهانهم . ولم تكن هناك اتصالات اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية بين الشعب المصري وبين الشعوب الأوروبية ، لأن رواسب الحروب الصليبية نفسها كانت قد قيام مثل هذه الاتصالات من ناحية ، ولأن الدولة العثمانية نفسها كانت قد فرضت العزلة على مصر وغيرها من الولايات العربية من ناحية ثانية ، ولأن الظروف التي عاش في ظلها المصريون كانت لا تسمح لهم على الإطلاق أن يجدوا أبصارهم عبر البحر المتوسط إلى أوروبا ، لينشئوا معها تلك الصلات حتى ولو كانت الدولة العثمانية قد أذنت لهم في إيجاد مثل تلك العلاقات من ناحية ثالثة ، فستوى معيشتهم كان هابطاً ، والاقتصاد المصري كان اقتصاداً محلياً ، وثقافتهم كانت دينية بختة ، ولم يتوجهوا للدراسة الهندسية ، أو الطب ، أو الزراعة ، أو غيرها من الدراسات العلمية التي كانت تقوم بها معظم الجامعات الأوروبية .

كان المصريون قد اعتادوا الانقلابات السياسية بكثرة مارحوظة ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، بحيث كانت تصريح هذه الانقلابات أمراً عادياً في الحياة السياسية بمصر ، ولكن كانت جميعها على وتيرة واحدة ، لم يأت واحد منها بجديد على النظام السياسي ، أو التقاليد الدينية ، أو الحياة الاجتماعية . كان الأمراء المماليك يتكتلون ضد البالا العثماني ، ويجمعون

كلمتهم على إنتهاء حكمه ، ويتحرك أرباب العكاكير ويصعدون إلى القاعة لإبلاغ الباشا بقرار عزله ، فيصلبوع بما يؤمر ، ويحيط من القاعة إلى إحدى الدور الخاصة ، ريثما تم محاسبته على تصرفاته المالية ، ثم تتخذ إجراءات ترحيله عن البلاد ، وينزل الباب العالى على رغبة الأمراء المماليك ، ويرسل وإلياً جديداً يستقر في قلعة الجبل ، ويمضي في حكم البلاد ، دون إحداث تغيير أو تطوير في أجهزة الحكم . وكان شيخ البلد — وهو كبير الأمراء المماليك ، وثاني شخصية في مصر بعد الباشا — يواجه منافسة خطيرة من أمير مملوكي آخر يتطلع إلى الظفر بهذا المنصب ، تأسياً على أنه أكثر منه جهازاً ، وأعز نفراً ، وأشد بأساً ، ويقع صراع دوى بين هذين الأميرين المملوكيين ، وينتهي هذا الصراع بمصرع أحدهما أو هزيمته ، وفراره مع فاول قواته إلى أقصى الصعيد . ويمضي الأمير المتتصر في مشيخة مصر ، يحكم البلاد ، كما حكمها سلفه من قبل ، دون المساس بالأوضاع السائدة ، ثم يظهر عليه بعد فترة — قد تطول وقد تقصر — أمير مملوكي جديد ، وينتظر المشهد الدائى ، من اندلاع حرب داخلية بين قوات كل منهما ، تسفر عن هزيمة أمير ، وانتصار أمير ينصرف إلى حكم البلاد ، مهقياً على كافة النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التي اعتادها الشعب جيلاً بعد جيل .

عرف أهل القاهرة بصفة خاصة هذه الانقلابات ، وشاهدوها عن كثب ، ولكنهم وقفوا منها موقفاً سلبياً ، ولم يكن يعنهم انتصار أمير مملوكي معين أو هزيمته ، لأن هذه الانقلابات لم تمس أسلوبهم في الحياة ، على الرغم مما كان يسبقها ، أو يصحبها ، أو يعقبها من اضطراب الأمان ، وتعسف الحاكم المتتصر ، لاذ يسرف في فرض ضرائب جزافية على الشعب الكادح : هذه الانقلابات المكرورة كانت كلها انقلابات « إسلامية » و « فردية » ، وفي « نطاق الدولة العثمانية » ، ويقصد بالإسلامية أن القادة الذين تزعجوا بهذه

الانقلابات مسلمون . ويقصد بالفردية أن فرداً واحداً قاد الانقلاب ، وجرى ثمرة، حكماً وجهاً ونحوذاً ، إذا نجح الانقلاب ، أو دفع حياته ثمناً لــنه المغامرة إذا باء بالفشل . ويقصد بعبارة « في نطاق الدولة العثمانية » أن دــنه الانقلابات لم تستهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ولذلك فإن الانقلابات أو الحركات التي قامت في الشرق العربي العثماني الإسلامي تختلف اختلافاً جذرياً عن الحركات التي قامت في الولايات العثمانية الأوروبية المسيحية ، فهوـه كانت حركات انفصالية أو استقلالية ، دفعت إليها الروح القومية والدينية معــها ، وغــتها الدول الأوروبية مثل فرنسا وروسيا ، وــما يذكر أن على باك الكبير الذي قام بحركته (١٧٦٨ - ١٧٧٣) لم يجرؤ على إعلان انفصاله عن الدولة العثمانية ، واستقلاله بمصر :حقيقة أنه يــشــل نفوــذ الــديــوان ونــفوــذ الفرق العسكرية العثمانية ، وــانــهز فــرــصــة الــدــلاــع الــحــرب الــرــوســية الــتــرــكــية في ســنة ١٧٦٨ ، وــتــخــاصــ من الــباــشا العــثــانــي في أــكتــوبر من ذات الســنة ، وــلم يــسمــح لأــى والــعــمــانــي بــدــخــول مــصــر ، أوــكــما يــقــول الــجــبــرــتــي : « منع ورود الــوــلاــة العــمــانــيــن »^(١) ، وــامــتنــع عن إــرــســال الجــزــية إلى الســاطــان ابتداء من ســنة ١٧٦٨ ، ولكنــه لم يــلــقــب نفسه ســلطــانــاً ، وــكــانــت الوــثــائــق الرــســمــيــة الخــاصــة بــهــذه الفــترة من بلــدــه حرــكــتــه حتى وــفــاته تصــادر باسم « حــضــرــتــ على باك مــير لــوا - أــى أمــير لــواء - قــائــقــام شــهــرــوســة مــصــر »^(٢) ، وأــكــثــر من ذلك أمرــ على باك بــضــرب خطــيب مــســجــد الدــاوــيــة بالــقاــهــرــه ، لأنــه دــعا في خطــبة الجمعة للــســاطــان العــمــانــي ، ثم دــعا لــهــلى باك ، وــامــتعــضــ عــلــى باــكــ من هــذــا التــصــرــف ، وــكــان يــرــيد أن يــكــون دــعــاء الخطــيب

(١) الجيرق ، مصادر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

(٢) دكتور محمد رفعت رمضان : عل بلک الكبير . القاهرة ، لم تذكر سنة الطبيع ، الناشر دار الفكر العربي ، ص ٦١ ،

مقصورةً على السلطان وحده ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة كما أنه أمر — بعد أن قام بحركته — ببساط عمالة جديدة ، فضية أوّلاً ، وذهبية بعد ذلك ، جعل على أحد وجهيها طغراء باسم السلطان مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وقتذاك (١٧٥٧ — ١٧٧٤) ، وعلى وجهها الآخر نقشت عبارة « ضرب في مصر » ، ونقش اسم « على » بطريقة تنم عن التحايل على غدر ذكر اسمه صراحة ، إذ استخدم حرف الباء في الكلمة ضرب كحرف ياء لكلمة « على » . واستناداً إلى هذه الأسانيد نستطيع أن نقرر أن على باك الكبير حافظ على بعض الروابط بين مصر والدولة العثمانية ، مثل الخطبة والعملة ، وأنه استهدف من حركته الانفراد بحكم مصر ، مع بقائهما داخل نطاق الدولة العثمانية ، فحركة على باك كانت « إسلامية » و « فردية » ، و « في نطاق الدولة العثمانية » .

نخلص من هذا التحليل السريع لحركة الانقلابات التي شهدتها مصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، إلى أن هذه الانقلابات كانت تختلف

(١) ذكر الخبر في هذا المحدث فقال : « إن على باك صلبي الجمعة في أوائل شهر رمضان ١١٨٣ (٢٩ ديسمبر ١٧٦٩ — ٢٧ يناير ١٧٧٠) بمجمع الداوية ، خطب الشیخ عبد ربہ ، ودعا للسلطان ، ثم دعا لعلى باك ، فلما انقضت الصلاة ، وقام على باك يريد الانصراف أحضر الخطیب ، وكان رجلاً من أهل العلم ، يغلب عليه الباله والصلاح . فقال له : « من أمرك بالدعاء باسمی على المنبر ؟ أقيـل لك إـنـي سـلـطـان ؟ فـقاـلـ : نـعـمـ ، أـنـتـ سـلـطـانـ ، وـأـنـأـ أـدـعـوكـ . فـأـظـهـرـ الشـیـظـ ، وـأـمـرـ بـضـرـبـهـ ، فـبـطـحـوـهـ وـضـرـبـهـ بـالـعـصـىـ . فـقاـلـ بـعـدـ ذـاكـ مـثـلـمـاـ مـنـ الضـرـبـ ، وـرـكـبـ حـارـأـ وـذـهـبـ إـلـىـ دـارـهـ وـهـوـ يـقـولـ فـيـ طـرـيقـهـ : بـدـأـ إـلـاسـلـامـ غـرـيـباـ ، وـسـيـعـودـ غـرـيـباـ كـاـبـدـاـ ، ثـمـ إـنـ عـلـىـ باـكـ أـرـسـلـ إـلـيـهـ فـيـ ثـانـيـ يـوـمـ بـدـارـاهـ وـسـكـوـةـ ، وـأـسـتـمـدـهـ » .

انظر : الخبر في مصدر سابق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .

(٢) انظر البحث الذي وضعه Samuel Bernard عن تطور النقود في مصر عبر المصور التاريخية ، منذ عصر الملوك حتى عصر الحملة الفرنسية ، ونماذجها ، وأشكالها وأوزانها وأنواعها ، وطرق سكها ، وما إلى ذلك . وقد نشر هذا البحث الفصفي بعنوان :

Mémoire sur les monnaies (*sic*) d'Egypte.
dans :

Description de l'Egypte, t. XVI, pp. 267 - 506.

احتلافاً جديراً عن الانقلاب الذي تم بنزول الحمولة الفرنسية أرض مصر سنة ١٧٩٨ ، فكان اختلاف الدين بين المصريين والفرنسيين هو الحال الأكبر دون إيجاد جو من التعايش السلمي بين الفريقين ، وكان هو العامل الأهم الذي حدد نوع العلاقات بين الطرفين .

بونارت يعترف بأهمية العازل الديني

وقد أوضح بونابرت أهمية اختلاف الدين في تحديد العلاقات بين الفرنسيين وبين الشعب المصري ، واعتقد بونابرت بعد إقامته في مصر ، أو لعله ازداد اعتقاداً ، في سلامة الآراء التي سبق أن رددتها الرحالة الفرنسي Volney عقب زيارته للشام ومصر سنة ١٧٨٥ ، فقد ذكر بونابرت في مذكرةاته، هذه الآراء منسوبة إلى صاحبها الرحالة الفرنسي ، وتتباين في أن اختلاف الدين بين الفرنسيين وبين المصريين هو العقبة الرئيسية التي تحول دون توسيع دعائم الحكم الفرنسي في مصر ، لأن الاستيلاء على مصر يتطلب — في نظر هذا الرحالة — ثلاثة حروب : الحرب الأولى ضد إنجلترا ، والثانية ضد الدولة العثمانية ، والثالثة وهي أشقها وأصعبها هي ضد المسلمين سكان مصر ، وتنطابق الحرب الأخيرة تضحيات جسمية ، بحيث تعتبر حرب استنزاف الفرنسيين ، ولا يمكن التغلب عليها .^(١)

ومضى بونابرت يقول في صراحة تامة : إن الجيش الفرنسي قد استولى على الإسكندرية والقاهرة ، وانتصر في معركتي شراريسن وإمبابة ، ولكن

(١) كان فولان قد قام برحلة إلى بلاد الشام ومصر في السنوات ١٧٨٣، ١٧٨٤، ١٧٨٥، ١٧٩٩، وأصدر كتاباً عن هذه الرحلة، وأهدى نسخة منه إلى كاترين الثانية قيصرة روسيا، وأظهرت تقديره لـ المؤلف، فنيسته وساماً ذهبياً، وأعيده طبع هذا الكتاب عدة مرات ١٧٩٢، ثم في سنة ١٨٠٧ كما ترجم إلى الألمانية والهولندية، وفي السنة التالية لصدور كتابه، أدى في سنة ١٧٨٨ أصدر فولان كتاباً جديداً، أو وضع فيه الصواب إلى تحول دون نجاح الفرنسيين في استعمار مصر، وكان في مقدمتها اختلاف الدين والعادات، والأخلاق.

موقف الفرنسيين لم يكن مستقرًا ، بل ظل مزعزعًا ، ولم يتحمل المصريون وجود الفرنسيين في بلادهم إلا كرهاً ، لأن سرعة الحوادث قد أذهابهم ، ولم يذعنوا إلا أمام القوة المادية ، ولكنهم — كمؤمنين مسلمين — لا يخونون حسرتهم واستياعهم من انتصار غير المؤمنين ^(١) الذين دنسوا بوجودهم مياه النيل المقدسة ، وكانوا يعتبرون أنه من العار والحزى أن تسقط مصر فريسة في أيدي الفرنسيين ، لأنها تقع على الطريق المؤدي إلى الحجاز ومد الكعبة ، وغيرها من الآثار المقدسة الإسلامية ، ثم قال إن أئمة المساجد كانوا يختارون في تلاوة القرآن الكريم الآيات التي تحض المؤمنين على قتال غير المؤمنين *Les infidèles* ، وقرر بونابرت في عبارة صريحة أنه كان من الواجب العمل على وقف انتشار هذه الآراء الدينية ، لأن الجيش على الرغم من انتصاراته كانت تحيط به الأخطار ، وكان يصعب على الجيش أن يصمد في حرب ^(٢) دينية .

نقولا ترك يؤكد أهمية العازل الديني

وما هو جدير بالذكر أن المعلم نقولا ترك — وهو من موارنة لبنان ، وعاصر أحداث الحملة في مصر — يصور تصویراً دقيقاً لهذا العازل الديني

== النظر :

Volney Constantin F.; Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. Paris - 1787.

t II, Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785, suivi de considérations sur la guerre des Russes et des Turcs, publiées en 1788 et 1789. Paris, 1822.

ولما يذكر أن بونابرت أراد ضم فولنی إلى بلدية الفتنون والعاصمة المرافقية للمحملة الفرنسية على مصر ، ولكنه اعتذر لكبر سنه ، ومع ذلك فقد أمتد به الأجل حتى سنة ١٨٢٠ (١٧٥٧-١٨٢٠) ، وكانت اللحظة التي استخدمها بونابرت هي *idolâtres* ، ومنها الكفار ، والوثنيون ،

(2) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t I, p. 211.

وفي موطن آخر من مذكرات نقولا ترك يقول إنه كان مما يحزن في نفوس المصريين خضوع بلادهم لحكم أوروبي مسيحي ، لأن مصر بلد إسلامي منذ أن فتحها عمرو بن العاص ، ولأنها ظلت على هذا الوضع الإسلامي على توالى الأدher والعصور ، واحتلال الحكام الذين تعاقبوا على حكمها ، وأئمـا محاولة الصليبيين الاستيلاء عليها فى العصور الوسطى فقد باعـت بالفشل ، وـكان الشعب المصرى يردد أن بلاده كانت فى بعض الفترات مقرـاً للخلافة الفاطمية ، ثم الخلافة العباسية ، وأنـها كانت حصـناً حصيناً للإسلام ، وـمركزـاً مـرمـقاً للثقافة الدينـية العلمـية الإسلامية ، وـخـلص المعلم نقولا ترك من وصف مشاعـر

(١) النص العربي للذكريات المقولاً ترجمة وتعليق الأستاذ ثابت ، ص ٦٠ .

(a)

المصريين إلى القول بأن محاولات الفرنسيين اكتساب قلوب المصريين قد أخفقت ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقرر أن قبول المصريين لمحكم الفرنسي إنما هو أمر ضد الطبيعة^(١) :

اختلاف اللغة والزى والثقافة

وهناك عوامل كانت تتصل على نحو من الأثناء بالسبب الرئيسي للثورة ، وتزيد الفجوة بين الفرنسيين وبين المصريين اتساعاً وعمقاً ، كان من بينها عامل اللغة ، فالفرنسيون لا يعرفون اللغة العربية ، والمصريون يجهاؤن بدورهم الفرنسية ، فحال اختلاف اللغة دون حدوث لقاء فكري بين الحاكمين والمحكمين ، أو على الأقل اتسم موقف كل فريق من الآخر بطابع العداء ، أو الشك ، أو الخدر . وهناك عامل آخر هو اختلاف الزى بين الفرنسيين والمصريين ، وقد حال هذا العامل دون حدوث تقارب بين الفريقين ، فإن اختلاف الزى كان له أثره السيكولوجي في نفوس العامة ، كانت البذلة والقبعة عند الفرنسيين يقابلهما القفطان والحبة والعامة عند المصريين ، وقد عاشت العامة عصوراً وأدواراً متعاقبة عند المصريين شعاراً للإسلام ، ورمزاً للفضائل . وارتبطت القبعة في نظر المصريين — ونحن نتكلم هنا أيام السادة العلماء عن المجتمع المصري في القرن الثامن عشر — بالحروب الصليبية وبالأجانب الذين عاشوا في مصر إبان الحكم العثماني في أحياط خاصة بهم ، يخضعون لقيود معينة . وقد عبر عن هذه العوامل مجتمعية أحد المعاصرين لأحداث الحملة الفرنسية ، وهو المعلم نقولا ترك ، فقال إن المصريين لم يستطيعوا إطلاقاً تحمل الفرنسيين بسبب اختلاف الدين واللغة والزى ، فضلاً عن عداء قديم متواصل بين الفرنسيين

(١) النص العربي في المرجع السابق ، ص ٣٠ . ويلاحظ أن الأستاذ قيت في ترجمته النص العربي إلى الفرنسية كتب ما تعرّيه : « أمر ضد الطبيعة الإنسانية » .

Mais c'était faire fi de la nature humaine. p. 43. (trad. fr.).

والمصريين يرجع إلى أيام لويس التاسع ملك فرنسا، حين بلغ المنصورية^(١). ونضيف إلى هذه العوامل عامل آخر هو أن الفرنسيين ذوي ثقافة أوروبية كانت غريبة على المصريين ، أو كما يقول الجبرتي « لا تسعها عقول أمثالنا »^(٢)، وقد انتهجوا سياسة إعلامية نشيطة ، فغمروا المصريين بمنشورات تلاحمت بعضها لآخر بعض . حقيقة أن هذه المنشورات كتبت باللغة العربية أو ترجمت إلى اللغة العربية ، ولكن وجدت فيها بعض التغرات والманاخي ، جعلت المصريين يرتابون في أمر هذه المنشورات ، بل ويتوجسون خيفة من واضعيها ، ونذكر على سبيل المثال المنشور الأول الذي أذاعه بونابرت على المصريين ، فهو يبدأ بالبسملة ، ثم يذكر إحدى الشهادتين ، ويغفل تماماً الشهادة الثانية ، إذ يقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له في ملوكه » والمسلمون يحرضون دائماً على ذكر الشهادتين ، مقرئون بعضهما ببعض . حقيقة جاء ذكر النبي الكريم – صلوات الله عليه – في ثانياً هذا المنشور ، ولكن كيف يستطيع المصريون تصديق قوم يقررون في منشورهم أنهم مسلمون مخلصون ، ويفعلون في صادر المنشور الشهادة الثانية ، وهي أن محمدآ رسول الله؟ والمنشور أيضاً يشير إلى النظام السياسي لفرنسا في عبارات كانت تجاذب المصريين السياسية طوال الحكم العثماني لتساعدهم على تفهم معانها ، فالمنشور الأول أيضاً صدر « من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية ». وصدر هذا المنشور مؤرخاً بشهر لم يسمع به المصريون من قبل ، ولم يفهموا له معنى ، وهو الرابع عشر من ميسيلدور ، وجاء في المنشور الثاني الذي أذاعه بونابرت عقب انتصاره في معركة إمبابة ، وألصقت نسخ منه في شوارع القاهرة ، مؤرخاً في الرابع من تير ميدور ، وكانت ثقافة الشعب لا تسمع له

(١) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق فيت ، ص ٢٤ .

(٢) الجبرتي ، ج ٣ ، ص ٣٦ ، وقد كتب هذه العبارة عقب زيارته لمتحف مصر العلمي .

بمعرفة ملأول كل من هذين اللفظين ، وهل كان متظراً من المثقفين المصريين فضلاً عن الجاهير في أواخر القرن الثامن عشر أن يعلموا أن ميسيدور Messidor هو الشهر العاشر من التقويم الجديد الذي أدخلته الثورة الفرنسية ، ليحل محل التقويم الحر يجورى عقب إعلان إلغاء الملكية في فرنسا ؟ وأن هذا الشهر يبدأ من اليوم العشرين من شهر يونيو ، وينتهي في التاسع عشر من يوليو ؟ وأن معناه شهر الحصاد ؟ ، وهل كان معقولاً أن تدرك الجاهير وقتذاك أن تيرميدور Thermidor الذي أرخ به المشور الثاني هو الشهر الحادى عشر من ذلك التقويم ؟ وأن هذا الشهر يبدأ من اليوم العشرين من يوليو ، ويمتد إلى الثامن عشر من أغسطس ؟ ، وأن معناه شهر الحر والقيظ ؟ ولقد تتابعت المشورات والأوراق الرسمية تحمل أسماء شهور أخرى ، مثل بريري بال Prairial ، ومعناه شهر المروج الخضراء ، ونيفوز Nivose ومعناه شهر الثلج ، وچيرمينال Germinal ، ومعناه شهر البنور ، وبليفيوز Pluviôse

(١) لفظة ميسيدور Messidor مشتقة من الكلمة اللاتينية Mesis ، ومعناها أى الحصاد .

(٢) لفظة تيرميدور Thermidor مشتقة من الكلمة اليونانية Thermé ، ومنتها الحسر .

(٣) لفظة بريري بال Prairial مشتقة من الكلمة الفرنسية La Prairie ، ومعناها مروج الشاش ، وتطلق على الشهر التاسع من التقويم الجمهوري ، ويبدأ من ٢٠ مايو ، إلى ١٨ يونيو .

(٤) لفظة نيفوز Nivose مشتقة من الكلمة اللاتينية Nivis ، ومعناها الثلج ، وتطلق على الشهر الرابع من التقويم الجمهوري ، ويبدأ من ٢١ ديسمبر حتى ١ يناير .

(٥) لفظة جيرمينال Germinal مشتقة من الكلمة اللاتينية Germen ، ومعناها البذر ، وتطلق على الشهر السابع من التقويم الجمهوري ، ويبدأ من ٢١ مارس إلى ١ أبريل .

(٦) لفظة بليفيوز Pluviôse مشتقة من الكلمة اللاتينية Pluvia ، ومعناها المطر ، وتطلق على الشهر الخامس من التقويم الجمهوري ، ويبدأ من ٢٠ أو ٢١ أو ٢٢ يناير إلى ١ أو ٢٠ فبراير .

— ٦٩ —

ومعناه شهر المطر ، وفريكتيدور ^(١) Fructus ، ومعناه شهر الفواكه ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت هذه الأسماء الغربية لشهر السنة تذكر مقرونة بعبارات غربية أيضاً على المصريين ، فهي تارة تقول شهر كذا « من إقامة الجمهور الفرنساوى » ، وتارة أخرى تقول شهر كذا « من انتشار الجمهور الفرنساوى ».

منشور السلطان إلى الشعب المصري

ولم يلبث أن وقع حادث خارجي جعل العاطفة الدينية تزداد تأججاً في نفوس المصريين ، فقد أعلن سليم الثالث — سلطان الدولة العثمانية — الحرب على فرنسا في سبتمبر ١٧٩٨ ، وأدرك بونابرت خطورة إذاعة هذا النباء بين جماهير الشعب ، فحاول جهده أن ينفيه ، ونعته بأنه شائعة خبيثة ، روج لها الإنجليز ، والماليلك ، والدراويش المتعصبون . ويقول بعض الباحثين إنه كان لبونابرت مقدرة فائقة على إخفاء الحقائق ، ولكن القوى التي كانت تعمل ضده ، سواء من خارج الحدود المصرية ، أو من داخل البلاد ، كانت أقوى منه وأشد فاعلية ، فقد تسلل إلى القاهرة من بلاد الشام رسلي يحملون معهم منشوراً أصدره السلطان ، دعا فيه المصريين إلى الجهاد الديني ضد الفرنسيين ، واتخذ أولئك الرسل طريقهم إلى الجامع الأزهر سرباً ، وتلقف علماء الأزهر وطلاب الأزهر هذا المنصور .

(١) لفظة فريكتيدور Fructidor مشتقة من الكلمة اللاتينية Fructus ومعناها فواكه ، وتطلق على الشهر الثاني عشر من التقويم الجمهوري ويبدأ من ١٨ أغسطس إلى ١٦ سبتمبر . وبما هو جدير بالذكر أن أوراق الفرنسيين ووثائقهم ظلت طوال إقامتهم في مصر تصادر مؤرخة بالتقويم الجمهوري ، وبالتالي بهذه الأسماء الغربية على المصريين ، وقد ألغي هذا التقويم في فرنسا سنة ١٨٠٤ .

(٢) La Jonquière ; ouvr. cit., t. III, p. 277.

حمل منشور السلطان على الفرنسيين حملة عنيفة ، فوصفهم بأنهم قوم لا ينكرون وحدانية الله فقط ، ولا ينكرون رسالة محمد فحسب ، بل ينكرون وجود الله ، ويهازون بكل الأديان ، ولا يعتقدون في يوم البعث والحساب ، والحياة الآخرة ، وأنهم يخلدون ما تحرمه الأديان ، ويعتقدون أن الكتب السماوية ليست إلا مجموعة من الأكاذيب ، أو نوعاً من الأساطير ، وأن موسى وعيسى ومحمد ليسوا إلا رجالاً عاديين لم يخضم الله بالرسالة التي عهد إلى كل منهم بتبيينها إلى بني الإنسان :

وأهتم المنشور بعد هذا الهجوم على الفرنسيين بتحريض الشعب المصري على الجهاد الديني ضدتهم ، وأثار في المصريين العاطفة الدينية ، فخاطبهم بقوله : « يا حماة الإسلام ، يا مدافعين عن العقيدة ، يا من تعبدون الله وحده ، يا من تومنون برسالة محمد بن عبد الله ، أجمعوا كلمتكم وانفروا إلى الحرب والله القدير يرعاكم ... إن الإسلام محفور في قلوبنا ، إنه يناسب في عروقنا مع دمائنا . وقد قال ^(١) الله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » ، والحديث الشريف يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعض » . ومضى المنشور يقول مخاطباً المصريين : « لقد دقت ساعة الخلاص ، وأن الوقت لكي تبدوا قوى الشر ، ولا ترهبكم جموعهم ، لأن الأسود لا تخشى التفالب ، وقد أصدرنا الأمر إلى الباب العالي بخشد قوات من أنحاء الإمبراطورية ، وبعد قليل تتحرك جيوش عديدة مهيبة ، وستغطي مراكب عالية كالنجيبات سطح البحر ، وستصل مدفعه تبرق وترعد ، وأبطال يسترخصون الموت انتصاراً لقضية الله ، وسوف يلقى الفرنسيون الموت ، وتنهار آمالهم ، لأن وعد الله حق ، والعزم لله رب العالمين » .

(١) سورة آل عمران ، صدر الآية رقم ٢٨ .

والامر الذى يلفت نظر الباحث ، هو أن الباحثين الفرنسين قد حرصوا على ترجمة هذا المنشور ترجمة كاملة إلى اللغة الفرنسية ، نذكر منهم مارتا ^(١) Martin ، وقد نشر كتابه في جزعين سنة ١٨١٥ ، ولوى ريبو وزملاؤه ، وقد نشروا كتابهم الضخم في عشرة أجزاء في الفترة من سنة ١٨٣٠ إلى ١٨٣٦ ^(٢) ، وقد استقينا من هذين المصادرين الاقتباسات التي أثبتناها في المتن . أما الجبرق فقد ذكر صورة موجزة للمنشور في عبارات عامة ، كأنها رuous موضوعات ، فقال : « ومضمون ذلك بعد براءة الاستهلال والآيات القرآية ، والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد ، ولعن طائفة الإفرنج والخط عليهم ، وذكر عقيباتهم الفاسدة ، وكذبهم وتحيلهم » ^(٤) . وقد رجعنا إلى الكتاب الأول الذي وضعه الجبرق باسم مظهر التقديس ، فوجدنا أنه نسب في نفس النهج ، فام ينشر فيه نص المنشور . ويوجد خلاف بين الجبرق وبين المؤرخين الفرنسيين ، المعاصرين للحملة ، فالأول يقرر أن المنشور حمله هجان من بلاد الشام ، وبلغ به القاهرة في ليلة السبت الرابع والعشرين من جمادي الأولى ١٢١٣ (الثالث من

(١) كان مارتا أحد مهندسي الحملة ، وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وأحد الذين أسهموا في وضع الموسوعة العالمية « وصف مصر » ، فكتب فيها بعدين هما :

a) Notice sur un grand monument souterrain à l'ouest de la ville d'Alexandrie. t.V, pp. 519 - 530.

b) Description hydrographique des provinces de Beny - Souef et du Fayoum. t. XVI, pp. 1 - 72.

وله عدة أبحاث منشورة ، منها بحث عن فيلاديلفيا ، قبة الحملة الفرنسية .

Vivant Denon en Egypte, 1798 - 1799. (Ann. de l'Acad. de Mâcon, 2e série IV, pp. 119 - 141.

(2) Martin P.D.; Histoire de l'Expédition française en Egypte. (1798 - 1801) précédée d'un précis de la domination arabe. Paris, 1815. 2 vols. vol. I, pp. 243 - 251.

(3) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 142 - 152.

(٤) الجبرق ، مصدر سبق ذكره، ج ٣ ، ص ٢٨ .

نوفمبر ١٧٩٨) ، أى بعد الثورة بأشبوعين^(١) ، بينما يقرر المؤرخون الفرنسيون أن هذا المنشور وزع في القاهرة في شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري ، وهم في هذا التحديد الزمني التقريري أدنى إلى الحقيقة من الخبرى ، كما أنهم يقررون أنه لم يكيد يبدأ شهر أكتوبر حتى علم سكان القاهرة على بكرة أبيهم أن السلطان العثمانى — سلطان المسلمين — قد أعلن الجهاد الدينى ضد الفرنسيين^(٢) :

والدراسة التحليلية لمنشور السلطان توضح أنه كشف للشعب المصرى عن عدة مسائل على جانب كبير من الأهمية ، نذكر منها :

أولاً : أطاح المنشور بكل إدعاءات ومزاعم بونابرت ، والى كان يرددھا في منشوراته للشعب المصرى بأنه صديق السلطان ، وأن الفرنسيين لم يحضروا إلى مصر إلا باتفاق تمام وسبق مع السلطان ، وأن مصالح الشعب المصرى تتلاقى مع مصالح الفرنسيين ، لأنهم مسلمون مخلصون ، فقرر المنشور أن السلطان قد أعلن الحرب عليهم ، كما وصفهم بأنهم قوم كافرون .

(١) كان الخبرى قد ذكر قبل ذلك في حوادث اليوم الثالث من شهر ربيع آخر ١٢١٣ ، ١٤ من سبتمبر ١٧٩٨) أنه وصلت إلى القاهرة عدة خطابات ، وجهها إبراهيم بك إلى المشايخ علماء الأزهر ، وإلى غيرهم ، طلب فيها بذلك البقاء الجبهة الداخلية في مصر متسقة ، ومناشدة المجاهير كى تقف موقفاً عدائياً من الفرنسيين ، وقال : « إن حضرة السلطان مولانا وجه لنا عساكر ، وإن شاء الله تعالى عن قريب نحضر عندكم ». وأضاف الخبرى إلى ذلك أن أمر هذه الخطابات قد ترافق إلى مسامع بونابرت ، واستطاع رجال الخبرارات الفرنسية أن يحصلوا له على نسخة منها ، ولما ترجمت له أظهر استخفافاً بها ، وعلق عليها بقوله : « إن الملائكة كذلك بون » انظر ذات المصدر ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٢) Vendémiaire هو الشهر الأول من التقويم الجمهوري الذى أدخلته الثورة الفرنسية ، ويبدأ هذا الشهر في ٢٢ من سبتمبر ، وينتهي في ٢١ من أكتوبر ، واللفظة الفرنسية مشتقة من الكلمة اللاتинية vendemia ، ومعناها عملية جنى العنب la vendange أو موسم جنى العنب ، Les vendanges

ثانياً : أثار المنشور الحميمية الدينية في نفوس المصريين بذكر بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والعبارات الدينية :

ثالثاً : وصف المنشور الحرب التي دعا السلطان إليها الشعب المصري ، بأنها حرب مقدسة ، أو جهاد ديني^(١) ، ومن المبادئ المقررة في الشريعة الإسلامية أنَّ الجهاد الديني يعتبر فرض عين على كل مسلم بالغ قادر ، والمنشور من هذه الناحية له أهميته ، لأنَّه أضفى على الثورة الطابع الديني الإسلامي ، وحدد المشركين فيها بأنهم المسلمون المؤمنون برسالة محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — ، ولم يفت المعاصرون الفرنسيون للثورة أن يصفوها بأنها حرب مقدسة .

رابعاً : شحذ المنشور عزائم المصريين بقوله : إن قوات عسكرية جرارة ، برية وبحرية ، في طريقها إلى مصر ، لشد أزرهم في محاربة الفرنسيين ، وقد كان هذا المنشور سلاحاً قوياً في يد دعاة الثورة ، استطاعوا بفضلها أن يضموا إلى جانبهم جماهير سكان القاهرة ، ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال : إنه كانت هناك فرمانات مثيرة تصدر عن السلطان بصفته أمير المؤمنين ، وكانت هذه الفرمانات تقرأ علنًا في المساجد ، وقد ذكر فيها أنَّ الفرنسيين قد صحت عزيمتهم على القضاء على الدين الإسلامي ، وكانت هذه الفرمانات تدعى المؤمنين إلى مقاومة رغبة الفرنسيين في تحطيم الإسلام .

(١) من الكلمات التي كانت منتشرة في مصر إلى عهد قريب لفظة «المهادية» ، فكان يقال ديوان المهادية ، ويقابلها المصطلح الحديث وزارة الحرية أو وزارة الدفاع . وكان يقال إنَّ فلانًا ذهب إلى المهادية ، أي تم تجنيده في الجيش المصري ، أو نفر إلى ساحة الولي .

(2) “Inflammatory firmans from the Commander of the Faithful were read aloud in the mosques, ascribing to the French the intention of destroying Islam, and the faithful were called upon to resist.”

وَمَا يُذَكِّرُ أَنْ مَارْتِنَ Martim أَشَارَ إِلَى وَاقْعَةً أُخْرَى سَبَقَتْ إِرْسَالَ
مَنْشُورِ السَّلَطَانِ ، وَتَتَلَخَّصُ هَذِهِ الْوَاقْعَةُ فِي أَنَّ مَدِينَةَ الْقَاهِرَةَ أَغْرَقَتْ مِنْذَ
— ٢٢ مِنْ سَبْتَمْبَرِ ١٧٩٨ — وَهُوَ أَوْلَى يَوْمٍ فِي شَهْرِ فَانْدِيَمِيرَ Vendémiaire
بِمَنْشُورِ صَلَارِ عَنِ الصَّدْرِ الأَعْظَمِ يَحْوِي تَكْذِيْبًا قَاطِعًا لِكُلِّ مَا رَدَدَهُ بُونَابِرَتُ
فِي مَنْشُورَاتِهِ مِنْ حَادِثَ تَفَاهُمٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّلَطَانِ ، وَقَدْ قَرَئَ هَذَا المَنْشُورُ
فِي الْمَسَاجِدِ ، وَكَانَ فِيهِ تَحْرِيْضٌ لِلشَّعْبِ الْمُصْرِيِّ عَلَى قَتْلِ الْفَرْنَسِيِّينَ .
^(١)

مَكَاتِبُ الْجَزَارِ باشا وَإِبْرَاهِيمَ بْكَ

وَإِلَيْ جَانِبِ مَنْشُورِ الصَّدْرِ الأَعْظَمِ ، ثُمَّ مَنْشُورِ السَّلَطَانِ ، كَانَ أَمْهَدَ
^(٢) باشا الْجَزَارِ وَالشَّامِ يَرْسُلُ الْمَنْشُورَاتِ — أَوْ «بِيُورِدِيَّاتِ» بِمَصْطَاحِ ذَلِكِ
الْعَصْرِ — إِلَيْ الْمُصْرِيِّينَ يَبْلُغُهُمْ أَنَّ السَّلَطَانَ قَدْ عَيْنَهُ وَالْيَأْءَى عَلَى مَصْرُ
إِلَى مَنْصَبِهِ فِي بَلَادِ الشَّامِ ، وَأَنَّهُ سَيَزِحُ فِي رَأْسِ قَوَاتِ جَرَارَةِ لَطَرَدِ
الْفَرْنَسِيِّينَ مِنْهَا ، وَيَدْعُو الْمُصْرِيِّينَ إِلَى «الْقِيَامِ ضِدَّ الْكُفَّارِ» . وَكَانَ الْأَمْرِيْرُ
إِبْرَاهِيمَ بْكَ مِنْ نَاحِيَتِهِ يَبْعَثُ بِمَنْشُورَاتِ أُخْرَى إِلَى الْمَشَايِخِ عَالِمَيِّنِ الْأَزْهَرِ ،

(١) Martin P.D; ouvr. cit., t. I. p. 241.

(٢) يَقُولُ بُونَابِرَتُ فِي مَذَكَرَاتِهِ أَنَّ الْحُكُومَةَ العُمَانِيَّةَ عَدَتْ إِلَى مَدْنَوْذَ أَحَدَ باشا الْجَزَارِ إِلَى
كُلِّ بَلَادِ الشَّامِ ، مِنْ حَلْبَ شَمَالًا حَتَّى بَيْتِ الْمَقْدِسِ جَنُوبًا ، وَذَلِكَ رَغْبَةً مِنْهَا فِي زِيَادَةِ إِمْكَانِيَّاتِهِ
الْبَشَرِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ ، لِحُدُودِ مُزِيدٍ مِنِ الْقَوَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْجَرَارَةِ ، وَتَوْجِيهِهَا إِلَى مَصْرُ .
انْظُرْ :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 244.

(٣) بِيُورِدِيَّاتِ : كَلْمَةٌ تُرْكِيَّةٌ ، مَفْرَدُهَا بِيُورِدِيٌّ ، وَمَعْنَاهَا أَمْرٌ صَادَرٌ مِنِ الصَّدْرِ الأَعْظَمِ ،
أَوْ مِنْ سَخْصَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مِثْلِ الْوَزِيرِ ، وَتَظَهُرُ هَذِهِ الْكَلْمَةُ فِي صُورَ شَتَّى ، سَوَاءَ فِي صِيَغَةِ الْمَفْرَدِ ،
أَوْ فِي صِيَغَةِ الْجَمْعِ فِي الْمَصَادِرِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى النَّحوِ التَّالِيِّ :
صِيَغَةُ الْمَفْرَدِ : بِيُورِدِيٌّ — بِيُورِدِيٍّ — بِيُورِدِيٌّ — بِيُورِدِيٌّ .
صِيَغَةُ الْجَمْعِ : بِيُورِدِيَّاتِ — بِيُورِدِيَّاتِ — بِيُورِدِيَّاتِ — بِيُورِدِيَّاتِ .
انْظُرْ :

Meynard Barbier de; Dictionnaire turc-français. Paris, 1881 -
1886, 2 vols., t. I, p. 366.

Deny; ouvr. cit., p. 147.

(٤) الْمَلْمَقْنُولَاتُرُكُ ، نَسْرُ بِتِرْجَمَةِ وَتَعْلِيْقِ الْأَسْنَادِ فَهِيتُ ، النَّصُّ الْعَرَبِيُّ ، صِ ٢٧ .

يبلغهم أنه في طريقه إلى القاهرة ، ويطلب منهم تحريض الشعب على الثورة على الفرنسيين ، وكان هناك رسائل يأتون خفية من بلاد الشام يحملون تلسك المكاتب ، ويتسللون إلى الجامع الأزهر ، ويلتقون بالعلماء والطلاب ، وينتدالون المنشورات فيما بينهم ، ليقروءوها في مساجد القاهرة .

عوامل مشجعة

كانت هناك عوامل شجعت سكان القاهرة على القيام بالثورة . وكان من بين هذه العوامل تحطيم الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية ، وقد تسرّبت أنباء هذه الكارثة إلى أهل القاهرة ، على الرغم من حرص الفرنسيين الشديد على تكتم أخبارها ، وتهديدتهم بقطع لسان كل مصرى ، أو تغييره مائة ريال إذا خاض في ذكر هذه الواقعة ، وقد أطاحت هذه الكارثة الحربية بالفكرة التي استقرت في أذهان المصريين عن تفوق الفرنسيين عسكرياً بعد انتصارهم الخاطف في معركة إمبابة :

وقد تكلم بونابرت في إفاضة عن النتائج السيئة لهذه المعركة ، بالنسبة للفرنسيين في نظر الشعب المصرى ، وقال إنه أمر بزيادة تحركات فرق الجيش الفرنسى في القاهرة ، وقيام الجيش بعرض عسكرية ، إشعاراً للمصريين بأن الجيش资料 لا يزال قوة ضاربة ، كما حاول بونابرت أن يدخل في روع علماء الأزهر أن أسطولاً فرنسياً يتعقب أسطول نلسن الذى ولى الأدبار ، وكان الأسطول الإنجليزى بعد خروجه متصرراً في هذه المعركة قد اتجه إلى نابولي لعلاج الجرحى^(١) ، وترميم بعض وحداته^(٢) :

(١) إنجيلى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٢) انظر مقاله بونابرت تحت عنوان :

Effet de la bataille navale sur le peuple d'Egypte.

« نتيجة المعركة البحرية على شعب مصر » .

في

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, pp, 197-202.

وعلم أهل القاهرة بعد ذلك أن الإنجليز فرضوا حصاراً محكماً على السواحل المصرية ، بحيث أصبح في حكم الاستحالة قدوم نجادات عسكرية إلى بونابرت من فرنسا ، وكما يقول المعلم نقولا ترك : « ربط الإنكلزيز عليهم بوغاز الإسكندرية وبوغاز دمياط ، ولا عاد خارج ولا داخل ، ولا طير يطير وفهموا (أى فهم المصريون) أن الإنكلزيز قفلوا عليهم (أى على الفرنسيين) البواغيز بأقفال إنكليزية ، وانقطع أملهم من إمداد يأتيهم من بلادهم » .^(١)

وهنالك عامل ثالث شجع سكان القاهرة على الثورة ، هو أنهم علموا أن أهل المنصورة قد قاموا بثورة عارمة على الفرنسيين ، ونالوا منهم منالا عظيماً ، وأن سكان دمياط قد نهجوها هذا النهج الثوري ، وانتصروا على الفرنسيين . وإذا كان هذا شأن سكان الأقاليم مع الفرنسيين ، فلا أقل من أن يحنو سكان العاصمة هذا الحنو التضالي الديني الثوري :

عوامل مساعدة

وكانت هنالك أيضاً عوامل مساعدة ، هيأت « المناخ الصحي » لنشـوب الثورة ، ولم تكن هذه العوامل بنت ساعتها ، فقد نشأت في أوقات متقدمة ، وترك كل منها رواسب عميقـة في نفوس المصريين ، وكما مضت الأيام كانت تلك العوامل يتجمع بعضها مع بعض ، وتسلك مسارب واحدة ، انتهـى بها إلى انفجار ديني على الحكم الفرنسي الذي اقترب بإجراءات ، كانت في نظر زعماء الشعب وجماهيره ، خروجاً على التقاليد الإسلامية .

ونـذر مروراً سريعاً على بعض هذه العوامل المساعدة :

(١) مذكرات نقولا ترك ، تـشر وترجمـة وتعليقـ الأستاذ فيـيت ، النـص العـربـي ، ص ٢٧ .

أولاً : النسائيات

انتشر إبان الحكم الفرنسي نوع من التحرر النسائي ، لم يكن يطيقه مجتمع القاهرة في ذلك الوقت ، إذ نظر إليه أهل القاهرة على أنه إباحية وفرضى خلقية لا تتماشى مع التقاليد الإسلامية ، التي كان الحكم العثماني يحرص على احترامها حرصاً بالغاً . انتشر سفور المرأة واحتلاطها بالرجال ، وقد بدأت هذه الظاهرة الاجتماعية في وقت مبكر ، منه أن دخل الفرنسيون القاهرة ، كان بعض الضباط الفرنسيين قد اصطحبوا زوجاتهم أو عشيقاتهم إلى مصر ، ويقرر أحد المؤرخين أن هؤلاء السيدات لم يستطعن الصعود إلى سفن الحملة وهي راسية في موانئ فرنسا إلا بعد أن تنكرن في زي الرجال^(١) ، ويقدر أحد الباحثين عددهن بثلاثمائة سيدة تقريباً ، وهو عدد ضئيل جدًا بالنسبة لحملة عسكرية جرار ، تضم ٣٦,٠٠٠ جندي .

وقد عاشت هؤلاء الزوجات أو العشيقات في مصر حياة متصرفة من قيود مجتمع شرق إسلامي محافظ ، وكمن يشبعن ما كانت تهفو إليه نفوسهن من كل ما هو جديد وطريف . ولندع الخبرى يتكلم عن الحرية التي مارستها السيدات الفرنسيات في شوارع القاهرة ، وعن ملابسهن ، وعن مداعيبهن لل العامة وهن يركبن الحمير : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساءهم ، كانوا يعيشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجه ، لباسات الفستانات ، والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقةً عنيفةً ، مع الضاحك

(1) Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 70.

(2) دكتور محمد فؤاد شكري : عبد الله چاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر . القاهرة ،

والقهقهة، ومداعبة المكارية معهم، وحرافيش العامة... »^(١) وكانت السيدات الفرنسيات يرافقن الرجال في ميدان الأزبكية في أثناء المهرجان الكبير الذي أقامه الجيش احتفالاً بذكرى قيام الجمهورية :

وكان العنصر الثاني من السيدات المتححررات في مصر يتمثل في السيدات الشركسيات واليونانيات والأرمانيات ومن إليهن، وقد كن زوجات أو مستولادات أو جواري للأمراء المماليك والكلشاف، جيء بهن إلى مصر، وأقفن في قصور كانت غاية في الروعة والبهاء، وعشن حياة متفرقة ناعمة باذخة، وارتدين أرقى أنواع الملابس الحريرية، المستوردة من مصانع ليون، والملابس الصلوفية وغيرها، وقد قتل عدد كبير من أزواجهن أو أسيادهن في المعارك التي خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين، وارتفاع عدد القتلى منهم في معركة إمبابة، وتشتت شمل العائلات المملوكية، وانطلقت السيدات إلى حياة التحرر، بعد أن كن يقضين أحلى سنوات العمر وراء المشربيات، لا يراهن أحد من الأفراد سوى الأغوات الطواشية، الذين يقومون على خدمتهن.

(١) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ١٦١.

(٢) انظر وصفاً لمساكن البكوات المماليك والكلشاف في ص ٣٣٠ من البحث الضافي الذي وضعه جومار، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون، بعنوان :

Description de la ville et de la citadelle du Kaire accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens(*sic*) sur sa distribution, ses monumens (*sic*), sa population, son commerce et son industrie. par M. Jomard.

dans :

Description de l'Egypte. t. XVIII, 2ème partie, pp. 113-538.

(3) Hanotaux (Gabriel); Histoire de la Nation Egyptienne. t. V; L'Egypte turque. Pachas et Mameluks du XVI^e au XVIII^e siècle. L'Expédition du général Bonaparte par H. Dehérain.

انظر بحثاً بعنوان :

La Demeure des Beys à la ville et à la Campagne. pp. 83-87.

وما يذكر أن بونابرت قد تكلم في مذكراته عن نساء المماليلك والكافشاف — وكن قد طلبن مقابلته بعد دخوله القاهرة — وقد بره ما كان يتمتعن به من قوام رائع ، وأيد جميلة صغيرة ، وصوت رخيم . وأطرى طريقهن في الحديث والخلوس والمناقشة ، وقال إلنمن من حيث الساوك الاجتماعي الممتاز ، ومن حيث مظاهرهن وأناقهن ، كن يضارعن أرق السيدات في المجتمعات الأوروبية . وتتكلم بونابرت عن إتمام كثير من الزيجات بتدخله ^(١) ، وقد عاشت هؤلاء السيدات بعد زواجهن من الفرنسيين حياة أوروبية ، مترفة منعمة ، وخرجن سافرات في صحبة أزواجهن ، وكن يذهبن معهم إلى نادي القوات المساعدة المسمى تيفولي ^(٢) Tivoli في ميدان الأزبكية ، وإلى غيره من أماكن اللهو والتسلية .

(1) Napoléon Ier; Guerred' Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 235-236.

(2) فكر في إنشاء هذا النادي أحد الفرنسيين واسم Dargevel ، واختار له قصرًا من قصور الأمراء المماليلك ، بالقرب من ميدان الأزبكية ، وكانت تحف بالقصر حديقة ذاتأشجار باستق ، وأدخلت تعديلات على أبهاء القصر وحجراته ، وخصصت فيه قاعة للموسيقى ، ومرقص ، ومطعم ، ومكتبة ، وقاعة للبليارد ، و اختيار له اسم ملهى التيفولي في باريس ، فأطلق عليه التيفولي المصري Le Tivoli Egyptien ، أما الجبرى فقد سماه « دار الخلاعة » ، ويقول إن الفرنسيين « أحذوا بغيط النوب المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة متنزة ، يجتمع بها النساء والرجال ، للهو والملائعة في أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدرًا مخصوصاً يدفعه ، أو يكون مأذوناً وبيده ورقة » .

ويقرر الأستاذ كريستوفير هيرولد إنه من المحتمل أن يكون هذا النادي أول ناد للقوات المسلحة في التاريخ .

انظر :

ج . كريستوفير هيرولد : « بونابرت في مصر » ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤ .

ترجمة فؤاد اندر اوس .

واسم الكتاب بالإنجليزية :

Christopher Herold (J.); Bonaparte in Egypt. New York, 1962.

— ٨٠ —

وَجَاءَتِ الْإِمَامَةُ عَنْصِرًا ثالثًا مُتَحَرِّرًا إِلَى أَبْعَدِ حدودِ التَّحْرِيرِ فِي مِبْيَنِهِ
القَاهِرَةِ ، وَالْإِمَامَاتِ هُنَ الْجَوَارِيُّ السُّودُ ، وَكُنَّ أَيْضًا يَعْشُنَ فِي قَصُورِ الْأَمْرَاءِ
الْمَهَالِيكِ وَالْكَشَافِ ، وَانْطَلَقُنَّ مِنْ إِسَارِ الرَّقِّ ، وَكُنَّ أَوْفَرُ عَدْدًا ، وَأَكْثَرُ
جَهَّاً فِي تَطْوِيرِ أَسْلُوبِ حَيَّاهُنَّ . قَدِمَ الْفَرْنَسِيُّونَ هُنَ الْمَلَابِسُ الْأُورُوبِيَّةُ ،
فَأَرْتَدُوهُنَا ، وَقَدِمُوا هُنَ الْحَيَّولُ، فَرَكِبُوهُنَا ، وَكُنَّ يَغْادِرُنَّ مَنَازِلَهُنَّ فِي أَهْنِ وَقْتٍ ،
وَيَطْفَنُ فِي شُوَارِعِ الْقَاهِرَةِ ، سَافِرَاتِ الْوِجْوَهِ ، تَبَادِلُ عَلَيْهِنَّ الْأَنْوَافَةَ فِي مَلَابِسِهِنَّ
وَزِينَتِهِنَّ ، وَمَشِيقَتِهِنَّ ، وَحَرْكَاتِهِنَّ :

ثُمَّ جَاءَ عَنْصِرُ رَابِعٍ هُوَ زَوْاجُ الْفَرْنَسِيِّينَ مِنَ الْمَصْرِيَّاتِ الْمَسَامَاتِ ،
وَيَكْشِفُ الْجَبْرِيُّ عن الدَّافِعِ عَلَى هَذَا الزَّوْاجِ فِي قَوْلٍ : « خطَبَ الْكَثِيرُ مِنْهُنَّ مِنْ
بَنَاتِ الْأَعْيَانِ ، وَزَوْجُوهُنَّ رَهْبَةٌ فِي سُلْطَانِهِمْ وَنَوْاهِمْ » ، وَقَدْ أَفْتَى الْبَهْفُونُ
بِشَرْعِيَّةِ زَوْاجِ الْفَرْنَسِيِّينَ مِنَ الْمُسْلِمَةِ ، مَا دَامَ يَذَكُرُ الشَّهَادَتَيْنِ ، فَكَانَ الْفَرْنَسِيُّ
يَتَدَرَّبُ عَلَى النُّطُقِ بِهِمَا وَيَعْقَدُ قَرَانَهُ عَلَيْهِما ، وَهَكُلَا كَانَتْ عَقُودُ الْأَنْكَحةِ هَذِهِ
— فِي نَظَرِ الْبَعْضِ — زَوْاجًا شَرِيعًا لَا شَائِبَةَ فِيهِ ، وَيَعْلَقُ الْجَبْرِيُّ عَلَى زَوْاجِ
الْفَرْنَسِيِّيِّ بِالْمُسْلِمَةِ فِي قَوْلٍ : « يَنْطَقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، لَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَقِيقَةٌ يَخْتَبِئُ
فِيهِا » . وَكَانَ الْأَزْوَاجُ الْفَرْنَسِيُّونَ يَضْفَنُونَ عَلَيْهِنَّ الْكَثِيرَ مِنْ مَظَاهِرِ التَّقْدِيرِ
وَالثَّكْرِيمِ ، وَيَقُولُ الْجَبْرِيُّ « وَتَمْشِي الْمَرْأَةُ بِنَفْسِهَا أَوْ مَعْهَا بَعْضُ أَتْرَابِهَا عَلَى

(١) مَذَكُورَاتُ نَقْوِيُّ لَا تُرْكُ ، نُشَرَّتْ وَتُرْبَحَةُ وَتَعْلِيَقُ الأَسْتَاذِ جَاسْتُونَ ثَيْتَ ، صِ ٦٠ النَّصُونُ
الْعَرَبِيُّ .

(٢) Galland Antoine; Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'armée française, avec la position et la distance réciproque des principaux lieux de l'Egypte; un coup d'œil sur l'économie politique de ce pays, quelques détails sur ses antiquités, et la procédure exacte de Soleyman, assassin du général Kléber. Paris, 1803, 2 vols., vol. I, p. 87 et vol. II, p. 307.

(٣) الجَبْرِيُّ ، مُصَدِّرُ سَبِيلِ ذَكْرِهِ ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

مثل شكلها ، وأمامها القواستة والخدم ، وبأيديهم العصى ، يفرجون عن الناس
 مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينهين في الأحكام »^(١) .

نظر سكان القاهرة إلى هذا الزواج المختلط ، وإلى تحرر المرأة المسلمة ،
 على أنهم نوع من الرذيلة . وقد عبر نقولا ترك في مذكراته عن الاستياء
 الشديد الذي عم المصريين في ذلك الوقت بقوله : إن المصريين لم يختتموا إطلاقاً
 وجود الفرنسيين في القاهرة ، وأنهم كادوا يموتون حزناً وكداً وغياضاً ، حين
 رأوا « نساءهم وبناتهم مكشوفات الوجه ، مما يكاد يموج بهن جهاراً ،
 ماشيات معهم في الطريق ، نائمات وقاعدات في بيوتهم » ، وأضاف نقولا ترك
 إلى ذلك أن المصريين كانوا يطلبون الموت في كل ساعة ، لاتخاذ من هذه
 المناظر :^(٢)

وتزوج الحاكم العسكري الفرنسي لمنطقة الأزهر بسيدة مصرية « من
 أولاد البلد المخلوعين » ، وكان يقضى سهراته معها في مقهى صرح لتابع له
 وابرجمانه بفتحه في هذا الحي الشعبي ، وكان أحد صاحبى المقهى يهودياً ،
 والآخر مسلماً من مدينة حلب ، كان من بين أسرى جزيرة مالطة ، الذين
 أطلق بونابرت سراحهم . وكانت تحدث في المقهى أعمال منافية للآداب العامة ،

(١) القواستة ، وتكتب أحياناً « القواصة » جميع قوانن أو قواصن
 ومنها أحد رجال الشرطة .

(٢) الجبرني ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ،
 وانظر أيضاً :

Jehan d'Ivray (Mme Fahmy Bey) ; Bonaparte et l'Egypte , Paris ,
 1914.

وقد أفردت المؤلفة الجزء الثاني من كتابها لموضوع النسائيات إبان الاحتلال الفرنسي .

Les femmes sous l'occupation française.

(٣) لقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ثابت ، ص ٣١ من النص العربي .

- ٨٢ -

بمصدق « التسلی والخلاءات » ، وكثير تردد سكان هذا الحي على المقهى ، وأغروا بشتى ضروب « المجنون والخلاعة ، وتلاك طبيعة الفرنساوية » ؛ وكانت قلة عدد السيدات الأوروبيات في مصر من أهم المشكلات التي واجهتها قيادة الحملة منذ الأيام الأولى لدخول القاهرة ، وجعلت قيام هئاته الريجات المختلطة من ناحية ، والعلاقات الآثمة بين الجنود وبعض النساء المسلمات من ناحية أخرى ، ظاهرة منتشرة . وقد طلب بونابرت من حكومة الدييركتوار أن ترسل إلى مصر زوجات جميع رجال الخدمة ، فضلاً عن أعداد وفيرة من السيدات الفرنسيات ، وفرقة من راقصات الباليه ، وقد تعذر على حكومة الدييركتوار إرسال هذه الشحنات الأدمية بسبب الحصار الذي فرضه الإنجليز على الشواطئ المصرية في أعقاب انتصارهم في معركة أبي قير البحريّة :

ولحّات القيادة العامة للجيش الفرنسي إلى حاول ارتجالية : كانت تشجع السيدات الأوروبيات في القاهرة على حضور الحفلات الساهرة التي كان الفرنسيون يقيمونها في دورهم أولاً ، ثم في نادي تيفولي Tivoli ثانياً ، لإعطاء هذه الحفلات لوناً من ألوان البهجة في نفوس الفرنسيين ، وإبعاد السأم عن نفوسهم ، ولحّات قيادة الجيش إلى الاتفاق مع المغنيات والراقصات المصريات المحترفات « العوالم » Les Almas ، كي يشتركن في إحياء الحفلات التي كانت تقام في هذا النادي . وهكذا فرضت المسألة النسائية نفسها فرضاً على المجتمع القاهري منذ الأيام الأولى للاحتلال الفرنسي .

(1) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit., t. IV, pp. 66-72.

القاهرة الخلية

والحق أن موجة التحرر النسائي التي شهدتها القاهرة ، جعلت بعض المؤرخين الفرنسيين يقررون أن القاهرة أصبحت باريس صغرى ^(١) un petit Paris وجعلت نقولا ترك يقول في هذا المعنى أيضاً وهو يسمى أولئك المصريات المسلمات — نساء كثيرات من الإسلام — : « وخرجت النساء خروجاً شيئاً مع الفرنسياوية ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس في شرب الخمر والمسكرات والأشياء التي لا ترضي رب السموات » . ويتفق الجبرى ونقولا ترك في رأى واحد هو شغف الفرنسيين الرائد بالنساء ، فالأخير يقول إن الفرنسيين رغبة شديدة « في النساء وخضوعهن لهن ، وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفتهن » ، ويقول أيضاً لهم كانوا ينفقون بسخاء على المصريات . أما الثاني ، فهو المعلم نقولا ترك ، فيقول : « إن الجنس الفرنسي له مداخلة ومواصلة ^(٢) ومسايرة ^(٣) لجنس النساء بنوع آخر عن باقي الأجناس الموجودة في العالم بأسره » :

وقد حولت بعض البيوت إلى أماكن عامة للتسليمة والمجون ، ووضعت خارجها لافتات باللغة الفرنسيية ، تبين نوع اللهو الذي يمارس داخلها ، وفرشت هذه البيوت بالأثاث الشرقي أو الأوروبي ، وكان أبسط ما يقال عن هذه البيوت إنها تقدم الخمور لروادها ، وتهيء لهم رقص المعاشرة مع السيدات على أنغام الموسيقى . وأنشئت في أحياط القاهرة مشارب البارات —

(1) Loc. cit.

(2) نقولا ترك ، نشر وترجمة ديميرانج ، ص ٤٤٤ ،

(3) الجبرى : مصدر سبق ذكره بـ ٣ ، ص ١٦٢ .

(4) نقولا ترك ، نشر وترجمة الأستاذ ثنيت ، ص ٦٠ من النص العربي .

(5) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 66 - 72.

— ٨٤ —

وتحولت بعض المقاهم في الأحياء الشعبية إلى مراقص ، في حي الحميات — على سبيل المثال — حسول مقهي إلى مراقص ، وكانت الرقصات يتساون بن الرقص لرواده ليلاً ونهاراً . وفتحت مجال الدعارة بكثرة في شتى أنحاء القاهرة . وأقبل الجنود الفرنسيون على ارتياحها ^(١) إقبالاً شديداً ; وانخرطوا ^(٢) في ميدان الأزبكية مكاناً لخفلاتهم ومهرجاناتهم التي كانوا يقيمونها في المناسبات السياسية ، وعند بداية أول كل شهر ، طبقاً للتقويم الذي جاءت به الثورة ، وكانت تمارس في هذه الخفلات على نطاق واسع أمور تنافس مع الآداب العامة ، من وجهة نظر المسلمين في ذلك الوقت :

لقد أراد الفرنسيون أن يجعلوا من القاهرة مدينة أوروبية ، تصارع عاصمتهم باريس في بهاءها ولذاتها ، ومقاهيها وأنديتها ، حتى يكفلوا بجنودهم حياة تجمع بين أسباب المتعة والتسلية واللهو ، وبذلك ترتاح نفوسهم إلى الإقامة في القاهرة ، وتخف حدة تذمرهم وسخطهم . ولكن فات السلطات

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله چاك مينو ، مرجع سابق ذكره ، ص ٥٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٥٥٢ - ٥٥٣ .

(٣) يتضح حق كراهة رجال الحملة الفرنسية للإقامة في مصر من الخطابات الشخصية التي بعث بها رجال الحملة إلى ذويهم في فرنسا ، وقد وقعت هذه الخطابات في يد الأسطول الإنجليزي بقيادة فنسن ، وذلك في أثناء نقلها من مصر إلى فرنسا ، فصادرها فنسن وبعث بها إلى لندن ، وقد سارعت الحكومة الإنجليزية إلى نشر هذه الخطابات ، مع ترجمة لها بالإنجليزية ، واستعانت بأحد المهاجرين الفرنسيين في التعليق عليها ، كما وضعت مقدمة لها ، وقادت الحكومة الفرنسية من ناحيتها بالرد على الملاحظات والتعليقات التي جاءت في الطبعة الإنجليزية ، وأردفت بردتها الخطابات المصادرية ، فأصبحت هناك مجموعتان :

المجموعة الأولى :

Copies of Original letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, intercepted by the Fleet under the command of Admiral Lord Nelson. With an English translation. 1798 - 1799. 2vols., XXIII - 248 pages; XXXI - 236 pages.

—

وقد طبعت من المجموعة الأولى عدة طبعات .

الفرنسية أن تدرك أن مثل هذه الحياة الاجتماعية المتحركة الصاحبة المسيطرة ، كانت تتعارض تعارضًا جذرياً مع تقاليد مجتمع إسلامي متزمن ، وبالتالي تعصف بالسياسة الإسلامية التي حرص بونابرت على انتهاجهما في حكم الشعب المصري ، ولم يكن من المتظر أن يغير الشعب المصري في مجموعه وبين عشية وضيحاها ، أسلوبه في الحياة الاجتماعية ، وهو أسلوب درج عليه أعصاراً وأدھراً وأحقاباً ، ولم يجد المصريون من أهل الرأى في ظاهر الإباحية التي انتشرت في القاهرة دليلاً على انغمس الفرنسيين في حياة المجنون والخلاعة فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها فرضي خلقية فقط ، بل اعتقدوا أن الفرنسيين إنما يهدفون إلى ما هو أخطر من ذلك كله بكثير : لئنهم يريدون نشر الفساد والرذيلة بين شباب الشعب المصري .^(١) لقد أطلق أحد الأساتذة المصريين على القاهرة منذ أن دخلها الفرنسيون وصفاً معبراً هو «القاهرة الخليعة» ، وقال إن هذه التسمية مستمدّة من الفكرة التي جالت في ذهن الخبرـى ونظرائه من عقلاـء المصريـين . والحق أن الفرنسيـين استهـروا بـتقاليـد الشـعب المـصرـى ، وعادـاته ، وأخـلاقـه ، ومـثلـه العـلـيا . وبـقدرـ ما اـسـتـهـوت حـيـاة الـمـجـونـ وـالـفـسـقـ ، أـفـئـدةـ الطـبـقةـ الـدـنـيـاـ منـ سـكـانـ القـاهـرـةـ ، وـبعـضـ أـفـرـادـ قـلـائـلـ مـنـ العـاثـلـاتـ الـكـبـيرـةـ ، بـقدرـ ما نـفـرـتـ بـقـيـةـ قـطـاعـاتـ الشـعبـ مـنـهاـ : وـكانـ القـاهـريـوـنـ يـقارـنـوـنـ بـينـ

الجموعة الثانية : =

Correspondance de l'Armée française en Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, publiée à Londres, avec une introduction et des notes de la chancellerie anglaise. Traduites en français et suivies d'observations par E. Th. Simon. Paris, an VII (1799).

وقد ترجمت المجموعة الثانية إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية.

(١) دکتور محمد فؤاد شکری : عبد الله حاکمینو ، مرجع سبق ذکرہ ، ص ٧٣ ، ٥٧ ص ٨٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٧١

الإباحية التي نشرها الفرنسيون ، وبين ما جاء في منشور بونابرت أن الفرنسيين مسلمون مخلصون .

ثانياً : تعيين يوناني شرس وكيل لمحافظة القاهرة

ومن بين تصرفات الفرنسيين التي جاذبهم فيها التوفيق ، وأذارت سكان القاهرة عليهم ، أنهم عينوا أحد اليونانيين العتاه في منصب كاتخدا مستحفظان — أى وكيل محافظة القاهرة — وكان اسمه برتلمي Barthélemy ، ويسمي ^(١) الجندي برطليمين ، وأطلق عليه أهل القاهرة « فرط الرمان » ، وكان ^(٢) هندا اليوناني — وهو من مواليد جزيرة كيو Chio إحدى جزر الأرخبيل — معروفاً لأهل القاهرة بكراهيته العميقه للدعاين ، ويقول الجندي عنه إنه من سفلة اليونانيين ، اتخذ من العسكرية حرفة له ، والتحق بخدمة الأمير المملوكي محمد بك الألاني في فرقه الطوبجية — أى سلاح المدفعية — ، كما كان له محل بشارع الموسكى يابع فيه القوارير الرجاج أيام بطالته . وكان ^(٣) هندا الرجل ضخم الجسم ، فارع القامة ، عريض المنكبين ، تهفو نفسه إلى المشاجرات ، لأنها تتيح له الفرصة لإبراز عضلاته ، وإظهار قوته . وكان سكان القاهرة يتقدون شهره . ولما جاء الفرنسيون عرض خدماته عليهم ، فعينوه وكيلًا لمحافظة القاهرة ، ونادا من صنائع الفرنسيين ، ومن أبرز أعلام الاحتلال الفرنسي . بدت النزعة المظاهيرية في خلقه ، منذ أن صدر قرار تعيينه في منصبه ، إذ خرج من مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في موكب رسمي يصفه الجندي برطليمي في حادث شهر صفر ١٢١٣ (١٥ يوليو — ١٢ أغسطس ١٧٩٨) ، فيقول : « قلدوا برطليمين النصراني الرومى ، وهو الذي تسميه العامة (فرط الرمان) ، كاتخدا مستحفظان ، وركب بموكب من

(١) يرد اسمه في بعض المراجع التاريخية برطليمو سيرا Bartholomeo Sera

(٢) يرد في مراجع أخرى هذا الاسم القاهرة مترجمًا إلى اللغة الفرنسية Grain-de-Grenade

بيت صارى عسکر ، وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين^(١) ، مشاة بين يديه ، وعلى رأسه حشيشة من الحرير الماون ، وهو لابس فروة بزخادة ، ومن بين يديه الخدم بالحراب المفضضة ، ورتب له بيوك باشى وقاتات عينوا لهم مراكز بالخطاطيل البالد يجلسون بها ، وسكن المذكور بيت يحيى كاثشف الكبير بخاراء عابدين ، أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى وغير ذلك^(٢) .

(١) البطالون : هم الجنود غير المنظمةين .

(٢) حشيشة ، معناها لفافة .

(٣) في الترجمة الفرنسية لكتاب الجبرق ترد هذه العبارة : un riche pelisse sur le dos . و معناها معطف ثمين ، مبطّن بفرو يتدلى على ظهره .

انظر

Merveilles Biographiques et Historiques, ou Chroniques du Cheikh Abd - El - Rahman El Djabarti. Traduites de l'arabe par Chafik Mansour Bey, Abdul Aziz Khalil Bey, Gabriel Nicolas Kahil Bey et Iskender Ammoun Effendi. Le Caire. Imprimerie Nationale. 1888-1897. 9 vols. t. VI. (1891) p. 25.

(٤) بيوك ، كلمة تركية معناها كبير ، وببيوك باشى تحمل معنى الموظف الكبير أو الياور .

(٥) قلقات مصطلح تارىخي ، مفردة قلق ، وهذه المفيدة مأخوذة من الكلمة التركية قوله ، و معناها أحد أفراد الشرطة الذين يطوفون ليلاً في دوره عسس .

والجبرق يعطي فكرة عن المكانة الامامية التي كان يشعّها أو لشائط القلقات فيه قوله : إنَّ كبارَ الـ فرنسيـين كانوا يذهبون إلى القلق المختص بمنطقة الجامع الأزرق عقب إخراج ثوررة القاهرة الأولى ، وتسرّب الآباء بأنـ الفرنسيـين أعدـوا عدـآ منـ شـايخـ الأـزرـهـ سـرـآ ، وكان هؤلاءـ الـ فـرنـسيـينـ الـ كـبـارـ يـجـتمعـونـ عـنـدـ القـلـقـ منـ أـجـلـ إـرـهـابـ الـ مـصـرـيـينـ ،ـ خـشـيـدـ قـيـامـ فـتـنةـ (جـ ٣ـ ،ـ منـ ٢٩ـ) .

والجبرق يعطي أيضاً تحديداً دقيقاً لاختصاصات المأفات ، وهو بتكلام عن سباستيـانـ محمدـ علىـ ،ـ إـيـانـ جـمـلةـ فـرـيزـ Fـraeـserـ البرـيطـانـيـةـ عـلـىـ مصرـ سـنـةـ ١٨٠٧ـ فـيـ تـضـيـيقـ الـ حـنـاقـ عـلـىـ الـ أـمـرـاءـ

المـالـيـكـ المـتـصـمـمـينـ بـالـوجـهـ القـبـليـ -ـ ويـسـمـيـمـ الـجـبـرـقـ القـبـاليـ -ـ خـوـفاـ،ـ فـنـ حدـوثـ اـتصـالـاتـ مشـهـرـةـ ،ـ بـيـنـ الـأـمـرـاءـ الـمـالـيـكـ فـيـ الصـعـيدـ وـبـيـنـ الـحـمـلـةـ الـبـرـيطـانـيـةـ ،ـ ماـ يـؤـدـيـ إـلـىـ تـعـالـافـ بـيـنـ الـفـرـيـقـيـنـ ضـدـ

محمدـ علىـ .ـ يـقـولـ الجـبـرـقـ وـهـوـ يـتـكـلـمـ عـنـ حـوـادـثـ شـرـ صـفـرـ ١٢٢٢ـ (ـ ١٠ـ أـبـرـيلـ ٨ـ ماـيوـ ١٨٠٧ـ)

ـ وـكـذـلـكـ نـهـيـوـاـ عـلـىـ الـقـلـقـاتـ الـذـيـنـ يـسـمـوـهـمـ الضـوـابـطـ الـمـتـقـيـدـيـنـ بـأـبـوـابـ الـمـدـيـنـةـ مـهـلـ بـابـ النـصـرـ ،ـ وـذـهـاـهـنـ إـلـىـ أـزـواـجـهـنـ »ـ .ـ (ـ جـ ٤ـ ،ـ صـ ٥٧ـ)ـ .ـ

(٦) أخطاط ، جمع خط بضم الخطاء ، معناها أقسام المدينة .

(٧) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١١ - ١٢ .

ومن الغريب أن يصدر قرار تعينه في مسهل الحكم الفرنسي وفي ذات اليوم الذي صدر فيه قرار تشكيل ديوان القاهرة ، وفي الوقت الذي كان بونابرت يحاول استهلاة قلوب المصريين إلى الحكم الفرنسي . ولا عبرة بما يقرره أحد حافظ عوض من أن التبعة في تعينه تقع على علماء الأزهر أعضاء الديوان^(١) ، فقد اعتمد على رواية الخبرى بعد أن أدخل تعديلاً عليها ، عصف بمعناها . والعبارة التي ذكرها الخبرى هي أن أعضاء الديوان أبغوا الفرنسيين « أن سوق مصر لا يخافون إلا من الآتراك ، ولا يحكمهم سواهم »^(٢) ، والعبارة التي جاء بها قلم أحمد حافظ عوض منسوبة إلى الخبرى هي « إن الذنب في ذلك واقع على المشايخ الذين أفتوا لهم بأن سوق مصر لا يخافون إلا من المماليك وأشباههم » . وفارق كبير بين العبارتين ، والأمانة العالمية تقتضي عدم إدخال تعديل على نص تاريخي يعصف بمعناه ، ولم يكن الرأى الذى قرره الخبرى ينسحب على هذا اليوناني ، ولعل الأستاذ أحمد حافظ عوض قد فاته ما ذكره الخبرى في كتابه الأول الذى وضعه باسم « مظاهر التقليد » إذ جمل فيه حماة عنيفة على الفرنسيين لتعيينهم لهذا اليوناني في منصب إدارى كبير ، وقال إن هذا التعين يتنافى مع ما جاء في المنشور الأول الذى وجده بونابرت إلى الشعب المصرى في ٢ من يوليو ١٧٩٨ ، والذى قال فيه : إن الحكم资料franc منسوف يتبع الفرض أمام المصريين لتقليل المناصب السامية ، واكتساب المراتب العالية ، وأضاف الخبرى إلى ذلك قوله : إنه مما عصف بهذه الوعود « تقليدهم مناصب

(١) أحد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر . القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص

(٢) الخبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١

الأحكام الجليلة للأسافل والرعام ، كجمعهم ببرطامين ، وهو المسيحي عند العامة (فرط الرمان) ، كتخدنا مستحفظان » .^(١)

ويعطى أحد المؤرخين الفرنسيين تفسيراً أو تبريراً ، لإقدام السلطات الفرنسية على تعينه في هذا المنصب ، فيقول إنه عقب معركة إمبابة و هروب إبراهيم بك مع قواته إلى الشرقية ، انتهز بعض الغوغاء فرصة عدم وجود قوات أمن في القاهرة ، فمارسوا عمليات النهب والسلب . وحدث أن هاجمت جموع غفيرة من الرعام حي الإفرنج ، وكادوا يفكرون بسكنائه ، ويسابون ثرواتهم ، لو لا أن تصدى لهم شخص يوناني بمفرده ، كان ذا شجاعة نادرة ، وقوة بدنية جبارة ، وأخذ يطلق النار على المهاجمين ، فردهم على أعقابهم ، وكان هذا اليوناني « الشجاع » هو برتبى ، فعينه الفرنسيون في منصب وكيل محافظة القاهرة ، تقديرآ منهم لوقفه ، وجهوده في حماية أرواح الأوروبيين وأموالهم :^(٢)

ولما شغل برتبى هذا المنصب بربت بروزاً واضحاً هو ايته ، وهي . القتل الجماعى للمماليك والمصريين على السواء . كان يطوف فى شوارع القاهرة والسيف مسلول فى يده ، وحوله وأمامه قوة تبلغ المائة من اليونانيين غلاظ القلوب على شاكلته . وكان يجمع فى ملبوسه بين الملابس اليونانية والملابس الشرقية .

(١) البرقى : مظهر التقى بذباب دوله الفرنسي . النسخة الخطية المودعة في المكتبة التيمورية بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ١٣٢٨ تاريخ ، المكتبة التيمورية ،

ص ٣٣ .

(٢) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t., III, p. 211.

(٣) تقرير اليونانيون المقيمين في مصر من سلطات الاحتلال الفرنسي ، وقد أمر بونابرت بتكون ثلاثة كنائس من هؤلاء اليونانيين تتولى الحراسة النهرية للسفن الفرنسية ، بعد أن كثُر تعرض المصريين لهذه السفن ، وفتنهم بركابها الفرنسيين ، وقد تضمن أمر بونابرت بأن تكون كل كنيسة من مائة يوناني ، وأن يكون مقر الكنيسة الأولى القاهرة ، ورئيسها نقولا ماركر =

كان يرتدي عمامة بيضاء كبيرة ، يزيد في بياض لونها مان يشاهدها بشرته البرونزية ، وكان يرتدي أيضاً سراويل واسعة ، وسترة ضيقة وقصيرة على صدره ، ويضع حول وسطه حزاماً عريضاً أحمر . وكان يطوف أحياناً في صحابة زوجته ، مرتدية الملابس اليونانية الوطنية ، وكانت زوجته على شاكلته ، لا يرعبها منظر الدماء المسفوكة . وكان يداهم البيوت ليلاً ، بموجة البحث عن الأسلحة . وكان في بعض الأحيان يخرج إلى أطراف القاهرة ، بموجة البحث عن الفارين ، أو البدو التمردین ، فإذا لم يجد أحداً من هؤلاء وأولئك كان يقتل الفلاحين الذين يصادفهم في طريق عودته إلى القاهرة ، ويجمع رعوسمهم ويحملها رجاله معهم . ولذلك كان يحرص على أن يعود من جولاته بنتائج إيجابية ، تتمثل في رعوس قتلاه . وكان يرى أن أكبر معمرة تتحقق به من طواوه أن يعود إلى القلعة بدون «إيراد آدمي» ، سواء كان هذا الإيراد أشخاصاً مقبوضاً عليهم أو رعوس قتلن موضوعة في زكایب ، وبسبب إسرافه في القسوة ، وإمعانه في الظلم ، ورغبتة في التشفي من الشعب المصري ، أطلق عليه أحد المؤرخين الفرنسيين اسم «ترستان المصري»^(١) Le Tristan Egyptien

Nicolas Marco ، والثانية في دمياط ، والثالثة في رشيد ،

انظر :

الوثيقة رقم ٣٥٤٢ مؤرخة في ٦ بر ومير من السنة السابعة للقديم الجمهوري (١٧٩٨ أكتوبر ٢٧)

والوثيقة رقم ٣٥٤٣ مؤرخة في ذات التاريخ السابق ، وموجيحة إلى الجنرال بر تيه

Correspondance de Napoléon, t. V.

وبالإضافة إلى كتائب الحراسة الهرية شكل الفرنسيون من اليونانيين المقيمين في مصر كتاب انضممت إلى الجيش العامل ، سداً للنقص في صفوف الجيش .

(١) حدث أن عاد هذا الرجل في إحدى المرات من جولاته ، وذهب إلى الجنرال دي بو الحاكم العسكري لمدينة القاهرة ، وكان يتناول الغداء مع بعض ضيوفه ، فقدم إليه زكيبة ، ظان الجنرال أول الأمر أنها تحوى بطيخاً أو شماماً ، فأمر بفض الزكيبة ، فإذا بمحتويتها عبارة عن اثني عشر رأساً من رعوس المصريين قتلهم . وامتنع الحاضرون من هذا المشهد الدامي ، وأمر الجنرال بإخراجه مع زكيته من قاعة الطعام .

(٢) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 128 - 131.

(٣) تريستان ، هو رجل سياسي فرنسي ، عاش في القرن الخامس عشر ، واستطار شره في فرنسا ، إذ اشتهر عنه إسرافه في القسوة ، والتجسس على مواطنه ، والتجريح على ارتکاب

ويقول مؤرخ فرنسي آخر : إن كل الآثام الفظيعة التي نسبت إلى الفرنسيين إنما تتجسد في هذا الرجل اليوناني^(١) ، وجدير بالذكر أن الاتهامات التي رددتها أهل القاهرة إبان الثورات والفتنة كانت تدوى بهذا القول المسجع : الله ينصر^(٢) السلطان ، ويهلك فرط الرمان ، وسرى أن رعونة هذا اليوناني كانت السبب المباشر في استفحال الثورة التي تنادي إليها رجال الأزهر في أكتوبر ١٧٩٨ :

ثالثاً: استئلاء المسيحيين على إبراد الأوقاف الإسلامية

ومن الأسباب المساعدة لاحتلال الأقباط ونصارى الشوام على إمداد
الأوقاف الخيرية الإسلامية، وقد اعتبروها غنية لهم، وتأثر من هذا الإجراء
المستحقون في الأوقاف ، إذ قطعت عنهم المرتبات التي كانوا يعتمدون عليها
في معيشتهم ، وكان معظمهم من الفقراء ، وقد وصفهم الخبرني بأنهم :
«أولاد الكتاتيب والفقهاء ، والعبيان والمؤذنون ، وأرباب الوظائف ، والمرضى
بمارستان المنصوري ، وأوقاف عبد الرحمن كتخدا» وقد ذهبوا

= الحرام التي وصلت إلى حد القتل أو الاغتيال، وانهزم فرصة الحرود التي كانت مشتعلة بين فرنسا وإنجلترا، وقيام الاختطارات الداخلية في فرنسا، فأُشيع هواليه الإجرامية، وكان قد وضع نفسه في خدمة ملوكين تعاقبَا على حكم فرنسا، هما الملك شارل السادس (١٤٢٢ - ١٤٦١) والملك لويس الحادي عشر (١٤٨٣ - ١٤٦١)، سُجِّل له الأول بأن بيافر نفوذاً على كبار قادة الجيش، وعينه الشافعي منصب كبير الياوران، وفي جميع المناصب التي شغلها كان رئيساً لـ صورة قبيحة من صور استغلال النفوذ والبطش، والاستهتار بالقانون، وسفك الدماء لأنفسه الأسباب، وقد انقطعت أخباره بعد سنة ١٤٧٥، ويعرف في تاريخ فرنسا القومي باسم «لويس تريستان ليريميت Louis Tristan Lhermitte»، وتكتب هذه اللفظة الأخيرة أحياناً L'Ermite، وأحياناً آخر Lhermite.

و هكذا توجد أوجه كثيرة للتبه بين هذه الشخصية الفرنسية وبين برلنوي الذي فرضه الفرنسيون في منصب حساس في مدينة القاهرة ، فاستغل سلطات منصبه لممارسة هوaitه الإجرامية من ناحية ، ولا شفاعة غالية من الشعب المصري من ناحية أخرى .

(1) Wiet Gaston; Nicolas Turc; ouvr. cit., (Trad. fr.) p.113. note. 2.

(٢) الخبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ص ٩٣ .

إلى السيد خليل البكري نقيب الأشراف ، يتسمون تدحشه لدى السلطات الفرنسية لإعادة الأمور إلى أوضاعها السليمة ، وكانوا جماعة غافرآ « فوأعدهم على حضورهم الديوان وينهوا شكوكاهم ، ويتشفع لهم ، فذهبوا راجعين »^(١).

رابعاً : استغلال المسيحيين على المسلمين

يضاف إلى هذا الاستغلال التعسفي سبب آخر ، هو استغلال العناصر غير الإسلامية في مصر على مسلميها ، فقد كان المساهمون يخسرون أنفسهم بامتيازات ، نذكر منها على سبيل المثال : الحق الذي قرروه لأنفسهم دون سواهم ، وهو ارتداء عمامة بيضاء ، وكذلك السير في الطرقات على الجانب الآمن . وأما جاء الحكم الفرنسي لم يتخلص غير المسلمين من القيود المفروضة عليهم فحسب ، بل شمروا بأنوفهم على المسلمين ، وخطبوا لهم باهجة كانت تنم عن التحكم والازدراء والسيخوية . وواجه الفرنسيون هذه المشكلة منذ الأيام الأولى للحكم الفرنسي^(٢) . وكان مركزهم حرجاً ، فالجيش في حاجة إلى معاونة الأقباط والشماميين واليونانيين ومن إليهم ، لعدة أسباب ليس هذا البحث مكاناً لمناقشتها ، والجيش تابع للدولة أوروبية ذات نظام جمهوري ، وشعارها الحرية والإخاء والمساواة ، فإذا لم يعمل الفرنسيون على تطبيق هذه المبادئ على الأقليات في مصر ، فكأنما تنكر الجيش للمبادئ التي جاءت بها الثورة الفرنسية . ولكن أدرك بونابرت من ناحية أخرى أن هذا التحرر يسعى إلى الرأى العام في مصر ، ويعصف بالسياسة الإسلامية التي أخذ نفسه بها في حكم الشعب ، فقال في مذكراته : إنه من العيب إضعفاء مظاهر الاحترام والتقدير على عامة الأزهر كوسيلة لاجتذاب قلوب المصريين للحكم الفرنسي « إذا لم نظهر نحن

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(2) Reybaud Louis et autres ; ouvr. cit., t. IV , pp. 138-139.

مزيداً من الاحترام العميق للدين الإسلامي ، وإذا كنا نسجح للأقباط واليونانيين واللاتين (المسيحيين الغربيين) بقسط من التحرر ، يغير من أوضاعهم وعلاقتهم المعتادة . وقد أردت أن يكونوا أكثر خصوصاً ، وأكثر احتراماً^(١) لكل ما يتصل بالإسلام وبالمسلمين . مما كانوا في الماضي » . والببرى يؤكد هذا الاتجاه الذى صادر عن بونابرت ، ويقرر أنه حاول الأخذ به ، بعد انتهاء ثورة أكتوبر ١٧٩٨ . فيذكر في حوادث اليوم السابع من شهر رمضان ١٢١٣ (١٢ من فبراير ١٧٩٩) « أن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهم القديمة في لبس العائم السود والزرق . وتركوا لبس العائم البيض ، والشيلان الكشمبرى الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك . ونهوا أيضاً بالمناداة في أول رمضان (٦ من فبراير ١٧٩٩) بأن نصارى البلد يعيشون على عادتهم مع المسلمين أولاً . ولا يتمجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ، ولا يشربون الدخان ولا شيئاً من ذلك برأى منهم ، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية ... » .

خامساً : كثرة المغار والمرافق

ومن جهة أخرى كثُر عدد محلات بيع الخمور أو « الخاهير » بمصطلح ذلك العصر ، وتحولت المقاهي في الأحياء الشعبية إلى مراقص تعامل فيها الراقصات المصريات . ومن إلين من « بنات البلد المخواعات » . وكان السهر في هذه المرافق يمتد إلى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل ، وكانت تتم فيها

(١) "Mais ce serait en vain qu'on prendrait ces soins pour eux (les Ulémas), si on ne se montrait pas pénétré du plus profond respect pour la religion de l'Islamisme et si on permettait aux Coptes chrétiens, grecs et latins des émancipations qui changeassent leur rapports habituels. J'ai voulu qu'ils fussent encore plus soumis, plus respectueux pour les choses et les personnes qui tenaient à l'Islamisme, que par le passé".

Napoléon I^r; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. II, p. 152.

(٢) الجبرى . مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

أعمال محلية بالأداب العامة، ونذكر بهذه المناسبة أنه اختفت ، أو كادت تختفي من القاهرة ظاهرة كانت تميز الحياة الاجتماعية في مصر قبل قدوم الحمامة الفرنسية ، فقد كانت المقاهي تقدم لروادها ألواناً من الأدب الشعبي ، وكان المنشدون يجلسون في صدر المقهي على أريكة مرتفعة ، ينشدون على نغمات الربابة قصص البطولة والفاء والحب العذرى ، ويررون فصولاً من قصص الأميرة ذات الممة ، وأبى زيد الهملاوى ، وعنترة ، وألف ليلة وليلة ، وغير ذلك ، وحل محل الأدب الشعبي أعمال نثرت منها الغالبية الساحقة من مجتمع

إسلامى محافظه

سادساً : تدخل الحكومة في مسائل اعتبرها المصريون مسائل شخصية
 وازداد سخط سكان القاهرة على الحكم الفرنسي ، حين اتخاذ الفرنسيون تدابير صحية وقائية لمنع انتشار الطاعون ، وغيره من الأوبئة في مدينة القاهرة بالذات ، نظراً لكتافة السكان بها نسبياً عن سائر مدن مصر ، فأمروا القاهريين بأن ينشروا ثيابهم وأمتعتهم وفرشهم على سطوح المنازل ، وتعريفها للشمس والهواء طوال النهار يومياً ، وتبخير البيوت ، وعزل المصايبين بأى مرض وبائي عن الأصحاء ، والإبلاغ عن كل مريض ، كى ترسل الساطرات الفرنسية طبيباً لفحصه ، خشية أن يكون مصاباً بالطاعون . واهتمت هذه الساطرات اهتماماً زائداً بتنفيذ هذه الإجراءات الوقائية ، وعهدت إلى مشايخ المحارات ، وعدد من السيدات بالمرور على المنازل ، للتأكد من تنفيذ التعليمات الصحية ، وكانت السيدات يصعدن إلى دور الحرير لهذا الغرض ، كما صدرت الأوامر بمنع دفن الموتى في المقابر القائمة في أحواش المساكن ، أو القرى منها . وكانت توجد مقابر في الأزبكية والرويعى وغيرهما ، فمنع الفرنسيون الدفن بهما ، وأمرروا باستخدام المدافن الموجودة في أطراف العاصمة . أما العائلات التي

ليست لها مدافن ، فيسمح لها بأن تدفن موتاها في مدافن الملائكة ، كما طلب من القاهريين تعميق القبور ، بحيث لا يكون القبر قريباً من سطح الأرض . وصدرت الأوامر لأهل القاهرة بكنس الشوارع ورشها ، ومداومة تنظيفها من التهامة والقاذورات ، وقد نظر المصريون شرراً إلى هذه الأوامر واعتبروا صدورها فضولاً لا يطاق من السلطات الفرنسية ، وتدخلها فيها لا يعنينا ، لأنهم كانوا يعتبرون مثل هذه الموضوعات مما يدخل في نطاق المسائل الشخصية يعالجها كل إنسان بأسلوبه الخاص ، وبطريقته الخاصة . وقد اعتاد المصريون إبان الحكم العثماني أن يكون التدخل الحكومي مخصوصاً في أضيق نطاق لا يتعدي عادة ثلاثة مسائل ، هي : جمع الضرائب ، والقضاء ، والأمن ، ولذلك نفترسكان ⁽¹⁾ القاهرة من هذه «القيود» التي فرضها الحكم الفرنسي عليهم :

وأمر الفرنسيون بخلع البوابات التي كانت قائمة عند رعوس الشوارع والدروب والحارات النافدة إلى طرق ومسالك أخرى ، وكان جنود فرق الهندسة العسكرية هم الذين يقومون بعمليات نخلع وتحطيم البوابات ، تحت إشراف الضباط المهنديين . وارتاع أهل القاهرة من هذا الإجراء ، لأن هذه البوابات كانت تغلق يومياً من بعد صلاة العشاء حتى مطلع فجر اليوم التالي . وكان وجودها وغلقها ليلاً يبعث طمأنينة في نفوس السكان ، إذ يكونون بآمن من اعتداء اللصوص . وانهزم المرجفون في المدينة فرصة هذا الإجراء ، وأذاعوا أن الفرنسيين يعتزرون بمهاجمة البيوت ، وقتل من فيها وقت صلاة الجمعة ، حين يكون الرجال محتشدين في المساجد يؤدون شعائر صلاة الجمعة ، وفي شهر سبتمبر ١٧٩٨ مضى الفرنسيون بخلعون البوابات المقامة على المسالك غير النافدة أيضاً . وكانت البوابة الكبيرة تقطع نصفين ، ثم يرفعها العمالون وينقلونها إلى بركة الأزبكية عند رصيف الششاب ، وزاد هام الحماهير ، وأغلق التجار حوالتهم تعبراً عن احتجاجهم وتذمرهم ، ولكن لم يأبه بونابرت بسخطهم ، واعتقد أن تذمرهم ليس إلا فورة غضب سوف تخبو وشيكًا ، ولكنه كان واهماً في اعتقاده ، لأن إجراء نخلع البوابات ظلل عالقاً في ذهان سكان القاهرة ، فما أن قامت الثورة حتى تحركت الجماهير إلى الدار التي كان يسكنها الجنرال كافالا ياي Caffarelli قائد سلاح المهنديين في الجيش ، باعتباره الضابط الذي كان يتولى الإشراف على تنفيذ خلع البوابات ، واقتصر القاهريون داره ، وقتلوا من كان فيها ، ولم ينفذ هذا الضابط الكبير من الموت في ذلك اليوم إلا تواجده خارج القاهرة مع بونابرت . ويجهّس الباحثون على أن الضرورات الحربية كانت وراء نخلع البوابات ، إذ خشي بونابرت أن تعرقل هذه البوابات تحركات وحدات الجيش في حالة انطلاق ثورة ضد الفرنسيين ، وقد يستخدم الأهالي البوابات بمنتهى مثاراتيس يحتمون بها ،

سابعاً: اعدام السيد محمد كريم

ومن التصرفات التي أثارت المسلمين بوجه خاص على الحكم الفرنسي لإعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني رمياً بالرصاص في الـ ١٧٩٨، ثم أقدم الفرنسيون على قطع رأسه بالقاهرة، في السادس من سبتمبر ١٧٩٨، وأمروا برفعها على نبوت، وطافوا بها في شوارع القاهرة، والمنادى يقول: « هذا جزاء من يخالف الفرنسيين ». وقد اعتبر سكان القاهرة هذا العمل من جانب الفرنسيين تمثيلاً بجهنم رجل من الأشراف :

(١) اذظر على سبيل المثال الوثائق الآتية :

الوثيقة رقم ٢٩٤ - أمر من بونابرت إلى الجنرال كافاريل ، مورخ في ١٦ من تميّز دور
من السنة السادسة من التقويم الجمهوري (٣ من أغسطس ١٧٩٨) .

الوثيقة رقم ٢٩٥٦ - أمر بن بونابرت إلى الجنرال دومارتا Dommartin، في ١٦ من تموز/يوليو من السنة السادسة من النقوم الجمهوري (٣ من أغسطس ١٧٩٨).

الوثيقة رقم ٢٩٥٧ - أمر من بونابرت إلى الجنرال ديبيو Dupuy في ذات التاريخ السابق.

الوثيقة رقم ٢٩٧٨ - أمر من بونابرت إلى الجنرال كافاريل مؤرخ في ٢٨ من تميّز دور من السنة السادسة التقويم الجمهوري (٥ من أغسطـس ١٧٩٦) .

— The 10th of March, 1863.—

(٢) اذكار على سبيل المثارة، انواعن ذات الارقام الائمة :
 ٢٨٨٥ ، ٢٩٢٥ ، ٢٩٢٦ ، ٣٠٢٥ ، ٣٢٤٧ ، ٣٢٤٨ في المجلد الرابع من الموسدر

وَكُلُّ هَذِهِ الْوَ

بر جريدة *Courrier de l'Egypte* ، العدد الرابع الصادر في ٢٤ من شهر فروركتيبيور من السنة السادسة من التقويم الجمهوري ، (١٠ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) ، وقد أذيع في هذا العدد نباً بإعدامه ، وأسباب الإعدام ، والطافت به أسرة في شارع القاهرية .

(Y)

- ٩٨ -

ثامناً : القروض الإجبارية

وأسرف بونابرت في فرض قروض إجبارية على سكان القاهرة من التجار والصناع والحرفيين ومن إليهم ، وكانوا يلتمسون تخفيض قيمتها ، ولكنهم لم يجدوا استجابة لالتماساتهم المكرورة ، وعمد بونابرت بعد ذلك إلى مصادرة الممتلكات ، وابتزاز الأموال من نساء البكوات الماليلك ، ولم تكن هذه الإجراءات المالية التعسفية ، أو معظمها بعبارة أدق ، أمراً جديداً ، بالنسبة لمجتمع القاهرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، حين كان الأمراء الماليلك يملؤون القاهرة ظلماً وعدواناً وهباً واغتصاباً .

ويمكن أن يضاف إلى أسباب التدهور تعرض التجارة للكساد ، بسبب توقف قدوم القوافل التجارية من شمال أفريقيا ومن السودان ، وتعطل التجارة الخارجية البحرية استيراداً وتصديرأ ، على الرغم من أن حجم هذه التجارة الخارجية كان ضئيلاً نسبياً ، إلا أنها كان لها دور في الاقتصاد المصري في ذلك الوقت :

ولم تكن جميع هذه الأسباب تبرر اندلاع ثورة عارمة كالتي قام بها سكان القاهرة في صباح ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨ ، إن كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد إن تلك الأسباب قد أضافت مزيداً إلى رصيد النفور الذي شعر به المصريون من الحكم الفرنسي ، ثم جاءت تشعيرات مالية استحدثها الفرنسيون واستغلها رجال الأزهر ، لتحرييك ثورة كانوا يعلدون لها من قبل ، كما سرى في سياق هذه الدراسة :

تاسعاً : التشعيرات المالية

كان بونابرت قد عهد إلى أحد رجال الاقتصاد الفرنسيين وهو بوسيلج تدبیر موارد جديدة للمالية المصرية ، لمواجهة نفقات Poussielgue

الإدارة والحكم وال الحرب ، وكان بوسليج يشغل منصب مدير الشئون المالية لخيس الشرق ، ويسميه الخبرق تارة « بوسليك المعروف بمدير الحدود » وهو
(١) عبارة عن الروزنامي ، ويسميه تارة أخرى « بوسليك رئيس الكتاب ومدير
(٢) الحدود » ، وتارة ثالثة « مدير الجمهور ». أما المعلم نقولا ترك فيطلق عليه
(٣) « بوسليج مدير الحدود في مشيخة الفرنساوية » ، وقد تتفق ذهن هذا
الفرنسي عن وضع عدة مشروعات مالية ، منها ما يتصل بفرض ضرائب
جديدة على التركات والعقارات والهبات والمبادرات والإشادات ، وعلى السفر
من مكان إلى آخر ، وتسجيل المواليد ، وكان يطلق على العملية الأخيرة :
(٤) « إثبات الحياة » ، وتسجيل عقود الملكية ، والمؤجرات وما إلى ذلك ، ولكن

(١) الخبرق ، مصدر سابق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
والروزنامي هو المدير العام لديوان الروزنامة ، وكانت مهمة هذا الديوان إبان الحكم العثماني
جمع الأموال الأميرية ، وصرفها في وجوهها المقررة ، تحت إشراف الديوان الدفترى .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .

(٤) مذكريات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ثيت ، ص ٦٥ ، ويلاحظ أن نقولا
ترك يذكره في مواضع أخرى بحرف الكاف ، فيقول بوسليك (ص ٦٧) .
ويلاحظ الخلط الذي وقع في كتاب الخبرق ، فأحياناً (ص ٢٨) تظهر عبارة (مدير
الحدود) بحرف الياء في كلمة مدير . وأحياناً أخرى (ص ٩٠) تظهر بحرف الباء . أما نقولا
ترك فيذكره دائماً مدير الحدود بحرف الباء . ونجم عن هذا الخلط أن ظهرت هذه العبارة في المراجع

Directeur des Frontières

أو

Commissaire pour la délimitation des frontières.

انظر :

Desgranges ; Histoire de l'Expédition des Français en Egypte
par Nakoula - el - Turk, Paris, 1839, p. 140, et. pp. 150- 151.

وظهرت تارة أخرى بمعنى مدير الحدود .

Régulateur des Limites.

انظر :

Deny ; ouvr. cit., pp. 137 - 138.

يضاف على التشريعات المالية الجديدة صفة شرعية جمع بونابرت في العاصمة من الأسبوع الأول من أكتوبر ١٧٩٨ مجلساً أطلق عليه الديوان العام ، أو « الديوان العمومي » ، ضم علماء وأعيان القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط « وبقية البنادر » ، وعرض عليهم مشروعات هذه القوانين ومسائل أخرى ، ونصح في استصدار موافقة الديوان العام على هذه التشريعات ، قبل أن يفضي جلساته في العشرين من أكتوبر .

تَكْوِينُ مَجْلِسِ الثُّورَةِ

ذكرنا أن بعض علماء الأزهر رأوا ضرورة القيام على الفرنسيين ، وكان المنشور الذي وجهه السلطان العثماني — سلطان المسلمين — إلى الشعب المصري بإعلان الجهاد الدينى ضد الفرنسيين ، وكذلك رسائل الحزار باشا وإبراهيم باك ومن إليهم ، بمثابة خطة عمل لعلماء الأزهر ، ف تكونت في الجامع الأزهر ، وفي وقت مبكر على صدور التشريعات المالية بلجنة لقيادة الثورة ، أطلق (١) بونابرت عليها حيناً « مجلس الثوار » Le Conseil de Revoltés وحينما آخر (٢) « ديوان التمردين » : Le Divan des Insurgés (٣) الدفافع Le Divan de Défense ، كما أطلق عليها بعض الفرنسيين اسمه رابعاً هو « اللجنة التآمرة » Le Comité Conspirateur ، وكان يرأس هذه اللجنة أحد علماء الأزهر المرموقين ، وهو الشيخ محمد السادات ، ولقبه الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين

(١) انظر التقرير الذي وضعه بونابرت عن ثورة أكتوبر ، ورفعه إلى حكومة الديركتور Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient etc., ouvr. cit., t. I. pp. 369 - 371.

(2) Op. cit., p. 250.

(3) Loc. cit.

(4) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 139.

سيط بني الوفاء ، وكان يجمع بين شرف المحتد ومجده العام ، تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم على عهد على باك الكبير ، أما أعضاء مجلس الثورة فكانوا من علماء الأزهر من غير أعضاء الديوان وأئمة المساجد وبعض المغاربة . وقدر بونابرت عدد أعضاء اللجنة بما يقرب من المائة ، ويبدو أن بونابرت كان مبالغًا في هذا التقدير ، لأن التشكيلات الثورية تكون في العادة محصورة في نطاق ضيق ، وخصوصاً في مرحلة الإعداد للثورة . وأخذت اللجنة تخطي طلائع الثورة ، وتدرس الوسائل الالزمة لتحريرها . واحتياط الوقت المناسب لإشعالها ، وشراء الأسلحة وإيداعها في أماكن بعيدة عن عيون الفرنسيين وعلمائهم :

وقد وضع مجلس الثورة في اعتباره الاعتماد على النكوصين الطائفيين المجتمع القاهرة في ذلك الوقت ، فقد كان من سمات المجتمع المصري وجود طوائف الحرف guilds ، وكان شيخ كل طائفة يمارس سلطات واسعة فنية وإدارية وتأدية على أفراد طائفته . وكان علماء الأزهر على صلات وثيقة بشيوخ الطوائف ، ومن المظاهر المؤلقة في حياة المجتمع القاهري أن شيوخ بعض الطوائف كانوا يتخلدون من المساجد مكاناً مختاراً ، يمارسون فيه

(١) كان علماء الأزهر في العصر العثماني يعتمدون على شيوخ الطوائف إذا أرادوا تحرير ثورة شعبية عارمة ضد أمير ملوكي ظلوم ، وكان شيخ الطائفة يحرض الحرس كله على أن يشهد عدد من كبار علماء الأزهر الاحتفالات التي تقييمها طائفته في شئ المناسبات ، وبخاصة تلك التي تشبه الاحتفالات التي تقام في الوقت الحاضر ، ويطلق عليها حفلات التخرج . فكانت تقام احتفالات عندما يرتقى « عريف » إلى مرتبة « معلم » ، ويصبح له الحق في مزاولة مهنته أو حرفيه في محل مستقل . وكان أحد كبار علماء الأزهر يخطب في مثل هذا الحفل ، كما كانت « الإجازة » التي تعطى « للمعلم » الجدد من صياغة أحد علماء الأزهر ، وكان يناسب عليها الطابع الديني ، وذكر بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ،

اختصاصاتهم العديدة المتشعبة^(١) ، وفي القرن الشامن عشر حدث تلاحم شديد بين رؤساء ثلاثة هيئات : علماء الأزهر ، وشيوخ طوائف التجار والحرف ، وأرباب الطرق الصوفية ، وكان هذا التلاحم نتيجة طبيعية لتدحرج نظم الحكم العثماني من جهة ، وللمظالم التي انتهت على الجماهير الكادحة من جهة أخرى ، وكان الجامع الأزهر هو ملتقى هذه القيادات ، وفي ظليل هذه الأوضاع حدثت اتصالات مسبقة بين مجلس الثورة وبين شيوخ الطوائف كي يصدر كل شيخ التعليمات إلى أفراد طائفته ، إما بإغلاق محلاتهم عند صدور أول إشارة ، وإما بالامتناع عن العمل إذا لم يكونوا من أصحاب المحلات ، وأن يكون الجامع الأزهر هو مكان التجمع :

وبالجاء مجلس الثورة إلى تعبئة الشعور الديني ضد الفرنسيين ، وكان مؤذنو المساجد من بين الذين اعتمد عليهم المجلس في هذا المجال ، وأخذ المؤذنون يحرضون الشعب على القيام على الفرنسيين ، من مnarات المساجد خمس مرات في اليوم مع آذان الصلاة ، فكانت الدعوة إلى الصلاة والدعوة إلى الثورة تختلطان علينا في آذان سكان القاهرة ، ويقول بونابرت في مذكراته في هذا

(1) Ibrahim Salama Dr. ; L'Enseignement Islamique en Egypte. Le Caire, 1939, p. 217.

وانظر أيضاً بحث de Chabrol الذي سبقت الإشارة إليه في هذه الدراسة.

(2) انظر البحث الذي تقدمت به الدكتورة عفاف لطفي السيد إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديث الذي عقد في لندن في أبريل ١٩٦٥ ، وكان عنوان بحثها :

The Role of the "Ulamā" in Egypt during the early nineteenth century.

وانظر على وجه التخصيص المزء الذي جاء في بحثها عن مصر في العصر الثاني المماليكي ،
عنوان : Mamluk Egypt

وقد نشر بحثها في مجلد أبحاث المؤتمر :

Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic ; edited by Holt P.M. London, 1968, pp. 264 -280.

الصاد : «إنه من فوق أربعين منارة من مساجد القاهرة كانت تطلق أصوات المؤذنين تطلب من المسلمين القيام على الفرنسيين ، وكان المؤذنون يصفونهم تارة بأنهم أعداء الله ، وتارة أخرى بأنهم غير مؤمنين ، وتارة ثالثة بأنهم ^(١) كفراً». واعتمد المجلس أيضاً على أئمة المساجد ومقرئها في إلهاب المشاعر الدينية لدى الجاهير . كانت خطب الجمعة التي تأوى في المساجد تدور حول ضرورة الجهاد الديني ، وكذلك كانت تختار الآيات القرآنية التي يرد فيها ذكر الجهاد ، ليتلوها المقرئون في المساجد ، سواء قبل صلاة الجمعة أو يومياً، قبل أداء صلاة العصر :

وكانت حرب الشائعات من الوسائل التي بحث عنها مجلس الثورة ، لإثارة نفوس المصريين ، تمهدًا لإشعال الثورة في الوقت المناسب ، وتحريكتها جارفة هادرة ، فأذاع أنباء غير صحيحة ، كان بعضها أنباء دينية مثيرة ، تتلخص في أن بونابرت قرر تنصير جميع المسلمين من سكان القاهرة ، وأنه يتزعم استخدام العنف ضد أي فرد تحده نفسه بالاستسلام بالدين الإسلامي . وكان المدف من إذاعة هذا النوع من الشائعات هو شحن عواطف المصريين الدينية وإشعارهم أن هناك أنظاراً تهددهم في عقيدتهم ، مما يحتم عليهم التصديق للفرنسيين . وكان البعض الآخر من الأنباء التي روج لها مجلس الثورة ذات طابع عسكري ، فأذاع أن الأمير مراد بك رد الفرنسيين في الصعيد على أعقابه إلى الحizza ، وأن الجنرال باشا قد عين قائداً عاماً للجيش العثماني الزاحف على مصر من بلاد الشام ، وأنه وصل فعلاً ومعه الأمير إبراهيم باك إلى بلبيس ،

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. p. 251.,

عاصمة مديرية الشرقية في ذلك الوقت ، وأن جيشاً عثمانيّاً آخر سوف ينزل إلى الشواطئ المصرية . وكان الهدف من إطلاق هذا النوع من الشائعات هو تأكيد المعانى التي استقرت في أذهان الشعب المصرى عن ضعف القوات الفرنسية بعد معركة أبي قير البحرية ، وانقطاع الاتصال بين الحملة وبين فرنسا ، ونقص عدد أفراد الجيش يوماً بعد يوم ، ثم تشجيع الجاهير على انتهاز هذه الفرصة التي يتحقق فيها الخطر من كل جانب بالقوات الفرنسية كى يقوموا على الفرنسيين . وأضاف مجلس الثورة إلى هذه الشائعات شائعة أخرى هي أن الفرنسيين يستعدون للنجاة بأنفسهم ، وأنهم هدموا أبواب الأزقة ، نهياً دأ لنهب البيوت عند رحيلهم :

وكان من بين حرب الشائعات التي بلأ إليها مجلس الثورة ، تشويه ^{ممضة}
أعضاء الديوان . فأثار دعاة الثورة جواً من الظنون والشكوك حول أعضاء
الديوان ، وصوروهم أمام الشعب بمظهر الخونة المارقين ، المتعاونين مع
الفرنسيين . وكان الهدف من هذه الشائعة الإساءة إلى مراكزهم بصفتهم
الدينية والشعبية ، فلا يستمع شعب القاهرة إلى أية نصيحة من المشايخ عامة
الأزهر أعضاء الديوان بالإخلاد إلى السكينة . وقد نجحت هذه الوسيلة ،
إذ أخذ الشعب ينظر شدراً إلى أعضاء الديوان ، واهتزت صورتهم في ذهنه
ويقول بونابرت في مذكراته إن مجلس الثورة تولى تنظيم الثوار ، وتوزيع
العمل الثوري عليهم ، وأخرج الأساحنة من مخابرها ، ولم يترك هذا المجلد
صغيرة ولا كبيرة من المسائل التي تكفل نجاح الثورة إلا ناقشها ونظمها :

(١) انظر بخصوص حرب الشائعات كلام :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, ouvr. cit., t. I, pp. 244 - 245.

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 139 - 140.

وأراد الفرنسيون الرد على هذه الشائعات ، بعد أن استفحلا أمرها ، وتناقلها الخاص والعام ، فأصدروا منشوراً وجهوه إلى سكان القاهرة كذبوا فيه تكذيباً قاطعاً الأنباء التي تداولتها الألسنة ، وقالوا إن مجىءاً أهداها لأشارة واحتيازه الصحراة أمر من نسج الخيال ، أما نزع البوابات فأمر ينفع لاويان الشرطة ، وأما تسليح القلعة فليس إلا استكمالاً لمنشآت عسكرية . وعند الفرنسيون في منشورهم إلى تهديد سكان القاهرة بتدكيرهم بما حدث في معركة إمبابة من سحق قوات المماليك : ويقرر بونابرت أن هذا المنصور جاء بنتيجة عكسية ، لأن دعوة الثورة أذاعوا أن الفرنسيين خائفون ، فازداد سكان القاهرة عداء للفرنسيين ، واستخفافاً بهم :

مجلس الثورة يحدد ساعة الصفر

وفي مساء السبت ٢٠ أكتوبر اجتمع في الجامع الأزهر ثلاثةون من أعضاء مجلس الثورة ، وعدد من رسل المماليك ، ولم يكن اجتماعهم ليثير شكوك الفرنسيين ، لأن الاجتماع يتم في المسجد ، وتقام فيه شعائر الصلاة بانتظام ، والفترة التي اجتمعوا فيها تقع بين موعد صلاة المغرب وموعد صلاة العشاء ، وهي لا تزيد عن ساعة ونصف ساعة ، وكثير من المسلمين يقضون الليل في المسجد بعد أداء صلاة المغرب ، انتظاراً لتأول موعد صلاة العشاء ، فيؤدونها قبل أن يعودوا إلى بيوتهم : واستقر رأى المجتمعين على إشغال الثورة في صباح الأحد ٢١ أكتوبر ، وأن يكون أول مظهر لها بإغلاق الحوانيت ، ودعوة التجار والصناع والحرفيين وغيرهم إلى التوجه في هذا الوقت المحدد إلى الجامع الأزهر ، حيث تبدأ المسيرة الشعبية إلى القيادة العامة للجيشين الفرنسي في الأزبكية ، بحججه التظلم من فرض النظام الضريبي الجديد الذي صدرت به التشريعات المالية في اليوم السابق (٢٠ أكتوبر) ، وقد وضع

(1) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, p 251.

أعضاء مجلس الثورة في حسابهم أن يكون اجتماع هذه الحشود ومسيرتها في شوارع القاهرة ، مقدمة لإحداث الشعب ، والخلال بالأمن ، مما يتبع الجنو المناسب لإشعال الثورة . وعلى هذا النحو أخذت دعوة الثورة من التسريحات المالية شرارة أو قدوا بها ثورة عارمة ، كانت بوعدها الدينية قد اختبرت في نفوس سكان القاهرة ، وتحولت إلى عداء ديني متوجّح ضد الحكم الفرنسي : ويلاحظ أن العوامل المشجعة ، والعوامل المساعدة ، التي سبق أن استعرضناها طرفاً منها ، يجب ألا تُنْجِب حقيقة ثورة القاهرة في أكتوبر ١٧٩٨ ، فهي في لحمها وسداها ثورة دينية ، انبثقت عن سبب رئيسي ديني ، وسنعود لمناقشتها الطابع الديني لهذه الثورة في موطن قادم من هذه الدراسة .

أربعم حقائق عن بداية الثورة

وهناك عدة حقائق تفرض نفسها فرضًا في هذا الموقف ، نذكر منها :

أولاً : إن التلاحم السريع بين إقرار التشريعات المالية في ٢٠ أكتوبر وبين اندلاع الثورة في صباح ٢١ أكتوبر ، دليل على أن مجلس الثورة كان يهدّها في داخل الأذهر الشاذلير منذ زمن سابق على صدور التشريعات المالية ، وأن غالبية سكان القاهرة المسلمين كانوا على علم مسبق بأمر الثورة ، ومن ثم كانت الاستجابة السريعة لأول نداء ديني ينادى في شوارع القاهرة بتحذيد بادع الجهاد ضد الفرنسيين ، والانتصار للدين الإسلام . يقول نقولا ترك : « وكان أغلب أهل الملك وجههم ألاس بذلك في الحين والساعة قفلت الملك » .^(٢)

ثانياً : إن الاتصالات المسبقة بين بعض أعضاء المجلس وبين شيوخ الطوائف ، جاءت بالنتيجة المرتقبة ، فقد كان الأزهر يحوج باللحوذ الشعبية في ساعة الصفر .

(١) ترجمة الأستاذ ثيت كلمة «الاس» على هذا النحو :

"La plupart des habitants étaient au courant."

كان غالبية السكان على علم بها، أي بالثورة.

p. 41 (trad. fr.)

(٢) مذكرة نقولا ترك ، النصي العربي ، ص ٢٨ من الأصل العربي .

ثالثاً: إن التسريعات المالية لم تمس إلا مصالح الموسرين من أهل القاهرة. وهو لاء لم يساهموا إسهاماً فعالاً في وقائع الثورة، أما العامة والسوقـةـ أو الحرافيشـ بـمـصـطـلـحـ ذـلـكـ العـصـرـ وـالـذـينـ كـانـواـ وـقـودـ الثـورـةـ، فـامـ تـاحـقـ التـشـريـعـاتـ الـمـالـيـةـ بـهـمـ أـصـرـارـ آـنـذـكـرـ.

رابعاً: إن الثوار لم يصبوا جام غضبهم في أثناء ثورتهم على أعضاء «الديوان العمومي» الذين أقرروا مشروعات القوانين المالية، بل اتجهـ نـشـاطـهـمـ الثـورـىـ ضدـ الفـرنـسيـينـ، وبـعـضـ الأـجـانـبـ الـمـسـتوـطـنـينـ فـيـ مـصـرـ مـنـ انـضـمـواـ صـرـاحـةـ إـلـىـ الفـرنـسيـينـ:

كان الفرنسيون يتوقعون قيام القاهرة بالثورة

يقرر بعض الباحثين أن الفرنسيين لم يتوقعوا نشوب ثورة في القاهرة، ويسئلـ هـذـاـ الفـرـيقـ مـنـ الـبـاحـثـينـ إـلـىـ وـاقـعـتـينـ: أـولـاهـماـ أـنـ بـوـنـابـرـتـ غـادـرـ الـقـاهـرـةـ فـيـ الصـبـاحـ الـمـبـكـرـ مـنـ يـوـمـ الـأـحـدـ الـحادـيـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ أـكـتوـبـرـ، وـذـهـبـ فـيـ صـبـحـةـ جـمـاعـةـ مـنـ كـبـارـقـادـةـ الـجـيشـ إـلـىـ جـزـيرـةـ الـرـوـضـةـ، وـتـفـقـدـ تـرـسـانـةـ الـجـيـزةـ، وـأـنـهـ لـوـ كـانـ يـتـوقـعـ قـيـامـ الـثـورـةـ، لـظـلـ فـيـ الـقـاهـرـةـ، وـثـانـيـهـماـ أـنـ الـخـيـرـالـ دـيـبـويـ Dupuyـ الـحاـكـمـ الـعـسـكـرـىـ لـمـدـيـنـةـ الـقـاهـرـةـ اـسـتـخـفـ بالـثـورـةـ عـنـ نـشـوبـهـاـ، وـاـنـتـقـلـ إـلـىـ مـكـانـ الـاضـطـرـابـاتـ الشـعـبـيـةـ، دونـ أـنـ تـرـافقـهـ قـوـةـ عـسـكـرـيـةـ كـافـيـةـ، فـكـانـ أـنـ لـقـىـ مـصـرـعـهـ فـيـ أـوـلـ مـواجهـةـ مـعـ الـثـورـةـ؛ وـالـوـاقـعـ أـنـ الـفـرنـسيـينـ كـانـواـ يـتـوقـعـونـ مـنـ يـوـمـ لـآـخـرـ اـنـدـلاـعـ الـثـورـةـ فـيـ الـقـاهـرـةـ، وـلـكـنـهـمـ كـانـواـ يـجـهـلـونـ سـاعـةـ الصـفـرـ، أـىـ لـمـ يـكـونـواـ يـعـلـمـونـ توـقـيـتـ قـيـامـهـاـ، وـالـأـدـلـةـ عـلـىـ ذـلـكـ التـوـقـعـ مـتـوفـرـةـ، نـسـقـيـهـاـ مـنـ الـأـوـامـرـ الرـسـمـيـةـ الـتـىـ أـصـدـرـهـاـ بـوـنـابـرـتـ تـبـاعـاـ قـبـلـ نـشـوبـ الـثـورـةـ، وـمـنـ مـذـكـرـاتـهـ، وـمـنـ يـوـمـيـاتـ الـجـيـرـقـىـ، وـمـنـ كـتـابـاتـ الـمـؤـرـخـينـ الـمـعاـصـرـينـ لـأـحـدـاثـ الـثـورـةـ. وـيـفـهـمـ مـنـ هـذـهـ الـمـصـادـرـ الـعـدـيـدةـ أـنـ السـلـطـاتـ الـفـرنـسـيـةـ قـدـ اـتـخـذـتـ تـدـابـيرـ أـمـنـ مـشـدـدـةـ، وـإـجـرـاءـاتـ

عسكرية، وأخرى مدنية وقائية . وكان اتخاذ هذه الإجراءات دليلاً على شعور الفرنسيين بأن نذر الثورة تتجمع في سماء القاهرة، واتسم بعض هذه التدابير بطابع العنف الذي وصل إلى حد إزهاق الأرواح :

أصدر بونابرت قبيل نشوب ثورة القاهرة أوامر بتسليح القاهرة بصفة عامة ، وقلعة الجبل بصفة خاصة . وإن مما يلفت نظر الباحث كثرة عدد هذه الأوامر وتلادحها . وكان من بين هذه الأوامر أمر مؤرخ في الخامس من أغسطس ١٧٩٨ إلى الجنرال كافاريلى قائد سلاح المهندسين بتسليح القلعة^(١)، وأمر مؤرخ في السابع والعشرين من سبتمبر إلى الجنرال برتبة رئيس أركان حرب الجيش يطلب منه موافاته بمعاومات عن القلعة وتسليحها^(٢)، وأمر مؤرخ في الثامن والعشرين من سبتمبر إلى كافاريلى بأن يكون في القلعة خمائة رجل بصفة دائمة، يختصون لأعمال التحصينات^(٣)، وأمر مؤرخ في التاسع من أكتوبر بإنشاء بطارية مدفعية في جزيرة الروضة^(٤)، وأمر مؤرخ في الثاني عشر من أكتوبر إلى كافاريلى بضرورة الإسراع في أعمال التحصينات في مدينة القاهرة

(١) وثيقة رقم ٢٩٧٨ - بتاريخ ١٨ من شهر تميوز من السنة السادسة من التقويم الجمهوري ، في Correspondance de Napoléon, t. IV.

(٢) وثيقة رقم ٣٣٩١ - بتاريخ ٦ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري في الجزء الخامس من المصدر السابق .

(٣) وثيقة رقم ٣٣٩٤ - بتاريخ ٧ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري في الجزء الخامس من المصدر السابق .

(٤) وثيقة رقم ٣٤٤٥ - بتاريخ ١٨ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري في الجزء الخامس من المصدر السابق .

ومن يذكر أن بونابرت أصدر أمراً بتاريخ ١٨ فانديمير من السنة السابعة (من أكتوبر ١٧٩٨) إلى بوسيلوج Poussielgue بأن تكون كل جزيرة الروضة ملكاً للجمهورية الفرنسية ، وأن يستولى على جميع الدور والمباني القائمة بها ، وأن يقيم منشآت عسكرية في الجزيرة .

انظر :

الوثيقة رقم ٣٤٥٠ - في الجزء الخامس من المصدر السابق ،

حتى يمكن الفراغ من هذه الأعمال في أسرع وقت، وفي المذكرات التي أملأها بونابرت في منفاه بجزيرة سانت هيلانة قرآن الفرنسيين اشتغلوا ليلاً ونهاراً في أعمال التحصينات، وهدموا عدداً كبيراً من المنازل ومسجدآ، وأقاموا مكانه بطارية مدفعية^(١)؛

والدراسة الدقيقة للأحداث التي كتبها الخبرق، وهو يسجل يوميات شهر ربيع الآخر سنة ١٢١٣ تكشف عن تدابير الأمن والإجراءات العسكرية التي اتخذها الفرنسيون في خلال هذا الشهر الذي انتهى قبل نشوب الثورة بعشرين أيام (١٢ سبتمبر - ١٠ أكتوبر ١٧٩٨)، وكان هذا الشهر حافلاً بالأحداث حتى كادت تضيع في زحمة تلك التدابير والإجراءات، ونستخلص من دراستنا ليوميات الخبرق أربعة مظاهر :

١ - اتجاه الفرنسيين إلى ترحيل المغاربة من مصر :

استشعر الفرنسيون الخطر من وجود عناصر إسلامية غير مصرية في مديرية القاهرة، واتجهت أنظارهم إلى المغاربة، واستقر رأي الساطعات الفرنسية على أنهم عنصر غير مرغوب في تواجده، فطلبت من المغاربة في منتصف شهر ربيع آخر ١٢١٣ (حوالي ٢٦ سبتمبر ١٧٩٨) مغادرة الديار المصرية كلية، وأمهلتهم ثلاثة أيام للرحيل، ثم مدت لهم المهلة أربعاً وعشرين ساعة. وذهب وفد من المغاربة إلى بونابرت، وشرحوا له تعذر رحيلهم، لأن الطريق البحري مغلق بسبب الحصار الذي فرضه الأسطول البريطاني على شواطئ مصر، وأما الطريق البري فقد وقفت فيه حركة سفر القوافل التي تسير على

(١) وثيقة رقم ٣٤٥٥ بتاريخ ٢١ من شهر فانديعير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري، في الجزء الخامس من المصدر السابق.

(2) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient,etc., ouvr. cit., t. I, p. 245.

- ١١٠ -

الشريط الساحلي ، وأضافوا إلى ذلك أنه يتعرّض عليهم الرحيل من القاهرة ، والإقامة في الإسكندرية لارتفاع أسعار المعيشة فيها نسبياً عن مثيلاتها بالقاهرة ،
وعدم توفر ماء الشرب فيها . وقد صرف بونابرت النظر عن ترحيلهم :

ب - لِمَخْرَاجِ سُكَانِ الْقَلْعَةِ :

أخرج الفرنسيون سكان القلعة من منازلهم ، وأنزلوهم إلى المدينة ، وأخذ هؤلاء السكان يبحثون عن مساكن لهم ، بينما شرع الفرنسيون في إقامة تحصينات عسكرية في القلعة ، وأقاموا فيها مدفعية ثقيلة : يقول الجبرتي : إن الفرنسيين « أمروا سكان القلعة بالترحوح من منازلهم ، والتزول إلى المدينة ، ليسكنوا بها فنزلوا ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزواها بعدة مواضع ، وهدموا بها أبنية كثيرة ، وشروعوا في بناء حيطة وكرانك وأسوار ، وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بدنات باب العزب بالرميمات ، وغيروا معالمها ، وأبدلوا محاسنها ، ومحوا ما كان ^(٢) بهـا من معالم المسلمين ، وآثار الحكماء والعلماء » .

ج - قتل رسل المماليك :

لاحظ الفرنسيون أن الاتصالات قد نشطت بين رجال الدولة العثمانية في بلاد الشام وبين رجال الأزهر ، فقبضوا على اثنين من الرسل الذين يعملاون

(١) الجبرتي ، مصدر سابق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩ .

(٢) بدنات منها جوانب ، أو حواـفـ ، أو كـتـلـ حـجـرـيـةـ .

(٣) باب العزب موجود بقلعة الجبل ، وهو يطل على ميدان صلاح الدين ، وكان يعرف باسم باب « السلسلة » أو « باب الاصطبل » ، وله بدنات ضخمتان ، وقد جدده الأمير رضوان كتخدا الجلاني سنة ١٧٤٧ ، ثم أقيم المحر الذي أمامه سنة ١٨٦٨ ، والداخل منه يقابلها مسجد أحد كتخدا هربان .

الظـرـرـ :

دكتور عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٢٠ .

(٤) الجبرتي ، مصدر سابق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

في نقل المكاتبات ، وأمروا بإعدامهما ، وبأن يطاف برأسهما في شوارع القاهرة ، مهاردين متوعدين كل من تسول له نفسه إحضار مكاتبات من الخارج ، أو نقل الردود عليها . يقول الخبرى في سياق استعراضه لأحداث ذلك الشهر إن الفرنسيين « قتلوا شخصين وطافوا برعوسهما ، وهما ينادون عليهما ويقولون : هذا جزاء من يائى بمكاتب من عند الملائكة ، ويذهب إليهم بمكاتب »⁽¹⁾ .

الأمر بعدم استضافة الأغراط

أصدر الفرنسيون أوامر إلى سكان القاهرة بـ«الإلا يستضيفوا في منازلهم أحداً من «الأغراط»، وبمقتضى هذه الأوامر أيضاً كان على القاهريين أن يخظروا أغاث مستحفظان - أي محافظ القاهرة - بأسماء الراغبين في السفر، على إلا يسمح لأحد بالرحلة بدون حصوله على إذن من المحافظ»^(٢).

الفرنسيون يحملون ساعة الصفر

(١) المصدر السابق، ص ٢١ ، وفي الأوامر الصادرة عن بونابرت نجد أمراً مؤرخاً في ٢٧ سبتمبر ١٧٩٨ إلى لحر الديبوى حاكم القاهرة العسكري بقطع رأس جاسوسين ، والطوابق
من أسمى ما في شوارع القاهرة .

وثيقة رقم ٣٣٩٢ : - بتاريخ ٦ من شهر فايفيير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري في:
Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) الجبرى ج ٣ ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢ .

أول لحظة ، ولذلك نجحوا في تجنب الثورة عوامل الفشل الأولى ، وكم من ثورات لم تر النور بسبب تسرب أخبارها قبل قيامها . كان بونابرت قد غادر القاهرة في شروق ذلك اليوم إلى الجيزة والروضة ، وصاحب معه بعض كبار القادة ، وكان من بينهم الجنرال كافاريلى Caffarelli قائد سلاح المهندسين ، والجنرال دومارتا Dommartin قائد سلاح المدفعية ، والكونيل ديتروا Detroye أركان حرب سلاح المهندسين ، وقد قرر بونابرت في مذكراته أنه ذهب لزيارة ترسانة الجيزة ، وأخذت المصادر والمراجع الفرنسية بهذا التفسير أو التبرير ، لغطبة موقفه وموقف زملائه :

عرض سريع لأحداث الثورة

ولن مرروراً سريعاً على أحداث الثورة التي بدأت وفق التخطيط الذي وضعتهلجنة الثورة ، في الصباح الباكر من يوم الأحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ انطلق رجال الأزهر - شيوخه وطلابه - في شوارع منطقة الأزهر ينادون إلى الثورة ، ويلهبون مشاعر الأهالى بخطبهم الحماسية ، ويدعونهم إلى الجماد الدينى ضد الفرنسيين ، ويطابون منهم التجمع في الجامع الأزهر ، وصعد المؤذنون إلى مآذن المساجد يدعون المسلمين إلى المشاركة في حماية الدين بالقيام على الفرنسيين ، ووقفت النساء على سطوح المنازل ، وعند طيقان بيروت ، يطلقن بأعلى أصواتهن صيحات مدوية ، تعبيراً عن مشاعر الغضب على الفرنسيين ، فكانت أصواتهن تبعث في سكان القاهرة مزيداً من الرغبة في التحرك والانغمام

(١) يقول لا جونكيير : إن تجمعت الجماهير بدأت في الساعة السادسة من صباح يوم الأحد ٢١ أكتوبر .
انظر :

إلى ركب الثوار ، وسرعان ما ظهرت في أيدي أفراد الشعب الأسامحة التي كانت محجوبة عن الأنظار ، وغدت منطقة الأزهر تجوس بحشود شعبية من الثوار ، حاملين مختلف الأسلحة ، مثل البنادق والرماح والسيوف والنبایت ، وغيرها . ويصف ريبو هذه الحال فيقول : « سادت الخيبة ، واحتاطت الأصوات ، وعلت الصيحات . فكان هذا المنظر يبعث الرهبة في نفوس أشجع الأفراد ، ولم يعد هناك شك في أن الثورة قد بدأت »^(١) ، ويمضي فيقول إن الذين احتشدوا في الجامع الأزهر ، وفي ساحته بلغ عددهم خمسة عشر ألف شخص ، فاض بهم الحرج ، فأقسموا الأيمان على إحراز النصر أو الاستشهاد في سبيل الله .

اتجهت جموع من الثوار إلى دار قاضى القضاة العثمانى إبراهيم آدهم أفندى ، وقد وصفه بونابرت بأنه رجل محترم بأخلاقه وصفاته ، ودخل الدار وفدى يتكون من عشرين فرداً تقريباً ، وكان على رأس الوفد السيد بدر المقدسى^(٢) – يقال إنه رجل شامى الأصل من بيت المقدس – وطلب أعضاء الوفد من قاضى القضاة مرفقاً لهم إلى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي مقابلة بونابرت ، والتظلم من التشريعات المالية ، واستعجاب الرجل لرغبتهم ، ولكنه لم يكدر يغادر عنبة داره حتى هالت كثرة الحشود الشعبية ، وانطلقت هنافات الخاير : « إلى بونابرت » ، « ليذهب القاضى إلى بونابرت » ، وأدرك القاضى أن المسألة

(١) Reybaud Louis et autres; ouvr, cit., t. IV. P 167.

(٢) يسميه الخبرى بقمش زاده (ج ٣ ، ص ٤٣) ، وكان يطلق على قاضى القضاة العثمانى في مصر : قاضى عسكر أفندى .

(٣) انظر التقرير الذى وضعه بونابرت في ٦ من برومیر من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨) عن ثورة القاهرة ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا التقرير .

(٤) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t IV. P.156

(٥) أحد حافظ عومن ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٢ .

ليست بإبلاغ شكوى لى بونابرت من تشريعات مالية جائرة ، بل هي أعمق من ذلك بكثير : إنها ثورة هادرة ، وإن مطالبته بالخروج مع الثوار ليست إلا حيلة لضمه إليهم ابتغاء استدراجه شئ الطوائف إلى هذه المسيرة الشعبية ، وتحوي لها إلى ثورة عارمة ، وإضفاء طابع رسمي عليها ، يكسبها مزيداً من الأهمية ، فعاد إبراهيم أدهم إلى داره وهجم عليه الثوار ورجموه بالحجارة ، وأوسعوه ضرباً مع أفراد أسرته ، وتسللت بعض العناصر من الثوار ، ونهبت داره .

مقتل الحكم العسكري لمنطقة القاهرة

علم الخزان الديبوى Dupuy الحكم العسكري لمنطقة القاهرة بأنباء الحشود الشعبية في منطقة الأزهر ، فأصدر الأمر إلى القوات المرابطة في بركة الفيل ، برفع الاستعداد إلى الدرجة القصوى ، وقرر الانتقال إلى منطقة الاضطرابات ، فتحرك على رأس كتيبة من الفرسان ، واتجه إلى الموسكي ، في طريقه إلى الغورية ، وأراد أن يخرج على بيت القاضى ، وكانت شوارع القاهرة في القرن الثامن عشر ضيقة قصيرة متعرجة ، وكانت أقرب إلى الأزقة والمعطف ، منها إلى الشوارع الفسيحة المستقيمة الطويلة ، التي شاهدت القاهرةبعضها منها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وقد سهل على الثوار الإحاطة بالخزان الديبوى في مثل هذه الشوارع الضيقة ، وقطعوا الطريق عليه ، وأمطروه هو وفرسانه وابلأ من الأحجار ، وفي هذا الوقت جاء برتلمني اليونانى - أو فرط الرمان - في كوكبة من رجاله ، وأطلق عياراً نارياً قتل أحد الثوار ، فازداد هياجهم ، واسترخصوا الموت في سبيل النيل من الفرنسيين ، وأصابوا الخزان الديبوى بطعنة رمح في ثديه الأيسر ، قطعت

شريانه ، وأخفقت المحاولات التي بذلها لاري Larrey كـبر
الجرحى في الجيش الإنقاذ حياته ، ففاضت روحه بعد ثمانى دقائق من إصابته
ومن المسائل التي تلفت نظر الباحث أن بونابرت تجنب أن يذكر اسم
برتراند اليونانى ، وذلك فى التقرير الذى وضعه ورفعه إلى حكومة الديركتوار
عن ثورة القاهرة ، كما تحاى فى ذات التقرير أن يذكر الوظيفة التى كان
يشغلها ، وعمد أيضاً إلى تبرير فعلة هذا اليونانى القبيح .
(٢)

الثوار يهاجمون دار قائد سلاح المهندسين

انتشر بسرعة نباء مصرع ديبيوی، وزادت حماسة الثوار، واعتقدوا أنهم
— وقد قتلوا حاکم القاهرة — فقد غدا أمراً ميسوراً قتل سائر القواد والجنود
بعد هذا النصر الذي أحرزته الثورة في جولتها الأولى، ولم يكن الحيزان ديبيوی
هو الضحية الوحيدة، فقد قرر الكولونيل ديترنوا أن الثوار قتلوا عدداً

(١) كان مقتل أخناتون دليلاً على هذا النحو مدعاة لأن يرمي به أخناتون بريته رئيس هيئة أركان حرب الجيوش الفرعونية بالاربعون والأندفاف ، دون اتخاذ احتياطات كافية .
انظر خطابين أرسلهما أخناتون بريته : الأول بتاريخ ٢١ أكتوبر إلى أخناتون ميشو في رشيد ،
والثاني بتاريخ ٢٣ أكتوبر إلى أخناتون دجوا Dugua في المنصورة

La Jonqui  re, ouvr. cit., t. III, pp. 285-286.

(٢) جاء في تقرير يونايرت عن هذه الواقعة ما يلي :

«Un chef de bataillon turc, attaché à la police, qui venait deux cents pas derrière, voyant le tumulte et l'impossibilité de le faire cesser par la douceur, tira un coup de tromblon. La populace devint furieuse.»

ومنى هذه العبارة أن قائد كثيبة تركية ماحق بقوة الشرطة كان يقف على مسافة مائى خطوة خلف دببور ، وأن هذا القائد رأى حادث الشعب ، واستحال عليهه هدفة الموقف بالحسنى ، فأطلق عباراً نارياً ، الأمر الذى أثار غضب الجايدير ، وجعلها فى حالة هياج شديدة عاصف .
وأوضح من عبارة بونابرت أنه تجنب ذكر اسم برلن ، وتحاشى اسم الوظيفة التي كان يشغلها ، وهى كشخدا مستحفظان ، أى وكيل محافظة القاهرة ، ولم يذكر أنه يوناني ، ولم يذكر أن تهوره كان سبباً في ازدياد هياج الشعب ، وقتل الجنرال دببور .

كبيراً من الجنود الذين كانوا في كتيبة الجنرال القتيل ، ويقول بونابرت إن زعماء الشورة قد عملوا بعد مقتل ديوي على زيادة إشعال العاطفة الدينية في نفوس سكان القاهرة ، فأطلقوا شائعات تقول إن الفرنسيين كشفوا عن وجوههم ، وظهرت على حقيقتهم أعداء للإسلام ، وأنهم يذبحون المسلمين ، وصعد المؤذنون مرة أخرى إلى منارات مساجد القاهرة ، يطلبون من المسلمين حماية مساجدهم .^(١)

كانت جموع الثوار تمثل إلى ذلك الوقت في الأزهريين رجال الصيف الثاني من المشايخ علماء الأزهر والمجاورين ، وهم طلبة الأزهر ، وأئمة المساجد ومؤذنها ، والدراوיש والطبقات الدنيا من العامة ، ويطلق عليهم الحرافيش ، والزرع ، والمغاربة ، ووقف بجانب هؤلاء وأولئك التجار ، والصناع والحرفيون ، ثم انضممت إلى الثوار بعد هذا النصر الأول العناصر المادئة ، واقتحموا حي الأروام ، وقتلوا الرجال ، وانجروا إلى دار الجنرال كافاريلى قائد سلاح المهندسين ، وكان يسكن دار مصطفى كاشف بالدر بالأخر ، وقد ذكره بونابرت في مذكراته باسم الجنرال دي فالجا de Falga نسبة إلى مسقط رأسه ، وكان سكان القاهرة يمقتون هذا الضابط مقتلاً شديداً ،

(1) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I. p. 249.

(2) اسم هذا القائد ماكسيميليان كافاريلى دي فالجا Maximilien Caffarelli de Falga وتقع فالجا في الحوض الأعلى لنهر البارون ، وهو من أسرة إيطالية نزحت إلى فرنسا على محمد لويس الثالث عشر (١٦١٠ - ١٦٤٣) ، ويسميه الجنرال « كفرلي المسمى بأبي خشبة » ، لأنه جاء إلى مصر يقدم طبيعية واحدة ، وأخرى خشبية بعد أن فقد القدم الأخرى في حصار ماينز Mayence سنة ١٧٩٥ ، وقد قُتل في حصار عكا في ربيع ١٧٩٩ عن ثلاثة وأربعين عاماً (١٧٥٦ - ١٧٩٩) ، وقد نعاه بونابرت إلى كلير وإلى حكومة الديركتوار (انظر =

لأنه هو الذي باشر هدم بعض المساجد والمقابر ، وانزاع أبواب الحارات ،
واقتتحم الشوارع داره ، ولكنه لم يكن موجوداً بها ، إذ كان قد صحب
بونابرت في ذلك اليوم إلى الخصبة والروضة ، وكان غيابه عن داره سبباً
في نجاته من موت محقق . فأعمال الشوارق القتل في عدد من العلماء كانوا
موجودين في داره ، ويدرك بونابرت أنهم كانوا خمسة أو ستة أشخاص ،
وأن الثوار علقوا رعوسم على باب الجامع الأزهر^(١) ، وحطموا الشوارق الأجهزة
العلمية التي وجدوها في الدار ، فكانت خسارة كبيرة نزلت بالعالم^(٢) . يقول
الجلبرني : « وكان بتلك الدار شيء كثير من آلات الصنائع والنظارات الغربية
والآلات الفلكية والهندسية ، والعلوم الرياضية ، وغير ذلك مما هو معروض
النظير^(٣) ، كل آلة لاقيمة لها عند من يعرف صنعتها ومنعمتها ، فبعد ذلك كله
العامة وكسر وده قطعاً ، وصعب ذلك على الفرنسيين جداً ، وقاموا مدة طويلة

۵ ج ، ناپلیون اسلام

الوثيقة رقم ٤١٠ بتاريخ ٨ من شهر فلوريال Floréal من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٧) من أبريل ١٧٩٣، والوثيقة رقم ٤٢٤ بتاريخ ٢١ من شهر فلوريال (١٠ من مايو ١٧٩٩) على التوالي، وعلى الرغم من أنه كان موضوع تدار جنود الحمسة، لأنه كان ذات قدم خشبية، إلا أنه كان من أ��اف قادر الحمسة، وأغز رهم علمًا، وأوفر لهم نشاطاً.

(1) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I., p. 249.

وكان من بين القتلى في دار قائد سلاح المهندسين :

وهما من مهندسي القنطر والجسور . } Thevenot تيفنوت
Duval دو فال

تستجيبيود Testeviude  كبار المهندسين بالغرافيين ، وكان في طريقه إلى دار قائد سلاح المهندسين ، فقتله النوار في الطريق .

جراجان	Roussel	روسل
	Mangin	مانجین
	Duperrès	دوپریس

(٢) انظر تفصيلات عن هجوم الثوار على دار قائد سلاح المهندسين في :

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, pp. 282-283.

(٣) وردت في النص الأصل في كتاب الجنرال على هذه الصورة ؛ وهذا خطأ مطبعي ، وصححة العبارة : كل آلة لاقبها لها عند من لا يعرف صفتها ومتغيرها .

يفحصون عن تلك الآلات ، ويتعاونون لمن يأتיהם بها عظيم الحالات » ، وقد أسرعت قوة من الجيش الفرنسي من القلعة إلى دار قائد سلاح المهندسين ، وحاصرت الدار ، وأطلقت النار على الثوار المزدحمين بالباب الخارجي ، ثم دخل الجنود الدار « وقتلوا من وجدهم بها من المسلمين ، وكانوا جملة كثيرة ،^(١) وكان من بين القتلى الشيخ محمد الزهار »

الثوار يهاجمون الجنود

وكان عدد من الجنود الفرنسيين يسيرون في شوارع القاهرة ولا يحملون أسلحة ، وفوجئوا بالثورة ، فنال الثوار منهم من لا عظيم ، وكان من عادة الجنود الفرنسيين التجول في شوارع القاهرة ، دون أن يحملوا معهم سلاحاً . وقد لاحظ اثنان من المعاصرین للحملة هذه الظاهره ، فقد قرر المعلم نقولا ترك وهو يتكلم عن الفرنسيين في اليوم الأول للثورة ، أنهم كانوا يتتجولون بدون أسلحة في شوارع القاهرة ، ولم يقفوا على حقيقة الموقف ، لأنهم كانوا يجهلون اللغة العربية ، مما أدى إلى قتل عدد كبير منهم^(٢) . أما الخبر في فقد ذكر أن الفرنسيين منذ أول يوم دخلوا فيه القاهرة « مشوا في الأسواق بغير سلاح ولا تعديل ، هل صاروا يضاهكون الناس ويشربون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن » ، وكانت هوايهم المفضلة ركوب الحمير ، وقضاء ساعات طویلة على ظهورها ، وسوقها سوقاً عنيفاً ، « وهم يغدون ويضحكون ويصيرون

(١) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣١ .

(٢) نقولا ترك ، مرجع سبق ذكره ص ٢٩ النص العربي ، نشر الأستاذ ثابت .

(٣) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١ .

(١) ويتمسخرون » ، حتى قال فيهم الشيخ حسن العطار الذى عين فيها بعد شيخاً للأزهر :

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم في مصرنا بين حمار وحمار
وعن قريب لهم في الشام مهلكة يضيع لهم فيها آجال أعمار
وكان بعض الفرنسيين المدینين قد أقاموا عدداً من المطاعم والمقاهي ،
وأماكن للهو في أطراف القاهرة ، فأصبحوا صيداً ثميناً للثوار ، قتلوا هم ،
ونهبوا دورهم . وسيطر الثوار على القاهرة كلها ، باستثناء ميدان الأزبكية ،
وقلعة الجبل ، وببركة الفيل ، حيث كانت ترابط معظم القوات ، وانقطع
الاتصال بين هذه المراكز الرئيسية الثلاثة . وانطلق الثوار ^(٢) بهم دون دوريات
الجنود من كل مكان ، وتركوا جثث الفرنسيين في الشوارع . وكان الجنود
يضطرون في معظم الأحوال إلى التراجع ، ووزع الثوار أنفسهم إلى مجموعات
هاجمت مواقع المخافر الفرنسية ، وفتكتوا بحراسها . وازداد الثوار ثقة
بأنفسهم ، وغدا مركز الفرنسيين حرجاً للغاية .

(١) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢) كان الشيخ حسن العطار أحد علماء الأزهر ، ولما جاءت الحملة الفرنسية ^{أثر} الهجرة
إلى الصعيد ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة ، واتصل عن كثب ببعض علماء الحملة ، وقد
فيهم تقويم العلمي ، وسافر إلى بلاد الشام والأناضول . ولما رجع إلى مصر اشتغل بالتدريس
في الأزهر ، وكانت الحلق التي يتقدّم بها في الأزهر تزدحم بالطلاب ، يستمعون إلى دروسه
في التفسير ، ثم عين شيخاً للأزهر ، خلفاً للشيخ أحد الدموجي سنة ١٢٤٦ (١٨٣٠ م) .

انظر ترجمته في :

علي مبارك : الخلط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٣٨ - ٤٠ ، وتجده
أيضاً بعض ملامح لشخصيته من الترجمة التي وضعها الجبرق لصديقه اسماعيل الخشاب في وفيات
سنة ١٢٣٥ هـ ، وقد توفي الأخير في ٢ من ذى الحجة ١٢٣٥ (٥ من نوفمبر ١٨١٥) .

انظر :

الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٢٣٨ - ٢٤١ .

(3) La Jonquière, ouvr. cit., t. III, p. 279,

استدعاء بونابرت

أرسل الجنرال جونو Junot رسولاً إلى بونابرت يختره باندلاع الثورة ، فعاد إلى القاهرة مسرعاً ، وأراد أن يدخلها مع رفاقه من ناحية مصر القديمة ، فاستحال عليهم دخولها ، لأن الثوار أطروهم وابلا من الأحجار ، فاتجعوا إلى بولاق ، ومنها دخلوا القاهرة ، ووصلوا إلى مقر القيادة العامة للجيش في الأزبكية . ووجد بونابرت أن طيب الثورة قد عم أنحاء القاهرة ، وعلم أن الجامع الأزهر هو مركز الثورة ، وأن الثوار أقاموا المئاريس والمواجر في الطرقات والأزقة المؤدية إلى الجامع الأزهر ، وأنه غداً من المعتذر أن يقتصره الجنود ، سواء كانوا مشاة أو فرسان^(١).

اتخذ بونابرت إجراءات سريعة لمواجهة الموقف الذي كان يتتطور لمصالحة الثوار ، فعين الجنرال بون Bon حاكماً عسكرياً لمنطقة القاهرة خلفاً للجنرال ديبيوي القتيل ، وأصدر أمراً إلى الجنرال دومارتا قائداً سلاح المدفعية بنصب المدافع على جبل المقطم ، وتعزيز مدفعية القاعة . وأصدر أوامر متتالية إلى قادة الجيش بالتحرك إلى عدة مواقع في القاهرة . وتحركت كتائب إلى أحياe القاهرة المنطرفة ، وهناك أطلق جنودها النار على الأهالي ، فردوa عليهم بالمثل . وكانت الطلقات تسمع في كل مكان، بين الثوار من ناحية، وبين الفرنسيين ومن انضم إليهم من الأجانب الذين استوطنو القاهرة من ناحية أخرى .

(1) Op. cit., p. 280.

(2) انظر على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام التالية ، ٣٥٢٠ ، ٣٥٢١ ، ٣٥٢٣ ، وكلها تحمل تاريخاً واحداً هو ٣٠ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢١ من أكتوبر ١٧٩٨).

الأزهر مركز الثورة

نقل رجال المخابرات العسكرية الفرنسية إلى الخزانة بون أن الجامع الأزهر هو موئل زعماء الثورة ، وأنه يضم خمسة عشر ألف ثائر ، يرابطون في داخله ، وفي ساحته الخارجية ، وفي الأزقة الملاصقة له ، والجهات المجاورة له ، مثل الصناديق ، وبيت القاضي ، والجالية ، والنحاسين ، والغورية ، فأرسل إلى بونابرت التقرير العربي الموجز الآتي :

٣٠ فانديمير ، الساعة ١٠ مساء .

« إن مركز الثورة لا يزال في حي العرب ، حيث يوجد أكبر جامع — الأزهر —، وقد أقام الثوار مباريس صغيرة في جميع الشوارع المؤدية إليه : وهذه الشوارع ليست مضاءة على الإطلاق ، وقد تعرضت دورياتنا لطلاقات الرصاص ببرهة . والمعتقد أن هذه الحشود التي تتحذ من هذا الحي مكاناً للتجمع ، لن تتفرق غداً في الصباح ، وأرى في هذه الحالة أن تأمروا بالتخاذل إجراءات عنيفة جداً »^(١) .

(١) لم يرد هذا التقرير العربي في مجموعة مراسلات بونابرت ، ولكن أورد نصه لاچزنكيير

“Le foyer de la révolte existe toujours dans le quartier des arabes, où se trouve la plus grande mosquée. Les insurgés ont élevé des petites barricades dans toutes les rues qui aboutissent à ce point. Ces rues ne sont point éclairées. Il n'y a qu'un instant que nos patrouilles y ont été fusillées. Il est à croire que les rassemblements, dont ce quartier est le point de ralliement, ne seront point dissipés demain au jour. Je pense que, dans ce cas, vous ordonnerez des mesures très sévères.”

انظر :

La Jonquière ; ouvr. cit., t. III, p. 280,

- ١٢٢ -

وكان الفرنسيون قد أمضوا سباحة النهار وزلفاً من الليل في إقامة المدافعان على ربي المقطم، وفي تعزيز مدفعية القاعة، وانقل الخزان دومارتا ليلاً إلى هاتين المنطقتين، واحتار الواقع التي تنصب عليها المدفع الجديدة. وأصدر إليه رئيس هيئة أركان حرب الجيش أمراً في منتصف الليل (٢١-٢٢ أكتوبر) بأن يضع بطاريات قوية من المدفعية على المرتفعات الواقعة بين القبة والقاعة، وكانت هذه المرتفعات تتسلط على منطقة الأزهر^(١)، أما الثوار فقد اهتموا بتعزيز مواقعهم بإقامة مزيد من المدارس، والحصول على أسلحة، وأرسلوا في المساء رسلاً إلى البلاد المجاورة للقاهرة، يطلبون من سكانها الحضور إلى العاصمة، والانضمام إلى الثورة. وكانت أحديتهم تدور حول ضرورة الانتصار للدين الإسلامي الذي يهدده الفرنسيون. ولقيت دعوة لجنة الثورة استجابة فورية من السكان. وأقبل بعضهم في ظلمة الليل، والبعض الآخر مع خيوط الفجر إلى القاهرة، يحملون البنادق والرماح، والسيوف والعصي. وكان الثوار لا يزالون يسيطرؤن على بوابات القاهرة ففتحوها لهم. وعلى هذه الصورة انقضى اليوم الأول بليله، والفريقان يتاهيان لاستئناف القتال في اليوم التالي.

الثورة في يومها الثاني

وفي صباح اليوم الثاني، وهو الاثنين ٢٢ من أكتوبر، نقل رجال المخابرات العسكرية إلى بونابرت أن المصريين يتقدّمون على العاصمة من البلاد المجاورة لها،

(١) المرجع السابق، ص ٢٨٠، الخامش رقم ١.

وانظر أيضاً :

التقرير الذي أرسل بونابرت إلى حكومة الديركتوار عن الثورة بتاريخ ٦ من شهر برومبر من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨)، والذي سبقت الإشارة إليه في هذه الدراسة.

- ١٢٣ -

ويضمنون إلى الثوار ، فوجه بعض قواته إلى أطراف المدينة لمنع دخول أحد من خارجها . ونبحث القوات الفرنسية في صد حشود كبيرة من الأهالي كانوا في طريقهم إلى القاهرة في ضحى هذا اليوم ، وبذلك استطاع بونابرت حصر الثورة في القاهرة ، وعزل ثوارها عن باقى سكان القطر . وكان الأهالي الذين استطاعوا دخولها هم الذين جاءوها ليلاً أو فجراً ، ومع ذلك قتل الثوار شخصية عسكرية كبيرة هو الكولونيل سلوكووسكي Sulkowski ياور بونابرت ، وكان قد خرج في الصباح في شرذمة من حرس القائد العام إلى طريق بلبيس ، يقنع وصيول الأهالي إلى القاهرة ، وبينما كان عائداً إلى العاصمة ، تلاقاه ثوار القاهرة عند باب النصر ، والتحموا معه في معركة بالسلاح الأبيض وقتلوه ، ويقرر بونابرت في تقريره عن الثورة أن نجاح الثوار في قتله يرجع إلى عاملين : أن جواده كبا به وطربه أرضاء ، وأن هذا الضابط كان لايزال يشكو من جراح أصابته في الصالحة . وقد قتل الثوار تسعة من الحراس الخمسة عشر الم Razqin له ، وقد حزن بونابرت عليه حزناً شديداً^(١) . وأدرك ثوار القاهرة أن سلاح المدفعية هو السلاح المفضل لدى الفرنسيين ، وأن هذا السلاح هو الذي كفل لهم الانتصار في المعارك التي خاضوها ضد الملاليق والمصريين ، ولذلك اتجهت جهود الثوار إلى كسر حدة هذا السلاح ، فخرجت جموع منهم قدرها بونابرت في مذكرة بين سبعة آلاف وثمانمائة ألف من باب الفتوح ، واتجهت إلى المرتفعات التي نصبوا عليها المدافع ، فصادهم الفرنسيون :

(١) كان هذا الضابط بولوف الأصل ، ينحدر من أسرة عريقة ، وكان مناضلاً عسكرياً من أجل تحرير وطنه الأصل تحت لواء كوشيسكو Kosciuszko Thadée (١٧٤٦ - ١٨١٧) بطل بولندا ، ولد في المزرعة أمام الجيش الروسي تطوع سلوكووسكي في الجيش الفرنسي ، وكان مثالياً ، تقلب عليه المبادئ الرايديكالية ، وقد عينه بونابرت ياوراً له تقديرًا لكتفاليته ، كما عينه عضواً في شعبة الاقتصاد السياسي في مجمع مصر العلمي .

- ١٢٤ -

و صعد فريق من الثوار إلى سطح مسجد السلطان حسن ومناراته لضرب الفرنسيين المرابطين في القلعة ، والقابعين وراء مدفعتهم الثقيلة ، فأخفقت محاولتهم .

وكانت كتيبة فرنسية تضم قوة من الفرسان ومدفعين ، ترابط عند مدخل حارة تؤدي إلى ميدان الأزبكية ، وأدرك الثوار عيشه الهجوم عليها هجوماً مباشراً ، فتساقوا المنازل المجاورة ، واحتلوا مسجداً صغيراً يشرف على موقع الكتيبة ، وأمطروها بوابل من بنادقهم ، وتكبّد الفرنسيون خسائر في أفراد الكتيبة ، ولكن سرعان ما خفت نجدة فرنسية واقتصرت المسجد ، وقتلت جميع الثوار المعتصمين به ، ثم قصفت المدفعية المسجد حتى انهارت دعائمه .

الثوار يرفضون وساطة أعضاء الديوان

وفي ضاحي هذا اليوم سعى مشايخ الأزهر أعضاء الديوان لمقابلة بونابرت والتسوّوا منه إصدار الأمر بوقف القتال . وكانت مقابلته لهم فاترة جافة ، حملهم مسؤولية ما حدث ، وتظاهر برغبته في وقف القتال ، ولكنه طلب منهم أن يتصلوا بزعماء الثورة في الأزهر لإلقاء السلاح كشرط أساسى للتوقف عن ضرب المدينة . ولما ذهب أعضاء الديوان إلى الأزهر رفض الثوار أن يسمحوا لهم بدخول الحامع ، أو حتى تخاطئ المتاريس المقاومة في مداخل الشوارع والأزقة المؤدية إلى الحامع . وفشلوا وساطتهم ، ومع ذلك أمسك علماء الأزهر عن إبلاغ بونابرت بالإخفاق الذي انتهى إليه مسعاهم . واعتقد زعماء الثورة أن السفارية التي قام بها علماء الأزهر أعضاء الديوان لديهم ، قد تمت بإيعاز من بونابرت ، وبنوا على هذا الاعتقاد أفكاراً وآراء روجوا لها بين الثوار ، فأذاعوا أن المركز الحربي للفرنسيين يتدهور سريعاً ، ومن ثم أوعز بونابرت إلى علماء الأزهر ببذل وساطتهم لوقف القتال ، وتلقف الثوار

هذا الرأى على أنه حقيقة لامراء فيها ، وغلب عليهم الحماس ، وأخذوا يتكلمون عن مسيرة ثورية كبرى ، تتحرك من داخل الجامع الأزهر إلى موقع الفرنسيين في القاهرة ، ويقوم الثوار بذبحهم جميعاً ، ضباطاً وجنوداً^(١).

لم تدم هذه الآمال طويلاً ، كان بونابرت قد علم بما لقيه أعضاء الديوان من الثوار ، وأدرك أنه لا مناص من استخدام أقصى وسائل العنف لمحقق الثورة . واستمر القتال يدور بين الفريقين بضراوة بالغة ، واكأن أخذت كفة الفرنسيين ترجع ، كلما مضت ساعات النهار ، إذ كانوا يمثلون جيشاً نظامياً ، مدرباً على أحدث أساليب القتال ، ومزوداً بالأسلحة والعتاد، بينما كان الثوار أخلاقطاً شتى من الرجال ، لئن جمعتهم وحدة العقيدة الدينية ، وغلبت عليهم الشجاعة والفدائية ، إلا أنهم كانت تعوزهم الأسلحة والذخائر ، وكان ينقصهم الشدريب والمران ، ولذلك تغلبت القوات الفرنسية على الثوار في معظم أحياء القاهرة ، وظلت الثورة مشتعلة في حي الأزهر ، وأرسل الجنرال بون الحكم العسكري لمنطقة القاهرة تقريراً حررياً إلى بونابرت ، يشير عليه باتخاذ وسائل عنيفة لقتضاء على الثوار المحتشدين في حي الأزهر ، واقترح عليه توجيه القوات لازحف على الجامع الأزهر من جميع الجهات التي تؤدي إليه ، وهذا هو التقرير الحربي ، وهو مؤرخ في أول برومیر من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٢ من أكتوبر) :

« إن الدوريات التي قامت في فجر اليوم باستطلاع الجامع الكبير (الأزهر) أبلغتني أن المدوع يسود هذا الحي ، ولكن دوريات لاحقة وصلت الآن ، أخبرتني عكس ذلك ، ومن الضروري ، أنها المواطن الجنرال ، اتخاذ إجراءات عنيفة ، لتشتيت الجموع المسلحة التي تجتمع في هذا الحي ، إني في انتظار

(1) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit. t. IV, p. 176.

أوامركم ، ومن رأي أن توجه قوات تزحف على هذا المسجد ، ولكن من الأفضل أن نحمل عليه — بواسطة تحركات مشتركة — من جميع النواحي إلى
تؤدي إلى الحامٌ^(١) :

بونابرت يأمر بقصف الجامع الأزهر بالمدفعية

أخذ بونابرت باقتراح الجنرال بون ، فأصدر في ذات اليوم إلى الجنرال برتبته رئيس أركان حرب الجيش أمراً عسكرياً^(١) تضمن سرعة اتخاذ أعنف الوسائل لسحق الثورة ، من قصف الجامع بالمدفعية ، وقتل الشوار ، وإحراق المنازل ، واحتلال الجامع بالجنود ، إلى غير ذلك من إجراءات ، وقد أبلغ رئيس أركان حرب الجيش هذا الأمر في الساعة الثانية بعد الظهر إلى الجنرال بون لتنفيذ فوراً ، وهذا هو نص الأمر :

« عهد إلى القائد العام بأن أبلغكم ، أيها المواطن القائد ، بأن تهاجوا بصفة عاجلة جداً حتى التاثير ، وأن تضربوا الجامع (الأزهر) بالمدافع ، وأن تضعوا المدافع في أفضل موقع ، ليكون الضرب أشد أثراً .

« أصدروا الأمر إلى الجنرال دومارتا بأن يفعل نفس الشيء ، وأن يستولى على مدخل الأزهر ، والمنازل الرئيسية التي تؤدي إلى الجامع ، وعليكم أن

(1) Les patrouilles qui ont paru à la pointe du jour à la grande mosquée m'avaient fait le rapport que la tranquillité régnait dans ce quartier; mais des patrouilles postérieures qui viennent de rentrer assurent le contraire..... Il serait essentiel, Citoyen Général, de faire des dispositions rigoureuses pour dissiper les rassemblements armés qui se forment dans ce quartier; mandez - moi vos ordres, j'aurais fait marcher des forces sur cette mosquée, mais il sera mieux de s'y porter par des mouvements combinés sur les différents points qui y aboutissent.....”.

La Jonquiére, ouvr. cit., t. III. p. 281, note 2.

- ١٢٧ -

تقتسموا الجامع الأزهر بكتائبكم تحت حماية المدفعية ، وعليكم أن تأمروا
الجنرال دومارتا بأن يفعل نفس الشيء في نفس اللحظة .

« إن القائد العام يأمر بقتل كل من تلقونه مسلحًا في الشوارع ، وأن
يكون القتل بحد السنن .

« وعليكم أن تعلموا الأهالي بأن كل منزل تلقى منه أحجار في الشارع
يمحرق فوراً ، وعليكم أن تعفوا عن بقية المنازل .

« وعليكم أن تقتلوا جميع من في الجامع ، وأن تصبوا فيه حرساً قوياً ،
وعليكم أن تختتموا إلزامة المنازل في أثناء الليل .

« وعليكم أن تصدروا أمراً إلى الجنرال دومارتا بأن يضع ، في أثناء
الليل وفي فجر الغد ، على المرتفعات التي يحتلها قوات رادعة .

« ولما كانت الساعة الآن الثانية ، فليس أمامكم لحظة واحدة تضيئونها .»

Quartier général, 1^{er} brumaire an VII, 2 heures.
Au Général Bon.

Le Général en chef me charge de vous dire, Citoyen général,
qu'il est extrêmement urgent d'attaquer le quartier insurgé ; faites
bombarder la mosquée ; placez les obusiers dans l'endroit le plus
favorable pour pouvoir faire le plus d'effet.

Faites passer l'ordre au général Dommartin de faire la même
chose et de s'emparer de la porte et des principales maisons qui
conduisent à la mosquée. Sous la protection de ce feu, vous ferez
entrer vos bataillons. Vous ordonnerez au général Dommartin de
faire la même chose au même moment.

Le Général en chef ordonne que vous fassiez passer au fil de
l'épée tous ceux que l'on rencontrera dans les rues, armés.

Vouz ferez publier que toutes les maisons qui jettent dans les
rues des pierres seront sur - le - champ brûlées, et pardon aux autres.

Exterminez tout ce qui sera dans la mosquée et établissez de fortes patrouilles. Pendant la nuit, exigez que toutes les maisons éclairent.

Vous ordonnerez au général Dommartin que, pendant la nuit et demain à la pointe du jour, il y ait sur les hauteurs qu'il occupe des forces imposantes.

Comme il est deux heures, il n'y a pas un instant à perdre.”^(١)

قصف الأزهر بالمدفعية

ونفذ هذا الأمر الحربي تنفيذًا صارمًا، وأخذت مدفعية القلعة ومدفعية المقطم، وسائر بطاريات المدفعية المقاومة على المرتفعات تتصف حي الأزهر قصفاً مركزاً متواصلاً^(٢). ورغبة في التكبيل بالثوار، بحيث يأتهم الموت من كل مكان، ولا يكون أمامهم طريق للنجاة بأنفسهم من الموت المحقق، احتلت كنائس من الجنود السرور والطرق المؤدية إلى الجامع، وبذلك تحصر القوات الفرنسية الثوار في الأزهر بين نارين: قذائف المدفعية، وطلقات البنادق^(٣). فإذا نجى الثوار من قذائف المدفعية، فإنهم ملاقو الموت من طلقات بنادق الجنود المشاة، وسرعان ما أصبح الجامع الأزهر وما حوله، وشارع الغورية، وشارع الصنادية، أهدافاً لمدفعية الفرنسيين، وأحدثت القذائف ثقباً في جدران المسجد، حتى أوشك أن يتداوى من شدة الضرب، ولم يكن يشاهد في منطقة الأزهر إلا مبانٌ محترقة، دورٌ منهارة، وقد دفنت عائلات

(١) الوثيقة رقم ٣٥٢٤ في الجزء الخامس من

Correspondance de Napoléon.

(٢) يقول ريبو إن قصف المدفعية للأزهر ومنطقته بدأ في الساعة الرابعة من بعد الظهر.

انظر:

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 177.

(٣) Loc. cit.

١٤٩ -

بأكملها تحت الأنفاس ، وكان يسمع لأفرادها أذن موجع ، وأصوات خافتة
 تنبئ من تحت الأنفاس^(١) .

ويقول الجبرى عن قصف المدفعية للأزهر : « إن الفرنسيين ضربوا
 بالمدافع والبنادق على البيوت والحرارات ، وتمموا بالخصوص الجامع الأزهر
 وجروا عليه المدفع والقنبلة ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ،
 كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا
 في عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خفى الأنطاف ، نحن
 مما نخاف ، وهردوا من كل سوق ، ودخلوا فى الشقوق ، وتتابع الرمى من
 القلعة والكمان حتى تزعمت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ،
 وسقطت فى بعض القصور ، ونزلت فى البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان
 بصوتها المائل^(٤) » .

نفاد الذخيرة من الثوار

وأمام هذا القصف المركزى ، تزعزعت جبهة الثوار فى منطقة الأزهر ،
 وأيقنوا أنه لاأمل لهم فى مواصلة النضال ، وقد نفذت منهم الذخيرة ، وازداد
 عدد قتلاهم زيادة رهيبة ، فطلب البقية الباقية منهم التسليم . ويقرر الجبرى
 بصرىح العبارة أن نفاد الذخيرة من الثوار جعلهم على طلب التسليم ، وكان قد
 مضى ما يقرب من ثلاثة ساعات بعد أن سبى الليل . يقول الجبرى فى هذا

(١) Loc. cit.

(٢) مفردها بنبة ، ومعناها فبلة .

(٣) القنبلة ، و تكتب أيضاً قنابر ، بمعنى القنابل .

(٤) الجبرى ، مصدر سابق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٥) هذا الموعد الذى حدده الجبرى يقرب من الموعد الذى ذكره مارتن Martin فى أن
 الضرب الذى فى الساعة الثامنة مساء ، وإذا علمنا أن غروب الشمس فى العشرين الأول من شهر
 أكتوبر يكون فى حوالي الساعة الخامسة والنصف ، كان معنى ذلك أن توقف القتال قد تم فى حوالي
 الساعة الثامنة والنصف مساء ، أما ريبو Reybaud فيقول إن الضرب قد توقف فى الساعة
 السادسة مساء ، وبعنوان زاخدا بالرأى الأول .

الصلد : « وأما أهل الحسينية ، والعطوف البرانية ، فانهم لم يزالوا مستمرین ، وعلى الرمى والقتال ملازمین ، ولكن خانهم المقصود ، وفرغ منهم البارود ، والإفرنج أخنوه بالرمي المتتابع بالقناib والمدافع ، إلى أن مضى من الليل نحو ثلاثة ساعات ، وفرغت من عندهم الأدوات ، فعجزوا عن ذلك ،
وانصر فوا »^(١)

فظائع الفرنسيين داخل الأزهر

وعندئذ تقدم الجنود الفرنسيون إلى موقع المدارس ، ورفعوها من
الدروب والشوارع ، والأزقة المؤدية إلى الجامع الأزهر ، واقتحوه مشاة
وفرساناً ، اقتحام الضوارى ، وأعملوا القتل في بقایا الشوار الذين كانوا
معتصمين داخل الحامع .

وأتسمت أعمال الجنود بطبعين : هما الانتقام ، ثم النهب والسلب ؛ أما الانتقام ، ففضلاً عن المذلة التي ارتكبوها داخل الأزهر ، ربط الجنود خيولهم في قبلة المسجد ، وأخذوا يبولون ، ويقضون حاجتهم في شقى أرجاء الجامع ، وألقوا بالمساحف على الأرض ، وداسوا عليها بأحديثهم . أما أعمال النهب والسلب فقد كسروا خزائن الطلبة ، ونهبوا ما وجدوه فيها من الأموال والودائع ، ذات القيمة المادية الكبيرة . وكان سبب وجود هذه الثروات في الجامع الأزهر اعتقاد المصريين أن الفرنسيين لا يجرؤون على دخوله ، فتحولوا إليه ما غلامنه وخف حمله ، وتركوا هذه الثروات ودائع في خزائن الطلبة ، فوقع غنیمة باردة في أيدي الجنود . وكانوا في شراهم للنهب ينشرون الكتب التي في خزائن الطلبة ، يخدوهم الأمل في أن يجدوا شيئاً ذا قيمة خلف غلاف الكتاب ، ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع

(۱) اخباری، مصلدر سبق ذکر، ج ۳، ص ۲۶.

الأزهر إن اليهود انهزوا الفرصة ، فدخلوا الأزهر في أثر الخنود ، واستولوا على مصاحف نفيسة وكتب قيمة . ولم يرع الجنود حرمة الجامع ، فقضوا لياتهم يشربون الشراب . ويصف الحبرى حزيناً المشهد الدامى في تاريخ الأزهر ، وجاءت صياغته لهذا المشهد فى أسلوب مسجع ، أخذ عليه وقته وتفكيره ، لأن المسجع فى أسلوب الحبرى قليل نسبياً : « وبعد هجعة من الليل ، دخل الإفرنج المدينة كالسيل ، ومرروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين ، أو جند إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المقايس ، ودخل طائفة من باب البرقية ، ومشوا إلى الغورية ، وскروا ورجعوا ، وترددوا

(١) عبد الله الشرقاوى : تحفة الناذرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلطانين . القاهرة ، مطبعة يولاق ١٢٨٦ ، ١٨٦٩ - ١٨٧٠) ص ٥٥ .

وتوجد في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة عدة طبعات من هذا الكتاب، نذكر منها :

^١ طبعة بولاق السابق الإشارة إليها ، والتي تستقى منها المسادة العلمية ، ونشير إليها

في هوامش هذه الدراسة ، وتقع في ستين صفحة ، ورقها ١٠٥٢ تاريخ .

ب طبعة مصطفى وهبة ١٢٨١ (١٨٦٤ - ١٨٦٥ م) ، وتقع في صفحة ، وتوجد
عدة نسخ من هذه الطبعة تحمل أرقام ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٢٩١٠ ، ٢٩١٤ ، ٢٩١٥ ،
٢٩١٦ تاریخ .

جـ المطبـة العـلـمـيـة ١٣٠٤ (١٨٨٦ - ١٨٨٧) ، وـهـذـه الـطـبـعـة تـقـع فـي جـزـئـيـن ،
فـي مجلـدـيـن برـقـم ٢٠٥٢ تـارـيـخ .

د طبعة على هامش كتاب «أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أمراء الدول» (تأليف محمد عبد المعطى بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد الغنى بن علي الإسحاق المنوفى ، بأرقام ٤٧٢ ، ٧٣١ ، ٤٧٣ ، ٧٠٩ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧) ، طبعة سنة ١٤٠٠ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٣ م).

(٢) كان هذا الباب خارج حارة البرقية التي احتلتها جماعة من أهل برقة ، ومكانها الآن الدراسة ، ويقول الأستاذ الدكتور عبد الرحمن ذكي إنه كان هناك بابان يعرفان بهذا الاسم ، في سور القناطر الشرقية : الباب الأول أنشأه جوهر الصقلي سنة ٩٧٠ (٥٥٩) ، وقد عرف باسم باب الغريب أو بوابة الحلة ، لوقوعه شرق جامع الغريب ، وقد هدم هذا الباب سنة ١٩٣٦ ، عند إنشاء مبانى الكليات الأزهرية الثلاث ، والباب الثانى أنشأه صلاح الدين سنة ١١٨٤ (٥٥٦٩) حينما أراد توسيع القاهرة من الجهة الشرقية ، وهو يقع على بعد ١٢٠ متراً من الجهة الشرقية لمباني جامعة الأزهر بالدراسة .

الظاهر :

عل مبارك : الخطط التوفيقية ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦ .
دكتور عبد الرحمن زكي : موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

وما هجعوا ، وعلموا باليقين أن لادفع لهم ولا يمكن ، وتراسوا لرسالة ، ركباناً ورجالاً ، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقباباته ، واعثروا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسمارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدهوا من المتساع والأواني ، والقصباع والودائع ، والمخبات بالدوالib والخزانات ، ودنسوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجائهم ونعلهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروها أوانية^(١) ، وكسروها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجوه».

كان ذلك في ليلة الثلاثاء ٢٢ - ٢٣ من أكتوبر (١٣-١٢ من جمادى الأولى ١٢١٣^(٢)) ، وباتت القاهرة في هذه الليلة الدهماء ، في بحة من الظلام ، وبحة من الفرع .

فظائع لا يستطيع تبريرها

والباحث المحايد لا يستطيع تبرير أعمال الانتقام التي أقدم عليها الفرنسيون في الجامع الأزهر . قد يقول البعض إن الجيش الفرنسي كان في صدد إخماد ثورة عارمة ، قد يعتقد لهبها إلى سائر جهات القطر إذا استطال أمرها ، مما كان يتهدد الوجود الفرنسي في مصر ، فلا تثريب على الجيش إذا استخدم أقصى وسائل العنف في ضرب مركز الثورة ، وهو الجامع الأزهر : وهذا القول يبلو في ظاهره سلبياً ومنطبقاً ، ولكنه في حقيقة الأمر تبرير واه يتهاوى

(١) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٨٧ .

ويشير إلى هباء أمام النقد الموضوعي . إن المصاحف، ليست أهدافاً عسكرية ، حتى يلي بها الجنود على الأرض ، ويدوسوا عليها دوساً بأحذيةهم ، وكذلك الأعمال المنكرة التي ارتكبها الفرنسيون في حماقة داخل الجامع ، دون اكتراث لحرمة الدينية ، ودون مراعاة لمكانته في نفوذه المساهمين . وإن احتلال الجامع الأزهر لم يكن يتطلب ارتكاب مثل هذه المنكرات والحماقات ، في أعقاب احتلال الجنود له :

وما هو جدير بالذكر أن بونابرت - في تقريره الذي رفعه إلى حكومة السديركتوار - تجنب أن يشير من قريب أو من بعيد إلى الأفعال المنكرة التي ارتكبها الجنود داخل الجامع الأزهر ، واكتفى بأن قال : « وبعد أقل من عشرين دقيقة من قصف المدفعية رفعت المباريس ، وأخلى حي الأزهر ، وأصبح المسجد في قبضة قواتنا ، وعاد الملايو تماماً إلى حاليه السابقة »^(١) ، وبونابرت في هذا التقرير يعمد إلى التهoin من شأن الثورة ، ويختزل المدة التي استمرت فيها المدفعية تتصف الجامع الأزهر ومنطقته إلى أقل من عشرين دقيقة ، مع أنها استطالت عدة ساعات ، ثم هو يغفل تماماً فظائع الجنود في داخل الجامع الأزهر ، وهذا الإغفال المتعمد له مغزاه ، فهو لا يريد أن يسجل على نفسه تناقضاً في سياساته الإسلامية ، ومن ثم أسقط من تقريره الأفعال المنكرة التي ارتكبها الجنود في الجامع الأزهر ، في الوقت الذي حرص على أن يعني في تقريره الجنرال ديوب حاكم القاهرة العسكري ، والكولونيل سلوكوسيكي ياوره ، وأن يذكر مناقبهما .

1) "En moins de vingt minutes de bombardement les barricades furent levées, le quartier évacué, la mosquée entre les mains de nos troupes, et la tranquillité fut parfaitement rétablie."

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Oriente.etc., ouvr. cit., t. I, pp. 369-371.

لم ينس المصريون ما وقع للجامع الأزهر على يد الفرنسيين في ثورة القاهرة . وكانت هذه الأفعال السبب الأهم في القطيعة التي وقعت بين الشعب المصري وبين الفرنسيين ، على الرغم من أن بونابرت مضى في سياساته الإسلامية بعد إخماد ثورة القاهرة ، ويقول أحد الأساتذة : « وأخيراً تم (الانفصال) بين الفريقين ، لما دخل الفرنسيون الأزهر ، موطن احترامهم ومهبط إيمانهم ، تخليوهم ، وعاثوا فيه فساداً . وعندما تحقق المصريون أن هؤلاء الغرباء (١) شعب آخر من طراز آخر ، غير المالك أو العثمانيين » . والحق أن الشعب المصري كان يعلم عملاً يقيناً قبل اندلاع الثورة أن الفرنسيين كانوا يختلعون عنه ديننا ولغة وثقافة ، وعادات وتقالييد ، ثم جاءت أفعال الجنود المنكرة في الأزهر ، فجسلت هذه الفروق في أذهان الشعب تجسيداً .

بونابرت يأمر بهدم الأزهر ليلاً إذا أمكن

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي . القاهرة ، ١٩٣٨ ص ٢١ .

— ١٣٥ —

بل أصدر أمراً في يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر بهدم الجامع الأزهر في أثناء الليل وذلك بتحطيم بعض الأعمدة فيه إذا كان ذلك ممكناً، وتضمن هذا الأمر أيضاً إنشاء نقطة مراقبة قوية في الجامع، وتنظيم دوريات في الحي، وهدم المداريس والأبواب التي تسد الشوارع، حتى تكون المواصلات مفتوحة بين الأزهر والقلعة، وسائر مراكز تجمعات الجيش الفرنسي .^(١)

ومن الصعب تبرير هذا الأمر الحربي الذي أصدره بونابرت بهدم الجامع الأزهر، وهذا الأمر مسجل في المجموعة الرئيسية التي حوت أوراق هذا القائد، ولو لا ذلك ل كانت الشكوك تنتاب الباحث حول حقيقة هذا الأمر الحربي . وواضح أنه لم يكن هناك ما يتطلب هدم الجامع ، بعد أن احتله الجيش ، ورابط فيه الجنود ، وانهكوا حرماهه . إن التفسير الذي يمكن أن يساق في هذا الصدد هو أن بونابرت أدرك من ثورة أكتوبر ، وأكثر من أي وقت مضى ، الدور البارز الذي كان يضطلع به الأزهر في الحياة المصرية العامة السياسية والدينية ، وأدرك أيضاً من ثورة أكتوبر التضحيات التي جاد بها الأزهريون في سبيل تحرير الشعب المصري من الحكم المسيحي الأوروبي، وعرف من هذه الثورة كذلك قدرة الأزهريين على تحريرك الخاهم . ثورياً ودينياً فكان ، وهو في ذروة غضبه ، أن استقررأه على أنه لا مل يرتحي في إيجاد

(1) Quartier général au Caire, 2 brumaire au VII.
An Général Bon.

Ordre au général Bon de faire jeter à terre, pendant la nuit, la grande mosquée, en brisant quelques colonnes, si cela est possible; de tenir un fort poste dans la mosquée, et de lui faire faire des patrouilles dans le quartier; de maintenir libre la communication à cet effet, de jeter à terre les barrières, portes, etc qui obstrueraient les rues. Il aura soin surtout de maintenir libre sa communication avec le Général Veaux.

النطر :

وثيقة رقم ٣٥٢٦ ، مؤرخة في ٢ من شهر برومیر من السنة السابعة من النقويم الجمهوري (٢٣ من شهر أكتوبر ١٧٩٨) فـ Correspondance de Napoléon, t. V .

— ١٣٦ —

علاقات سلمية مع الشعب المصرى ، إلا إذا قضى على الأزهر مؤئل المعارضة للحكم الفرنسي .

بُقى أن نذكر أن هدم الأزهر لم يتم ، وبقي صرّحه قائماً شامخاً ، يطأول الزمن وجوداً . والتزمت المصادر الفرنسية والערבية الصمت إزاء هذا الأمر الحرجي الذي أصدره بونابرت . ولعل بونابرت قد راجع موقفه ، بعد أن هدأت هواجسه قليلاً ، وجدت عوامل خفت إلى حد ما فورة غضبه ، وكان من بين هذه العوامل سعي كبار علماء الأزهر أعضاء الديوان إلى مقابلته في مقر القيادة العامة للجيشين الفرنسي .

مقابلة بونابرت لمشايخ الأزهر أعضاء الديوان

وبعد أن سيطر الفرنسيون على الموقف في الأزهر ومنطقته ، استقبل بونابرت المشايخ أعضاء الديوان^(١) ، وألقى فيهم خطبة طويلة ، جمع فيها بين التقرير واللوم ، وإعلان الصفح عن سكان القاهرة ، وكان مما جاء في كلامته أنه علم أن موقف معظم المشايخ كان يتسم بالضعف ، ثم قال : إنه يجب أن يعتقد أن أعضاء الديوان لم يشاركوا مشاركة فعالة في إشعال الثورة ، وكان التعبير الحرجي الذي جاء على لسانه : لم يكن أحد منكم مجرماً ، ثم مضى يقول لهم إن النبي – صلوات الله وسلامه عليه – كان يمتحن مقتاً شديداً لإثارة الفتنة ونكران الجميل . وأكد لهم أنه لا يريد أن يمر يوم واحد على مدينة القاهرة دون أن تقام في مساجدها شعائر الصلاة كالمعتاد . وقال لهم إن الجيش الفرنسي قد استولى على الجامع الأزهر ، وإن الدماء جرت فيه

(١) يقول المبرق إن هذه المقابلة تمت يوم الأربعاء ، وكان يوافق ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨

(2) “Je sais que beaucoup de vous ont été faibles, mais j'aime à croire qu'aucun n'est criminel.”

أنهاراً ، وطاب منهم أن يذهبوا إلى الجامع ويعملوا على تنظيفه . وأعلن أنه يرد لهم المصاحف التي استولى عليها جنود الجيش ، وأنه لا يبغى الانتقام من سكان القاهرة ، وحسبه العدد الكبير من الثوار الذين حصل لهم نيران الفرنسيين . وأخيراً طلب بونابرت من أعضاء الديوان أن ينقلوا إلى أهل القاهرة أنه لا يزال رعوفاً بهم ، شفوقاً عليهم ، وأنه عفا عنهم ، وأن محدث كان في الكتاب مسطوراً . واستلم المشايخ المصاحف لإعادتها إلى الجامع الأزهر ، هل كل شيخ بمجموعة منها ، وحرصن كل شيخ على تقبيل كل مصحف يحمله . وذهب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، ودخلته معهم الجماهير ، ورفعوا منه الحش . وبعد أن تم تنظيفه صعد الشيخ عبد الله الشرقاوى المنير خطاب في الجماهير ، ونقل إليهم تصريحات بونابرت .

ويهمنا من كلام بونابرت ثلاثة نقاط ، هي :

(١) إن بونابرت لم يكن مطمئناً إلى إخلاص علماء الأزهر أعضاء الديوان للفرنسيين .

(٢) إن بونابرت كان لا يزال متancockاً بسياساته الإسلامية ، على الرغم من قيام سكان القاهرة على الفرنسيين ، وكان من مظاهر هذا التشكك إعلان حرصه على الاستمرار في إقامة الصلاة في المساجد ، وإعادة المصاحف التي نهبتها جيش إلى الجامع الأزهر .

(٣) إن التصريح الذي أدلّ به وهو أن الجيش الفرنسي قد استولى على الجامع الأزهر - وهي حقيقة كان يعلمها عمّا يقينياً علماء الأزهر - يدل على اعتراف بونابرت بأهمية الاستيلاء على الأزهر ، باعتباره معة كل الثورة ،

(١) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 255-256.

وأنه كان هدفاً عسكرياً رئيسياً من بين جميع العمليات الحربية التي قام بها الجيش للقضاء على الثورة.

وَهُمْ نَارٌ مِّنْ رُوَايَةِ الْحَرْتَقِيِّ أَرْبَعُ نَقَاطٍ هَامَةٌ هِيَ :

(١) إن نيسة بونابرت كانت مبغيتة على الانتقام من المحرضين على الثورة، إذ طلب من المشايخ موافاته بأسماء «المتعصمين» الذين أثاروا العامة.

(٢) إن المشايخ رفضوا الإذلاء بأسماء المحرّفين:

(٣) إن بونابرت استجاب لاتخاذ المشايخ بإخراج الجنود من الأزهر :
استجابة فورية ، وصدرت الأوامر بإخراج الجنود في الحال ..

(٤) استيقن الفرنسيون قوة من الجنود للطوارئ ، والمحافظة على الأمن والنظام في منطقة الأزهر ، وكان قوام هذه القوة سبعين فرداً ،

(١) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

رواية المعلم نقولا ترك

ويذكر المعلم نقولا ترك رواية تتعارض مع ما جاء في كل من مذكرات بونابرت و يوميات الخبرى ، فهو يقول إن بونابرت رفض وساطة المشايخ في إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين ، فخرجوا من عنده وأرسلوا له الشيخ محمد الجوهري ، وهو أحد كبار العلماء ، ويصفه بأنه أمضى حياته معتكفاً منتصراً إلى عبادة الله ، وأنه لم يقابل في حياته حاكماً ، ولم يأخذ رشوة ، أو يقبل هدية من أى حاكم ، وكان الأمراء المالكين أيام سلطوتهم يخطبون وده ، ويائسون منه الدعاء . فذهب هذا الشيخ الوقور إلى بونابرت وقال له : إنه لم يتمس في حياته مقابلة حاكم ، سواء كان عادلاً أو طاغية ، ولكنه جاء إلى بونابرت متسللاً إليه كي يأمر بإخراج الجنود من الجامع الأزهر ، وقال إذا استجابت بونابرت لرجاء الشيخ ، فإن الشيخ سيقضي حياته شاكراً له هذه المنة ، داعياً له بال توفيق . « فانشرح منه أمير الجيوش ، وأمر برفع العسكرية من الأزهر ، وخامس يوم أطلق المنادي بالأمن والأمان » .

ومن الصعب الأخذ برواية نقولا ترك عن وساطة الشيخ الجوهري ، فقد كانت تربط هذا الشيخ الوقور بالخبرى أوثق الصلات العلمية والاجتماعية . وقد ترجم له الخبرى في وفيات سنة ١٢١٥ (٢٥ مايو ١٨٠٠ - ١٣ مايو ١٨٠١) ترجمة صحفية ، وذكر مناقبه ، وأشار بأستاذيته الشامخة ، وعاو مرکزه ، ولكنه لم يشر - لا من قريب ولا من بعيد - إلى وساطته لدى بونابرت من أجل إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين ، وإعادة فتح أبوابه للعلماء والمجاورين . ولو كانت هذه الواقعة صحيحة ، لما تردد الخبرى في ذكرها بل وفي إبرازها إبرازاً قوياً ، وبخاصة لأن الخبرى سهل لاشيخ الجوهري

(١) مذكرات المعلم نقولا ترك ، نشر الأستاذ ثنيت ، ص ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) الخبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١٦٤ - ١٦٦ .

مواقف هامة ومشروقة ، تتصل بمشيخة الأزهر . إن كل ما سطره الجبرقى عن حياة الشيخ الجوهرى إبان الحكم الفرنسي لا يتعدى هذه العبارات : « ولم يزل وافر الحرمة ، معتقداً عند الخاص والعام ، حتى حضر الفرنساوية وانحنت الأمور ، وشارك الناس في تلقى البلاء ، وذهب ما كان له بأيدي التجار ، ونهب بيته وكتبه التي جمعها ، وترامت عليه المهموم والأمراض ، وحصل له اختلاط ، ولم يزل حتى توفى يوم الأحد حادى عشرى شهراً القعدة سنة تاریخه ، بخارۃ برجوان ، وصلی عليه بالأزهر في مشهد حاصل »^(١) :

وهناك واقعة تضعف رواية المعلم نقولا ترك ، وتشير حوطها مزيداً من الشكوك ، فقد أذاع علماء الأزهر أعضاء الديوان في ذات اليوم الذى قابلوا فيه بونابرت بياناً إلى سكان القاهرة ، قرروا فيه أن بونابرت استجاب لشفاعتهم ، وطلبوها من السكان الإخلاص إلى السكينة ، تجنبأ لسفاته مزيد من الدماء ، وحفظاً لعائلاتهم ، وإبقاء على دينهم ، كما نصحتوا أهل القاهرة بالرضاء بأمر الله « فإن الله سبحانه وتعالى يوئى ملكه من يشاء ، ويحكم ما يريد والدين النصيحة والسلام »^(٢) . ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا البيان قد كتب بإيحاء من بونابرت ، شأن كل البيانات التي أذاعها علماء الأزهر أعضاء الديوان ، سواء على عهد بونابرت ، أو كليبر ، أو مينو .

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ هذا المنشور هو ٤ من جمادى الأول (١٢١٣) (الأربعاء ٢٤ من أكتوبر) ، خلافاً لما يذكره الجبرقى من أن تاريخه أول جمادى الآخرة ، وقد أثبت الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بالأدلة المسادية القاطمة خطأ الجبرق فى ذكر تاريخ هذا المنشور . انظر : عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٨ .
وانظر أيضاً بخصوص ما أثير حول تاريخ هذا المنشور :

La Jonquière, ouvr. cit., t. III, p. 285, note I.

(٣) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

- ١٤١ -

ويلاحظ أن بعض الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث ، قد أخذوا برواية المعلم نقولا ترك أخذًا حرفيًّا ، دون أن ينافشوا من جوانبها المختلفة ، وإن مجرد ترددهم لوساطة الشيخ محمد الجوهري لن يضفي قوة على هذه الواقعة ، التي تظل ضعيفة ، ما لم تقم أسانيد قوية تؤيدها .

ومضى يوم الأربعاء ٢٤ من أكتوبر بخلاء الجنود الفرنسيين عن الجامع الأزهر ، وتنظيمه ، وفتح أبوابه لعلمائه ومحاربيه ، يواصلون في رحابه رسالتهم العلمية والدينية نشرًا وتعليمًا ، ووفد سائر الأهالي إلى جامعهم العتيق يوُدُون فيه شعائر الصلاة . وكانت الفرحة تغمر الجميع باستعادة الأزهر حياته العلمية والدينية ، ودوره القيادي في حياة الأمة .

أما الفرنسيون فقد أمضوا هذا اليوم في إزالة الأحجار التي استخدمتها الثوار في إقامة المتاريس . يقول الخبرني : « ووقف جماعة من الفرنسيين ، ونظفوا مراكز المتاريس ، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المترآكة ، ووضعوها في ناحية ، لتصير طرق المرور خالية^(١) ». واضح من عبارة الخبرني أن الفرنسيين استهدفو من تنظيف الشوارع أغراضًا عسكرية بختة لضمان حرية وسرعة تحرك وحدات الجيش في الشوارع المسوية إلى الجامع الأزهر ، إذا عاد الشعب إلى امتشاق الحسام في وجههم ، وبخاصة لأن الفرنسيين كانوا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فقد أعلن بونابرت العفو عن سكان القاهرة ، وأذاع علماء الأزهر على سكان العاصمة البيان

(١) المصدر السابق ص ٢٧ .

الذى أشرنا إليه^(١) ، وقد استهلوه بهذه العبارة « نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة » ، وقرروا فيه أن الفتنة قد اخسست وسكنت ، لأن بونابرت « رجل كامل العقل ، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة إلى الفقراء والمساكين ، ولو لاه وكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ، ونهبت جميع الأموال ، وقتلوا كامل أهل مصر ». وقد دلت الأحداث التالية على أن بونابرت كان في ذات الوقت يضمم الانتقام الدرريع من سكان القاهرة ومن علماء الأزهر بعد أن يخلد الجميع إلى السكينة ؛

إسراف الفرنسيين في الانتقام من سكان القاهرة

بعد أن نكل الفرنسيون بالثوار في مذبحه رهيبة — على حد تعبير الجنرال برتبه رئيس أركان حرب الجيش الفرنسي — ، وبعد أن أعاد بونابرت العفو عن سكان القاهرة ، كان من المتوقع أن تعامل السلطات الفرنسية على إيجاد علاقات ودية ، أو شبه ودية ، مع أفراد الشعب المصري ، تصفيدياً بجرائمهم. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل على العكس أسرف الفرنسيون في الانتقام من سكان القاهرة وضواحيها ، واتسمت أعمالهم بطابع العنف البالغ ، والرغبة في التكبيل والتشفى إلى أبعد الحدود ؛

(١) كان هذا البيان موجهاً إلى سكان القاهرة فقط ، ملحاً^(٢) لبيان ثان أذاعه علماء الأزهر ، بتاريخ ٨ من جمادى الآخرة ١٢١٣ (١٧٩٨)، وكان موجهاً إلى الشعب المصرى ، أو كما جاء في البيان : « نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة : نخبركم يا أهل المدائن والأقصاد من المؤمنين ، وياسكان الآرياف من العربان والفلاحين ، أن ».

(٢) مصر المحروسة ، يقصد بها مدينة القاهرة .

(3) “Nous avons fait un massacre terrible de ces scélérats” من خطاب أرسله الجنرال برتبه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي إلى الجنرال دجوا Dugua في ٢٣ من أكتوبر من ١٧٩٨ .

انظر :

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 286.

١٤٣ -

فبعد أن احتل الفرنسيون الجامع الأزهر ، انتشر الجنود في المناطق المجاورة له ، يقتربون إلى البيوت ، وينهبونها بمحنة البحث عن الأسلحة ، ويعرضون للمارأة ، ويصادرون ما يجدونه من مال ، ويقتلون من يبدى أية مقاومة أو اعتراض ، واضطرب سكان حي الأزهر والمناطق القريبة منه إلى مغادرة بيوتهم : والجبرى - كأحد سكان شارع الصنادية القريب من الجامع الأزهر - يبدى أسفه العميق على ما حل بهذه المنطقة على أيدي الفرنسيين ، ويصفها بأنها أشرف البقاع ، فيقول : « وانهكت حرمة تلك البقعة ، بعد أن كانت أشرف البقاع ، ويرغب الناس في سكناها ، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع ، والفرنساوية لا يمرون بها إلا في النادر ، ويختربونها عن غيرها في الباطن والظاهر ، فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع ، والخفض على غير القياس المرفوع ، ثم ترددوا في الأسواق ، ووقفوا صحفاً ، مئيناً وألوفاً ، فإن من بهم أحد فتشوه ، وأنخدعوا ما معه ، وربما قتلوا »^(١) .

وأصدر بونابرت أمراً في ٢٣ من أكتوبر إلى الجنرال برتبة رئيس أركان حرب الجيش بأن يطلب من الحكم العسكري لمدينة القاهرة قطع رuous جميع المعتقلين الذين قبض عليهم ومعهم أسلحة ، وأن تأتي جثثهم بدون رuous في النيل ، في المنطقة الواقعة بين بولاق وقصر القديمة^(٢) . ويلاحظ أن الفرنسيين كانوا يحرضون على إلقاء الجثث بدون رuous في النيل ، حتى يتعمد الاستدلال على شخصية أصحابها ، إذا طفت الجثث في يوم ما على سطح النيل.

(١) الجبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٢) الوثيقة رقم ٣٥٢٧ ، مؤرخة في الثاني من برومیر السنة السابعة من التقويم الجمهورى

(٢٣ من أكتوبر ١٧٩٨) .

Correspondance de Napoléon t. V.

وانظر أيضاً

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 286.

وقرر بونابرت في مذكرةه أن السلطات الفرنسية ألقت القبض على ثمانين شخصاً ، قال بونابرت عنهم ل منهم من بين مائة عضو كانوا يشكرون مجلس الثورة ، وقد تم القبض عليهم ليلاً ، وفي الساعة السادسة من صباح يوم ٢٤ أكتوبر حكمت محكمة عسكرية بإعدامهم جميعاً ، تأسيساً على أنهم أعضاء في مجلس الثورة . ومن المعروف أن أحكام الإعدام العسكرية التي تصدر في ملابسات ثورة تنفذ فوراً ، ومعنى ذلك إن إعدام الثمانين شخصاً قد تم في ٢٤ أكتوبر ، وهو اليوم الذي تمت فيه مقاومة علماء الأزهر أعضاء الديوان بونابرت ، ياتمسمون منه إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين .

إعدام علماء الأزهر بطريقة وحشية

ومضى الفرنسيون في سياسة القتل الجماعي . ألقوا القبض على خمسة من علماء الأزهر ^(١) ، واعتقلوهم في دار البكرى . وفي منتصف ليلة الأحد ٣ - ٤ نوفمبر جاءت قوة من الجنود الفرنسيين إلى دار البكرى ، وطاب رئيس

(1) Napoléon I^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 253-254.

(٢) كان هؤلاء العلماء :

الشيخ سليمان الجوسق ، شيخ طائفة المكفرفين .
الشيخ أحمد الشرقاوى .
الشيخ عبد الوهاب الشبراوى .
الشيخ يوسف المصيلحي .
الشيخ أماعيل البراوى .

واستطاع السيد بدر القدسى الإفلات من السلطات الفرنسية وسافر إلى الشام ، وكان هذا الرجل قد توجه على رأس حشود من الموارى إلى دار قاضى القضاة فى صباح اليوم الأول للثورة ، وقبضت السلطات الفرنسية أيضًا على إبراهيم أفندي كاتب جمرك البهار ، وكانت التهم الموجهة إليه كما يقول الخبرت : « إنه جسح له جمماً من الشطار ، وأعطاهما الأسلحة والمساق ، وكان عنده عدة من الماليلك المخفيين ، والرجال المدودين » . ج ٣ ، ص ٢٨ ، وقد جبس في بيت الأغا ، ثم أصدر بونابرت أمرًا بإطلاق سراحه ، ويلوح أن السبب في صدور المفو عنه كان حاجة الفرنسيين إلى خبرته وعلومناه عن منابع الإيراد الحكومى ، إذ كان بوسيلج من بين الذين لشفعوا من أجله لدى بونابرت .

القوة مراقبة هؤلاء العلماء إلى بونابرت بمحجة أنه يريد التحدث معهـــ ،
وما كادوا يغادرون الدار حتى وجدوا حشدـــاً كثـــراً من الجنود قبضوا عليهم
وذهبوا بهـــم إلى دار الجنرال بون حاكم القاهرة العسكريـــ ، وكانت دارهـــ
في درب الحمايمـــ . ويصف الجنـــر المصير النـــعس الذى لقيـــهـــ أولئك العـــلماءـــ
مشايخ الأزهرـــ فيقولـــ : «فـــلـــمـــا وصلـــوا بهـــمـــ هـــنـــاكـــ عـــروـــهـــمـــ منـــ ثـــيـــاـــبـــهـــ ،ـــ وـــصـــعـــدـــواـــ بهـــمـــ إـــلـــىـــ القـــلـــعـــةـــ ،ـــ فـــســـجـــنـــوـــهـــمـــ إـــلـــىـــ الصـــبـــاحـــ ،ـــ فـــأـــخـــرـــجـــوـــهـــمـــ وـــقـــتـــلـــوـــهـــمـــ بـــالـــبـــنـــادـــقـــ ،ـــ وـــأـــقـــوـــهـــمـــ مـــنـــ الســـوـــرـــ خـــلـــفـــ القـــلـــعـــةـــ ،ـــ وـــتـــغـــيـــبـــ حـــالـــهـــمـــ عـــنـــ أـــكـــثـــرـــ النـــاســـ أـــيـــاماـــ» :

وقد غطى أحد المؤرخين الفرنسيـــينـــ هذا الوصف الموجز الذى ذكرهـــ
الجنـــرـــ ،ـــ فأعطـــىــ صـــورـــةـــ مـــفـــزـــعـــةـــ عنـــ الدـــقـــائـــقـــ الـــأـــخـــيرـــةـــ فيـــ حـــيـــاـــةـــ هـــؤـــلـــاءـــ الـــعـــلـــمـــاءـــ ،ـــ
فـــذـــكـــرـــ أـــنـــهـــمـــ اـــقـــتـــيـــدـــواـــ مـــنـــ ســـيـــنـــهـــمـــ إـــلـــىـــ مـــيـــدـــانـــ القـــلـــعـــةـــ فـــرـــاســـةـــ مـــشـــدـــدـــةـــ مـــنـــ الجنــــودـــ ،ـــ
وـــكـــانـــ عـــلـــىـــ رـــأـــســـ القـــوـــةـــ المـــرـــاـــفـــقـــةـــ لهمـــ بـــرـــتـــلـــمـــيـــ اليـــونـــانـــ ،ـــ فـــأـــجـــاســـهـــمـــ القرـــفـــصـــاءـــ عـــلـــىـــ
الـــأـــرـــضـــ ،ـــ وـــأـــطـــلـــقـــ عـــلـــىـــ كـــلـــ شـــيـــخـــ مـــنـــ أـــولـــئـــكـــ العـــلـــمـــاءـــ عـــيـــارـــاـــ نـــارـــياـــ أـــرـــدـــاهـــ قـــتـــيـــلاـــ ،ـــ
الـــوـــاحـــدـــ تـــالـــىـــ الـــآـــخـــرـــ :ـــ وـــأـــضـــافـــتـــ جـــريـــدةـــ Courrier de l'Egypteـــ جـــدـــيدـــاـــ
إـــلـــىـــ هـــذـــاـــ المشـــهـــدـــ الدـــامـــىـــ ،ـــ فـــقـــدـــ نـــشـــرـــتـــ بـــيـــانـــاـــ رـــســـيـــاـــ جاءـــ فـــيهـــ :ـــ إـــنـــهـــ فـــيـــ الســـاعـــةـــ الـــأـــنـــســـعـــةـــ
مـــنـــ صـــبـــاحـــ ١٤ـــ بـــرـــوـــمـــيرـــ قـــدـــ قـــطـــعـــتـــ فـــيـــ مـــيـــدـــانـــ القـــلـــعـــةـــ رـــقـــابـــ ســـيـــةـــ عـــلـــمـــاءـــ ،ـــ
وـــذـــكـــرـــ نـــفـــســـ الـــأـــمـــاءـــ الـــخـــمـــســـ الـــتـــىـــ ســـجـــلـــهـــاـــ الجنــــرـــ ،ـــ وـــأـــضـــافـــتـــ إـــلـــيـــمـــ الســـيـــدـــ
عبدـــالـــكـــرـــيمـــ ،ـــ وـــقـــالـــ إـــنـــ ثـــبـــتـــ عـــلـــهـــمـــ تـــهـــمـــةـــ التـــحـــرـــيفـــ عـــلـــىـــ الثـــوـــرـــةـــ الـــتـــىـــ قـــامـــتـــ
فـــيـــ ٣ـــ فـــانـــديـــيرـــ ،ـــ وـــأـــوـــلـــ بـــرـــوـــمـــيرـــ ،ـــ وـــقـــالـــ الـــبـــيـــانـــ إـــنـــ مـــعـــظـــمـــ هـــؤـــلـــاءـــ المشـــاـــيـــخـــ
اشـــتـــرـــكـــواـــ فـــيـــ الثـــوـــرـــةـــ ،ـــ مـــدـــفـــوـــعـــينـــ بـــكـــرـــاـــهـــيـــمـــ لـــزـــمـــلـــاـــهـــمـــ المشـــاـــيـــخـــ الـــدـــيـــنـــ اـــســـتـــخـــدـــمـــهـــمـــ
بونـــابـــرتـــ فـــيـــ الشـــئـــوـــنـــ الـــعـــامـــةـــ .ـــ وـــهـــذـــاـــ القـــوـــلـــ مـــنـــ جـــانـــبـــ الجنــــرـــيـــدـــةـــ الرـــســـمـــيـــةـــ الـــلـــاـــخـــلـــالـــ

(1) الجنـــرـــ ،ـــ مـــصـــدـــرـــ ســـبـــقـــ ذـــكـــرـــهـــ ،ـــ جـــ ٣ـــ ،ـــ صـــ ٢٩ـــ .

(2) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 191.

(3) العدد رقمـــ ١ـــ الصـــادرـــ فـــيـــ ٢٠ـــ بـــرـــوـــمـــيرـــ مـــنـــ الســـنةـــ الســـابـــعـــةـــ مـــنـــ التـــقوـــيمـــ الـــجـــمـــهـــرـــىـــ (أـــوـــلـــ نـــوـــفـــبرـــ

الفرنسي تبرير هزيل للقتل الجماعي الذى ارتكبه الفرنسيون مع فريق من علماء الأزهر . وقد ظل مصير هؤلاء العلماء مجهولاً لسكان القاهرة عدة أيام ، وتردد أعضاء الديوان عدة مرات على بونابرت ياتميسون منه الإفراج عن هؤلاء العلماء وغيرهم من المعتقلين ، سواء من كان في القلعة أو في دارالبكرى ، أو في بيت الأغا . وكان بونابرت يستمع لهم ، ويروغ من الإجابة عن استفساراتهم . وأدرك الشعب أن في الأمر سراً يحاول الفرنسيون إخفاءه ، وازدادت هواجسه حين مضت الأيام ولم يفرج عن المعتقلين . واشتم الشعب رائحة الغدر ، وصحت نبوغته . وواجه الفرنسيون هذلا الموقف باشر الرهبة في نفوس سكان منطقة الأزهر ، فأرسلوا قوات عسكرية إلى منطقة الأزهر بالذات لمراقبة الموقف عن كثب ، وسقى آية حركة قد يقوم بها الشعب التأثر ^(١) تعبيراً عن سخطه على إعدام علماء الأزهر :

ويقرر الشيخ عبد الله الشرقاوى أن الفرنسيين قتالوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالماً ^(٢) ، ونعتقد أن هذا التقدير الرقمي لا ينطوى على مبالغة ، لأن الشيخ الشرقاوى - كشيخ لجامع الأزهر - كان أدرى من غيره بالعلماء وأسمائهم ، ولا بد أنه وقف على عدد واسماء العلماء الذين قضوا تحتهم في هذه الثورة ، وهو قد أضاف إلى العلماء الذين نفذ فيهم الفرنسيون أحكام الإعدام : علماء آخرين لقوا حتفهم برصاص الفرنسيين ، أو بقدائف مدفعيهم .

وتقديرًا للدور القيادى والبطولى الذى قام به الأزهر فى ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، ووفاء لعلمائه الذين أعدمهم الفرنسيون بطريقة تنافى مع أبسط مبادئ الإنسانية ، نشير إلى المركز العلمى والاجتماعى لهؤلاء الشهداء . لقد

(١) النظر يوميات الجبرى ابتداء من يوم الأحد ١٨ من جمادى الأولى ١٢١٣، ج ٣، ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) عبد الله الشرقاوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ٥٥ .

ترجم الجبرى لخمسة من علماء الأزهر الذين أعدتهم الفرنسيون في أعقاب ثورة أكتوبر ، وقد بدأ بالشيخ أحمد الشرقاوي ، فوصفه بأنه عالمة فقيه ، وقال عنه إنه تصدر للتدريس في الأزهر بعد وفاة أبيه الشيخ إبراهيم الشرقاوى « واجتمعت عليه طلبة أبيه وغيرهم ، ولازم مكانه بالأزهر طول النهار ، يعلى ويفيد » ، ويفتى على مذهبه (الشافعى) ، ويأتى إليه الفلاحون من جبرة بلاده ، بقضاياهم وخصوصياتهم وأنكحهم ، فيقضى بينهم ، ويكتب لهم الفتوى في الدعاوى التي يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضي ، وربما زجر المعاند منهم ، وضربه وشتمه ، ويستجعون لقوله ، ويمثلون لأحكامه ، وربما أتوه بهدايا ودراهم ، وكان جسبيا ، عظيم اللحية ، فصيح اللسان ، ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيين المتقدمة ، ومات مع من قتل بيده الفرنسيوية بالقلعة ، ولم يعلم له قبر » ، وواضح من كلام الجبرى أنه كان يمارس مهنتين ، هما طبقاً للمصطلحات الحديثة : أستاذ جامعة ومستشار قانوني ، فهو يقوم بالتدريس في الأزهر ، ويصدر الفتوى في القضايا المطروحة أمام القضاء ، وإلى جانب هذين العملين كان يجسم الخصومات ، قبل أن تأخذ طريقها إلى المحاكم ، كما أنه كان قوى الشخصية ، مهاباً .

وترجم الجبرى للشيخ عبد الله الشبراوى ، فوصفه بأنه « الإمام العمداء ، الفقيه الصالح القانع » ، وقال عنه إنه تفقه على أشياخ عصره ، وذكر أسماء هولاء الشيوخ ، وكاهم من أعلام الأزهر ، ثم ذكر أنه تصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالحوهرية ، وبالمشهد الحسيني ، وكان يقرأ في دروسه كتب الحديث كالبغارى ومسلم ، وكان الجم الغفير من العساكرة يحرضون على حضور دروسه ، وكانوا يستفيدون منه « وكان حسن الإلقاء ، سلسلى التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، مقبلاً على شأنه ، ولم يزل ملازماً

على حالته حتى اتهم في إثارة الفتنة ، وقتل بالقلعة شهيداً بيد الفرنسيين في أواخر جمادى الأولى من السنة (١٢١٣) ، ولم يعلم له قبر » . ويتصفح من ترجمة الخبرى أن الشيخ عبد الله الشبراوى كان على حظ موفور من العلم بفضل ما أتيح له من فرص الدراسة على أيدي صفوة علماء الأزهر ، وأن تخصصه الضيق كان في علم الحديث ، وأن كثيرين من العامة كانوا يحرصون على شهود حلقاته العلمية التي كان يتصدرها في الجوهرية ، ومسجد الإمام الحسين ، وقد اجتمعت له من الصفات العلمية والخلقية ، ما جعلت منه عالماً أزهراً مرموماً

وكان العالم الثالث الذى ترجم له الجبرى من شهادة الأزهر هو الشیخ يوسف المصيلحى ، وقد نعته بقوله : إنه « الشاب الصالح ، والنبی الفالح ، الفاضل الفقیه » ، وأنه حضر دروس أشیاخ العصر ، كالشیخ الصعیدی ، والشیخ البراوی ، والشیخ عطیة الأجهوری ، والشیخ احمد العروسی ، واتصل اتصالاً وثیقاً بالشیخ محمد المصيلحی ، إلى أن قال : « وأملى دروساً بجامع الكردى بسویقة اللالا ، وكان مهذب النفس ، لطیف الذات ، حلوا الناطقة مقبولاً للطاعة ، خفیف الروح ، ولم یزد ملازماً على حاله ، حتى اتّسم أيضاً في حادثة الفرنسيس ، وقتل مع من قتل ، شہیداً بالقلعة » ، ومعانی المستفادة من ترجمة الجبرى أن مجتمع العلماء افتقد عضواً عاماً كان في الاستطاعة أن يثرى الحياة العقلية في البلاد ، بفضل الدراسات التي تلقاها من كبار علماء الأزهر ، واتصالاته بهم ، وائتمانه بالتدریس ، وقد كان ینتظره مستقبل علمي زاهر ، لو لا أن الفرنسيسين قتلواه ، وهو في مستهل حياته العلمية :

وأفرد الخبر قى ترجمة ضافية للشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة المكفوفين^(١) فقال : كان يستغل المكفوفين ، في مجرد مجموعات منهم إلى الملتزمين ، ونظار الأوقاف ، لاستيقاء المبالغ المطابية منهم له ، بصفته شيخاً لطائفة المكفوفين : وكان يمارس عملاً تجارية واسعة ، أثرى منها ثراء واسعاً ، فكان يبيع الغلال والسمن والعسل والسكر والزيت ، وكانت له مطاحن لطحن الغلال ، وأنشأ مخبزاً لإنتاج خبز من صنف رديء ينحصر للمكفوفين ؛ وكان ياجأ إلى الاستيلاء التعسفي على ميراث أفراد الطائفة ، وكان كثير من المكفوفين يتربكون ثروات ضعيفة ، عبارة عن أموال سائلة ، وانتهى به الأمر إلى أنه أصبح من كبار الشخصيات في مجتمع القاهرة ، أو كما يقول الخبر : « صار المترجم من أعيان الصدور ، المشار إليهم في المجالس ، تخشى سلطوته ، وتسمح كلماته ، ويقول قال الشيخ كذا ، وأمر الشيخ بكتذا ، وصار يلبس الملابس والفراوى ، ويركب البغال ، وأتباعه مدققة به ، وتزوج الكثير من النساء الغنيات الخميلات ، واشترى السرارى البيض والحبش والسود ، وكان يقرض الأكابر المقادير الكثيرة من المال ، ليكون له عليهم الفضل والمنة ،

(١) للمكفوفين أو العميان كما كان يطلق عليهم في ذلك الوقت زاوية خاصة بهم في عطفة الشنوان ، وكان عدد منهم يطابون العلم في الأزهر ، أو في المدارس الملحقة بالمساجد ، وعدد آخر يمتدون مقرئين ، يتلون آيات القرآن الكريم في المساجد والمصاطب أمام الحوانيت ، استجابةً للبركة في البيوت ، ولرزق الوفير في محلات التجارية ، وبعض النالث يتخصصون في التواشيح الدينية ، لإقليمها في الموالد والمحفلات الدينية ، وبعض الرائع يتعاقدون مع أصحاب المقاهي المقامة في الأحياء الشعبية ، ويجلسون على دكة عالية ، وينشدون قطعاً من الأدب الشعبي ، مثل الأميرة ذات الهمة ، وأبي زيد الملائكي ، وأمثال ليلة ونحو ذلك ، كما كان يستغل عددهم في المساجد أمامة أو مؤذنين ، وكان عدد آخر ، وبخاصة من لم ينالوا حظاً من التعليم يتسلون في الشوارع والأسواق ، يسألون الناس إحساناً ، وكان يضمهم تنظيم واحد ، ويختضعون لشيخ الطائفة ، يأمرون بأمره .

ولم يزل حتى حمله التفاخر في زمن الفرنسيس على تولية كبر إثارة الفتنة، التي
أصابته وغيره، وقتل فيمين قتل بالقلعة، ولم يعام له قبر، وكان ابنه مهوفاً^(١)
بهيست البكرى، فلما علم بموته قلق، وكاد يخرج من عقامه، نحوه على ما يعام
مكانه من مال أبيه، حتى خلصن في ثانى يوم بشفاعة المشايخ، ولم يكن
مقصوداً بالذات، بل حضر ليعود أباه، فمحجزه القومة عاليهم، زيادة
في الاحتياط.^(٢)، ونخلص من كلام الخبرى إلى أن الشیخ سایان الجلوسى كان
على قدر كبير من الصرامة والخبروت، وأنه كان يحب المسائل والنماء شيئاً^(٣)
هماً، وأنه كان من المحرضين على الثورة.^(٤)

وكان الشيخ اسماعيل البراوي هو آخر من ترجم له الحبرى من حمامه الأزهر الشهداء ، وقال عنه إله « كان قليل المضاعة ، إلا أنه تخاب عاليه الراهاة والمساندة والسلطة والتدخل ، وذلك هو الذي أوقعه في سبائل الفتنواية ، وقتل مع من قتل شهيداً ، ولم يعلم له قبر » ، ويتبين من ترجمة الحبرى له أنه كان أقل العلماء الشهداء مكانة علمية ، لأن بضاعته قليلة من العالم ، ولكناته كان خطيباً مفوهاً ، وأنه استغل هذه الموهبة في خطابة الجاهير ، شعر ضا طم (٥) على الثورة :

(١) كبر الشيء أو «مظم الشيء» وأكبر أقسامه ، وهي تتعلق بكسر الكاف وسكون النون ، ومعنى العبارة أن الشيخ سليمان الجلوسي تولى القسطنطيني الكبير من التعرية يصن على اللورد و إثارة الله ، وقد دفعنا إلى ذكر هذا الإيضاح أن الأستاذ أحد شفاظ عوض قد حذف هاتين الكلمتين (تفاهم) وهو ينقل النص عن الجلبي ، ولم يلمع اعتقاده أنها خطأ مطبعي ، والآية القرآنية المخولة سماعها : «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم» الفقرة الأخيرة من الآية رقم ١١ سورة اللورد ، افتقر :

أحمد حافظ عوضن ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٦

(۲) ای مجوزاً، او محددة إقامته.

(٣) أى أطلق سرايه .

(٤) القائمين على حراسة المعتقلين.

(٥) انظر ترجم هؤلاء العلماء الشهداء في وفيات سنة ١٢١٣، في: المختلق ، مصادر سبق ذكره ، ص ص ٦١ - ٦٢

ويلاحظ أن الخبرى لم يترجم إلا لخمسة من علماء الأزهر الذين أعدتهم الفرنسيون في أعقاب الثورة ، وليس معنى ذلك أن الأزهر لم يفتح إلا في خمسة من علمائه ، وقد ذكرنا من قبل أن الشيخ عبد الله الشرقاوى - شيخ الأزهر - قد قرر أن الفرنسيين قتلوا نحو ثلاثة عشر عالماً من علماء الأزهر ، والتفسير الذى يساق في هذا الصدد لإغفال الخبرى ترجمة باقى علماء الأزهر الشهداء ، هو أنه اكتفى بخمسة منهم ، كى يفسح لنفسه مجالاً لترجمة الشهداء الآخرين مثل السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطنى ، والأمراء المالكين الذين سقطوا في معركة إمبابة ، وما يؤيد هذا التفسير أن الخبرى لم يترجم إلا لثلاثة من الأمراء المالكين ضحايا معركة إمبابة ، مع أنهم تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح ، سواء من قتل منهم في ساحة الوغى ، أو غرقاً في النيل ، فترجم لاثنين من القتلى ، ولو واحد من الغرقى ، كما ترجم لأمير مشهور مات حتف أنفه في الشام ، هو صالح باك أمير الحج ، وعلى ذلك فإن علماء الأزهر الخمسة الذين خصهم الخبرى بترجمته كانوا يشكلون أكبر نسبة في ترجم وفيات سنة ١٢١٣ (١٥ يونيو ١٧٩٨ - ٤ يونيو ١٧٩٩) ، وكانت نسبة ترجم مجتمع العلماء تفوق نسبة ترجم مجتمع العسكريين .^(١)

صور أخرى من تنكيل الفرنسيين بالشعب

مضت بكل نشاط عمليات القبض على كل من حامت حوله شبهة التحرير على الثورة . والخبرى ، وهو يسجل أحداث يوم الأحد ١٨ جمادى

(١) ترجم من قتلى المعركة للأمير على باك الدفتر دار ، وعبد الله كاشف الخبر تابع عثمان باك ذى القوار الكبير ، وترجم من الغرق للأمير إبراهيم باك الصغير ، المعروف بالوالى .

٧	مجتمع العلماء
٤	مجتمع العسكريين
١	حاكم الإسكندرية الوطنى {
١٢	(السيد محمد كريم) }

الأولى ١٢١٣ (٢٨ أكتوبر ١٧٩٨) ، يتكلم عن « استمرار القبض على الناس ، وكبس البيوت بأدفن شبهة » ، وأكمل بونابرت هذه الحقيقة في رسالة مؤرخة في ٢٧ أكتوبر إلى الجنرال رينيه Reynier المحاكم العسكري لمديريه الشرقية قال فيها : « إن السكينة قد عادت إلى القاهرة ، وفقد الثوار قرابه أولئي قتيل ، وفي كل ليلة تقطع رعوس نحو ثلاثة من الرجال ، وزعماء الأهالى ، وأعتقد أن هذا العمل سيكون درساً نافعاً^(١) » ، ويعرف الضابط لاجونكير La Jonquière بأن إعدام الكثirين قد تم بحد السناث في القاعة سراً وباسون حاكمة^(٢) . وامتدت موجة الانتقام إلى السيدات المصريات . وقد كشف عن هذه الحقيقة في مذكرة دى مورين Louis Antoine Fauvelet de Bourienne^(٣) السكرتير الخاص لبونابرت ، فقد قرر أن عدداً كبيراً من المقبوض عليهم كانوا يساقون إلى القاعة ، وكان في كل مساء يتولى بنفسه كتابة أوامر الإعدام ، وكانت تتضمن اسماء اثنى عشر معتقلًا كل

(١) وثيقة رقم ٣٥٤٩ مؤرخة في ٦ من شهر برولير ، السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٧ من أكتوبر ١٧٩٨) .
انظر :

Correspondance de Napoléon, t. V.

(2) La Jonquière; ouvr. clt., t. III, p. 283.

(٣) نشرت النسخة الفرنسية المذكورة دى بورين بعنوان :

Bourienne (L.A. Fauvelet de); Mémoires de M. de Bourienne, ministre d'Etat, sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration. Paris, 1829, 10 vols.

وظهرت الترجمة الإنجليزية لهذه المذكرات بعنوان غير دقيق علمياً في كتاب يقع في عشرة أجزاء عنوانه : The Life of Napoléon, by William Hazlitt

أفرد فيه أربعة أجزاء مذكرات دى بورين هي الأجزاء : السابع والثامن والتاسع والعاشر ، وخصص الأجزاء الستة الأولى لعرض تاريخ نابليون ، وقد تواتت بجمعية في نيويورك ، أنسنتها The Grolier Society نشر الأجزاء العشرة ،

ليلة ، وكانت توضع جثثهم في زكائب وتفرق في النيل ، « وكانت هناك نساء ^(١) كثيرات ، من نفذ فيهن أوامر الإعدام الليلية » :

برتالى يواصل تنكيله بالشعب

وكان هذا الجحود الإرهابي ، الذي عاشت فيه القاهرة عقب إخراج الثورة فرصة ذهبية لوكيل محافظة القاهرة برتالى اليونانى – أو فرط الرمان – ، للتشفي من الشعب المصرى ، وإشباع هوايته في التنكيل بأبناء البلاد ، الذى آوتهم من خوف ، وأطعمته من جوع . وقد جعل الفرنسيون منه شخصية أمراة ، متحركة ، متعالية ، متغسفة ، تبطش بالمصريين في غير رحمة أو هادئة ، وبغير مقتضى أو سبب جدى : ويصف الخبرى دور هذا اليونانى القبيح في التنكيل بأهل القاهرة ، بعد أن ألقى الثوار أسلحتهم فيقول : « وانتدب برتالى بطالمين للعسس على من حمل السلاح ، أو اخترس ، وبث أعنوانه في الجهات يتتجسسون في الطرق ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وما ينويه النصارى من أبغضهم ، فيحكم عليهم براده ، ويعمل برأيه واجهاده ، ويأخذ منهم ^(٢) الكثير ، ويركب في موكبه ويسيير ، وهم موضوعون بين يديه بالحبال ، ويسبحهم الأعون بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات ، ويطالبونهم بالمهوبات ، ويقرر وهم بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويبدل بعضهم على بعض ، فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض :

(1) "Numerous prisoners were conducted to the citadel. In obedience to an order which I wrote every evening, twelve were put to death nightly. The bodies were then put into sacks and thrown into the Nile. There were many women included in these nocturnal executions.

انظر :

de Bourienne; Memoirs of Napoléon. vol I., p. 188.

(2) أي يستخدمون مدهم وسائل التعذيب كي يتمزقا ،

وكذلك فعل مثل ما فعل اللعين ^(١) الأغا ، ونجبر في أفعاله وطعنه ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفي بحر النيل قذفوه ^(٢) ، ومات في هذين اليومين وما بعدهما ^(٣) أئمَّة كثيرة ، لا يحصى عددها إلا الله ، وطال بالكفرة بغتهم وعنادهم ، ونالوا من المسلمين قصاصهم ومرادهم » :

وعهد بونابرت في ٢٦ أكتوبر ١٧٩٨ إلى هذا اليوناني القبيح بالذهاب مع قوة من رجال الشرطة في اتجاه منطقة القبة والخانكة ، ويتجول في عشر قرى تكون أقرب القرى إلى القاهرة ، ويداهم بيوتها ، بحثاً عن الخطابات التي كتبها أعضاء مجلس الثورة إلى مشائخ القرى وسكانها ، وطلبوا فيها منهم الحضور إلى القاهرة لمساندة الثوار . وطلب بونابرت منه أيضاً أن يجذب في جمع المعلومات المتصلة ^(٤) بهذا الموضوع . ويقول الخبرتي : إن برتراند سافر في ٢٨ من أكتوبر إلى بلدة سرياقوس « ومعه جملة من العسكري بسبب الناس الفارين إلى جهة الشرق فلم يدركهم ، وأخذ من في البلاد ، وعسف في تحصيها ، ^(٥) ورجع بعد أيام » .

(١) الأغا ، يقصد به محافظ القاهرة ، وكان اسمه مصطفى أغا ، وهو ثان محافظ يعين القاهرة أيام الاحتلال الفرنسي ، وكان معروفاً عنه أنه من عمالء الفرنسيين ، وقد لاق مصرعه إبان ثورة القاهرة الثانية .

(٢) تؤكد هذه اللقطة (الكفرة) الطابع الديني للمجتمع المصري في ذلك الوقت ، وكان يطلق على غير المسلمين كفرة ، وسوف نتطرق هذه المسألة في موطن قادم من هذه الدراسة .

(٣) الخبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٤) وثيقة رقم ٣٥٣١ عبارة عن أمر أصدره بونابرت في الخامس من شهر برمبر من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٦ من أكتوبر ١٧٩٨) إلى الجنرال برتيه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي ، لتبلیغه إلى ذلك اليوناني برتراند .
انظر :

Correspondance de Napoléon, t. V.,

(٥) الخبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

خسائر الشعب في ثورته

تكبد الشعب في ثورة أكتوبر خسائر فادحة في الأرواح ، إذ ارتفع عدد الضحايا إلى أربعة آلاف قتيل ، وقد استقينا هذا التقدير الرقى من ريبوهورن^(١) الحملة ، وهو يتفق في هذا التقدير مع ما جاء في مذكرة الجنرال بونابرت ، وهو أقرب إلى الحقيقة . أما بونابرت فقد قرر في التقرير الذي وضعه عن ثورة القاهرة الأولى ، وأرسله إلى حكومة الديركتور بتاريخ ٦ برومیر من السنة السابعة من التقويم الجمالي أن عدد الضحايا المصريين يتراوح بين ألفي قتيل ، وبين ألفين وخمسمائة قتيل^(٢) :

وقد بلغت خسائر الجانب الفرنسي نحو ثلاثة قتيل^(٣) ، منهم ضباط برتبة لواء ، هو الجنرال ديبيو ، المحاكم العسكري لمنطقة القاهرة ، وضباط برتبة مقدم ، هو سلكوسكي ياور بونابرت ، وبعض الضباط والمهندسين من ضباط سلاح المهندسين وبعض العلماء ، وكان الباقيون من الجنود ، وقد تخطى بونابرت في ذكر عدد ضحايا الفرنسيين ، فقد قرر في مذكرة أنه خسائرهم قد بلغت ثلاثة ، منهم مائة قتيل ، في حين أنه كان قد هبط بهذا العدد إلى ستة وثلاثين قتيلاً في تقريره الذي رفعه إلى حكومة الديركتور ، والذي سبقت الإشارة إليه ، ولا شك أنه استهدف من ذكر هذا الرقم المتواضع ،

(١) Reybaud Louis et autres ; ouvr. cit., t. IV, p. 181.

(٢) Mémoires du comte Belliard, lieutenant-général, pair de France, écrits par lui-même, recueillis et mis en ordre par M. Vinet, un de ses aides de camp. Paris, 1842, 3 vols.

(٣) يقابل السابع والعشرين من شهر أكتوبر ١٧٩٨ .

(٤) انظر النص الرسمي لهذا التقرير في كل من :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc. ouvr. cit., t. I, pp. 369 - 371.

—————; Correspondance de Napoléon, t. V, doc. no. 3538 au Directoire Exécutif,

التقليل من شأن ثورة سكان القاهرة ، حتى لا يضيف مزيداً من عوامل الإثارة أو القلق في نفوس أعضاء حكومة الديركتوار. وكان بونابرت حريصاً على تكذيب الأنباء التي كان أعداء فرنسا ينشطون في إذاعتها ، كنوع من أنواع الحرب النفسية ، فيعتقد الرأى العام الفرنسي أن الحملة واجهت ثورة هادرة من القاهرةين ، وأن المتاعب تلاحقها بعد الفسحة الألية التي أصابتها في معركة أبي قير البحريّة :

ويعلق الأستاذ الرافعى على نتائج ثورة أكتوبر بقوله : « وانتزعت الثقة بين الجنود والأهالى ، فكانت ثورة القاهرة كالمواة العميقه التي باعدت إلى الأبد بين الأمة المصرية والخيش الفرنسي ، وراح كل جندى لايمشى إلا بسلاح ، بعد أن كانوا لايمشون به أصلاً ، من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل في يده عصا أو سوطاً ، أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هولاء من جهنّم عن الخروج ، والمرور بالأسواق ، من العشية إلى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدة والقسوة ... : وساد حكم الإرهاب في مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ، ولا طمأنينة » ^(١) .

ثورة القاهرة ثورة دينية

يحاول فريق من الباحثين أن يضفوا على هذه الثورة الطابع الـ *national* أو *le caractère national* ، ويensi هؤلاء الباحثون أن المجتمع المصرى في القرن الثامن عشر كان مجتمعـاً دينياً متزماً ، تغلب على أفراده ثقافة دينية ، وتسيطر عليه آراء دينية ، وتوجهه دوافع دينية ، ويتحسس هؤلاء الباحثون الأسانيد في عبارات ينتهيونها

(١) عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سابق ذكره ، ج ١ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

من تاريخ الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولا يقيمون وزناً للفروق الصارخة بين المجتمع الإسلامي في مصر في القرن الثامن عشر ، وبين المجتمعات الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين :

كانت اهتمامات التي رددتها الثوار هنافات دينية بحتة ، لا تمت بأية صلة إلى الشعارات أو المفاهيم القومية والوطنية ، ويعطي الخبرني صورة نابضة بالحياة عن بداية ثورة أكتوبر ١٧٩٨ فيقول : « وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، وعلى الجهد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدرو صحبته حشرات الحسينية ، وزعر (١) الحارات البرانية ، ولم يصباح عظيم ، وهو جسم ، ويقولون بصباح ف الكلام : نصر الله دين الإسلام » ، وهناك معاصر آخر لأحداث الثورة ، هو المعلم نقولا ترك ، يقول في مذكراته عن بداية الثورة : إن أحد شيوخ الأزهر طاف في أول يوم من أيام الثورة في شوارع القاهرة ينادي بأعلى صوته : « إن كل مؤمن موحد بالله ، عليه أن يذهب إلى الجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغي علينا أن نجاهد الكفار » .^(٢)

نستخلص من عبارتى الخبرني ونقولا ترك ثلاثة عناصر حددت موقف سكان القاهرة من هذه الثورة :

أولاً : إن الدعوة إلى الاشتراك في الثورة كانت مقصورة على « المؤمنين الموحدين بالله » ، وهو وصف ينطبق على سكان القاهرة المساجدين دون سواهم

(١) زعر ، معناها أناس ذوو شرارة .

(٢) الخبرني ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

(٣) النص الحرفي لمباراة نقولا ترك هو « نزل أحد المشائخ الصغار ، وكان من مشائخ الأزهر ، وبدأ ينادي في المدينة إن كل من موحد بالله عليه يهاجع الأزهر ، لأن اليوم ينبغي لنساء نزارى ، الكفار » ، مذكرة نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ قيت ، ص ٢٨ من الأصل العربي .

ثانياً : إن الجامع الأزهر كان مكان حشد التجمعات الخواهيرية الإسلامية
تتلقي فيه الأوامر ، أو الأسلحة ، أو المخاوير من قادة الثورة^(١) :

ثالثاً : إن الحرب التي يخوضها أهل القاهرة المساجون ، كانت حرب
جهاد ديني ، استهدفت الانتصار للدين الإسلام ، ولم يطاق فيها النوار المتأففات
التي عرفتها مصر في القرن العشرين بوجه خاص مثل : مصر للمصريين ،
أو يحيى الاستقلال التام ، ولم يهتف النوار بحياة السيد محمد السادات زعيم
الثورة ، أو باسم أي زعيم مصرى آخر ، لأن أي زعيم مصرى ، مهما بلغت
مكانته ، ومهابته ، ونفوذه في نفوس الخواهير ، كان يتضاعل مرتكزه ، إذا
قورن بسلطان الدولة العثمانية ، على أساس أنه سلطان المسلمين .

ويجتمع على هذه الحقيقة المؤرخون والباحثون المصريون ، من عرروا
بالأصلية ، وسلامة الحكم والتقدير . فالأستاذ محمد شفيق غربال يذكر
في بحث له : « ثار أهل القناطر ثورتين عنيفتين ، وقام الفلاحون في الأقاليم
كلما أتيحت لهم فرصة ، وقد ذكرنا من الأسباب ما يمكن لتفسير هذا
الكره ، دون أن نلجم إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب في القرن
الحادي عشر ، والتاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم ،
إلا باعتبار إيجابياً واحداً ، هو الرغبة في العودة لما أفسد الناس ، ولا يمكن
تسمية ما أفسد استقلالاً ، وإنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت المسادة
العثمانية »^(٢) ، ثم يقول عن السيد محمد السادات قائد الثورة : « إنه كان من أكثر

(١) تظاهر الفروق واضحة تماماً بين الأزهر في سنة ١٧٩٨ ، حين كان مركز ثورة دينية ، وبين الأزهر في سنة ١٩١٩ ، حين غدا مركز ثورة وطنية ، بخimet عنصرى الأمة المصرية ، وتردد
الأقباط على جامع الأزهر ، يخطبون من فوق منبره ، داعين إلى الثورة من أجل الحرية والاستقلال .
وقد تضامن المسلمون والأقباط تضامناً ، بروزت معه وحدة الأمة المصرية ، وصنع الأهل أعلاماً
جديدة ، رسموا فيها الصليب متعاقباً مع الملائكة .

(٢) محمد شفيق غربال : الخوار يعقوب ، والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر
في سنة ١٨٠١ . القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٥ .

العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه، ومن أشدّهم سعياً لإعادة الحكم العثماني^(١). ويصور الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ثورة القاهرة الأولى بأنها انفجار للشعور الديني عند المصريين ، فهو يقول : « وظلّ الفرنسيون يحكّمون البلاد نحو ثلاثة سنين ، تحقّق الشعب خلالها أن هؤلاء المغيرةين يخالفونه في الدين ، ويخالفونه في اللغة ، ويخالفونه في الحياة الاجتماعية التي يحيّها : رآهم يقيمون المراقص العامة ، ورأى لهم طرائق في معاملة النساء لم يعهد لها ، ورأىهم يختّمون عليه أمرأ لم يألفها ، فاعتقد أن ذلك تدخل منهم فيها لا يعنيهم : كدفن الموتى خارج المدن ، ورش الشوارع بالماء ، وتعليق الفوانيس ، ورأىهم يقومون بأعمال رابته ، وأفاقت باله ، كيholder أبواب الحرارات ، وما شاكل ذلك . ومن ثم تبيّن الأسباب لينفجر الشعور الديني عند المصريين في ثورة جامحة في القاهرة ، وكثير من مدن الأقاليم »^(٢) :

ولدينا دليل مادي ، على أن العاطفة الدينية كانت تسيطر على تصرفات المصريين في ذلك الوقت ، وأنها ازدادت بروزاً ووضوحاً في توجيه الأحداث في مصر ، منذ أن دخل الفرنسيون البلاد . كان عدد من المماليك قد وقعوا أسري في أيدي الفرنسيين في أثناء المعارك التي خاضوها ببسالة ضدّ الفرنسيين : ولكن سرعان ما تناهى الشعب المصري المظالم التي انهالت عليه إبان حكم المماليك الحائر ، وبخاصة على عهد الحكم الثنائي الذي تولاه إبراهيم باشا ومراد باشا . فما أن انتصر الفرنسيون بسلاح مدفوعتهم الرهيب على فرسان المماليك ، وأذلوكهم حتى أصبح هؤلاء المماليك موضع الشفقة والرثاء من المصريين ، وتبخرت الكراهية التي كان يشعر بها الشعب نحوهم ، ونظر

(١) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، مرجع سبق ذكره ،

لهم على أنهم إخوة له في العقيدة الدينية ، ونجلي هذا الشعور في نقوس مختلف طبقات الشعب ، من كبار المشايخ علماء الأزهر ، إلى رجل الشارع الفقير ، تدخل علماء الأزهر أعضاء الديوان لدى بونابرت كى يطاق سراح أسرى الماليلك ، ونجحت الوساطة ، ولاذ الماليلك بالجامع الأزهر ، حيث لقوا عطف القراء قبل الأثرياء . وكانت الوشيعة الدينية هي العامل الأول في هذا التعاطف : يصف الخبرني هذا الشعور البديل وهو يستعرض حوادث شهر صفر ١٢١٣ (١٥ يوليو - ١٢ أغسطس ١٧٩٨) فيقول : « تشفع أرباب الديوان في أسرى الماليلك ، فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم ، فدخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر ، وهم في أسوأ حال ، وعليهم الثياب الزرقاء المقطعة ، فكشا به يأكلون من صدقات القراء المجاورين به ، ويتكتفون المارين ،
 وفي ذلك عبرة للمعتبرين »^(١) :

وهناك تعليق دقيق على "هذه الحادثة" ، وعلى رواية الخبرني لها ، وقد صدر هذا التعليق عن الأستاذ ج. كريستوفر هيرولد Christopher Herold فقال : إن الماليلك والعجمانيين مسلمون ، حقيقة أنهم قد يعتصرون أرزاق المصريين ، ويستولون على أملاكهـم ، ولكنـهم إخوة لمصرـيين في الدين ، ثم قال : إن الخبرـي مسلم مستـير ، وعبارـته تحـمل الكـثير مما يـعتبره الإسلام خلقـاً جـديرـاً بالإعـجاب العـظيم : وهو أن يـقدم المـظـاـءـومـون الطـعـامـ إلى ظـالـيمـهـ المـهـزـمـين بـدافـعـ الشـعـورـ بالـأـخـوـةـ فيـ العـقـيـدـةـ الـدـيـنـيـةـ ، أـكـثـرـ منـ الشـعـورـ بالـشـفـقـةـ
 عليهمـ^(٢) . وهناك أيضاً أحد كبار الصحفـيين النـاهـيـنـ فـيـ مصرـ المـعاـصـرـةـ ، وـصـاحـبـ جـريـدةـ «ـ كـوكـبـ الشـرقـ »ـ ، وـهـوـ الأـسـتـاذـ أـحمدـ حـافظـ عـوضـ ، كـانـ أـسـيقـ

(١) الخبرـيـ ، مصدرـ سـبقـ ذـكرـهـ ، جـ ٣ـ ، صـ ١٢ـ .

(٢) التـرـجـمةـ الـعـرـبـيـةـ لـكـتابـ «ـ بـوـنـابـرـتـ فـيـ مـصـرـ »ـ ٤ـ صـ ١٩٥ـ .

من كرسوف هيرولد في تصوير الشعور الديني الفياض لدى الشعب المصرى فقال : إن المصريين كانوا على عهد الحملة الفرنسية متعلقين بحكم المماليك الذين لم يكونوا يقلون في الأجنبية عن الفرنسيين ، سوى أن أولئك كانوا مسلمين ، وإن كان إسلامهم ضعيفاً ، وهو لاء غير مسلمين ^(١) .

هذا هو موقف الشعب المصرى من المماليك إبان الحكم الفرنسي ، وهو موقف أملأه التعاطف الدينى ، وهذه هي نظرته لهم ، وهى نظرة قائلة على الإباء فى الدين ، وقد شكل ذلك الموقف وهذه النظرة العلاقات بين الشعب المصرى وبين العثمانين . وقد وقع حادث قبيل اندلاع ثورة أكتوبر ١٧٩٨ يدل على مدى تعاقب الشعب المصرى بالعثمانين ، وأنه كان ينظر إليهم على أنهم حماة الإسلام ، المدافعون عن دياره .

كان أحد العسكريين العثمانين معتقلاً في الإسكندرية ، ثم أطلق الفرنسيون سراحه ، وجاء إلى القاهرة في ١٤ من سبتمبر ١٧٩٨ ، وذهب إلى منطقة الأزهر لزيارة المشهد الحسيني ، ولم تكدر تقع أعين الجاهير عليه حتى ابهجوا المقدمه ، وتزاحموا على رؤيته ، وكان دهوراً طويلاً قد مر دون أن يروا الخندود العثمانين ، أو عساكر سلطان المسلمين ، واختلفت تفسيراتهم لمجيئه ، وذهبوا في ظنونهم مذاهب شتى ، فقالوا : « إن هذا رسول إلٰهى » ، حضر من عند

(١) أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .

(٢) إلٰهى ، لفظة تركية ، معناها سفير ، وهي تكتب أحياناً بالحيم المطشة في إحدى ثلاث صور : إلٰهى ، آلٰهى ، إيلٰچى .

ولكن الكلمة الأكثر استعمالاً في المصادر التاريخية الخاصة بمصر إبان الحكم العثماني هي إلٰهى ، وهي تتكون من مقطعين : ال معناها السلم ، أو السلام ، أو التحالف ، والناف چي ومعناها رسول السلام ، والأتراء العثمانيون يستخدمون في هذا الصدد ثلاث مصطلحات :

بيوك إيلٰچى و معناها سفير .

إيلٰچى مر شخص و معناها وزير مفوض .

السلطان بجواب لفرنسيس يأمرهم بالخروج من مصر ، وتقاطرت الجماهير نحو المشهد الحسيني ، وتمحمرروا في المنطقة . ونقل رجال المخابرات الفرنسية تفاصيل هذا الحادث إلى بونابرت ، وأضافوا إليه أن خطاباً ورد إلى المشايخ علماء الأزهر ، وأنهم أخفوه . ويبدو أن هذا النبأ بشقيه أثار بونابرت ، فأسرع في موكب كبير من الفرسان والمشاة إلى دار الشيخ محمد السادس ، على مقربة من مسجد الإمام الحسين ، وكان وقت القليلة ، والشيخ منحرف المراج ، فانزعج وهبط من الدور العلوي لمقابلة بونابرت ، وهو لا يعلم السبب في حضوره إلى داره في مثل ذلك الوقت ، وعلى تلك الصورة . واستفسر بونابرت عن الخطاب الذي ورد إليه ، فقال إنه لا يعرف عنه شيئاً ، وطال الحديث بينهما ما يقرب من ساعة ، ثم خرج بونابرت وعاد في موكبه ماراً بباب مسجد الحسين ، وكان الزحام قد اشتد داخل المسجد وخارجه ، والجميع يرنون بأيصالهم نحو القادر العثماني ، فلما شاهدوا بونابرت استبدل بهم الغضب ، وصاحوا بكلمة واحدة انطلقت من حناجرهم في صوت رهيب دوى كالرعد : « الفاتحة »^١ ، فشخص بونابرت إليهم ، واستفسر من مترجميه عن معنى كلمة « الفاتحة » ، فلطفوا له القول وقالوا له : « إن المصريين

أورته إيلچى ومعناها وزير مقيم .

ويستخدم الجبرى لفظة إيلچى في يومياته بمعنى رسول صاحب مقام رفيع ، موقد من قبل السلطان ، أو الصدر الأعظم ، في مهمة رسمية خطيرة .

انظر :

Baibier de Meynard ; Dictionnaire turc - français, Paris, 2 vols.,
1881 - 1886, vol. I ,p. 105, et p. 235.

' Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes. 2 éd., Leyde-Paris,
1927. t. I, p. 33.

يدعون لك ، وذهب إلى داره ، وكانت نكتة غريبة ، وساعة اتفاقية عجيبة ،
 كاد ينشأ منها فتنه^(١) » :

تخلص من هذا كله إلى أن ثورة أكتوبر ١٧٩٨ كانت ثورة دينية تنادي
 إليها رجال الأزهر ، واعتمدوا على الإثارة الدينية ، وكانت الدعوة إلى
 المشاركة في الثورة مقصورة على المسلمين ، وقام الأزهريون بالدور الرئيسي
 فيها ، سواء في التخطيط لها ، أو في زعمتها ، أو في المشاركة في أحدهما
 مشاركة إيجابية فعالة ، وهم الذين تحملوا نصيبهم موفوراً من ويلاتها ،
 كما استهدف معهدهم العتيد - الجامع الأزهر - لتصف المدفعية الفرنسية قصفاً
 شديداً ، ثم انطلق جنود الجيش الفرنسي حرماته :

ثورة القاهرة ثورة نظيفة

وكما كانت ثورة القاهرة التي اشتعلت في أكتوبر ثورة دينية ، كانت
 أيضاً ثورة نظيفة ، لم يتطاول الشوارع المسلمون فيها على إخوانهم الأقباط ،
 ولم تقع اعتداءات على أموالهم ، أو ممتلكاتهم ، أو أشخاصهم ، بل وجه
 الشوارع حفاظاتهم كلها لمحاربة الفرنسيين ، وهذه ظاهرة جديرة بالتسجيل ،
 لأن المجتمع في مصر كان مجتمعاً دينياً متزماً ، ولكن كانت هناك مظاهر
 تعاطف بين المسلمين والأقباط ، أشار الخبرقى إلى بعضها ، ولذلك اختلفت
 ثورة أكتوبر عن الثورة التي اندلعت في القاهرة في ٢٠ من مارس ١٨٠٠ ضد
 الفرنسيين ، إذ وقعت فيها اعتداءات طائفية مؤسفة ، وورد هذا الاختلاف
 إلى أن قيادة الثورة الأولى كانت مصرية خالصة ، تمثلت في رجال الأزهر ،
 بينما كانت قيادة الثورة الثانية يتقاتلها العثمانيون والمماليك والمصريون ، وكان

(١) الخبرقى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١٧ - ١٨ ،

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ .

موقف الزعماء المصريين ممثل الشيخ محمد السادات ، والسيد عمر مكرم ، والشيخ الجوهري ، والسيد أحمد المحروقى ، وال الحاج مصطفى البشتبلي «وقد أسلما ونبيلا : وجهوا الشعب لمحاربة الفرنسيين دون سواهم ، وزعوا الثوار على مختلف مواقع العاصمة وأطراها ، ووراء المدارس ، وقاموا بالإتفاق عليهم ، وبدت من الزعماء المصريين صور رائعة من التكافل الاجتماعي ، أما العثمانيون والممالئك مثل ناصف باشا ، ونصوح باشا ، والأمير إبراهيم باك ، ومحمد بك الألاني ، وحسن بك الخداوى ، وعثمان بك الشرقاوى ، وعثمان بك الأشقر ، فكانوا يأمرن الثوار بالاعتداء على الأقباط ، وقد ذكر الجبرتى أن نصوح باشا صاح في العامة : « اقتلوا النصارى ، وجاهدوا فيهم » ، وهي دعوة منكرة ، لم يصدر مثلها عن زعماء الثورة المصريين :

ثورة القاهرة ثورة إنسانية

وهناك خصيصة ثلاثة لثورة القاهرة ، وتتلخص في أن الطابع الإنساني كان فيها واضحاً ، بل بارزاً ، فعلى الرغم من أن ثورة أكتوبر كانت على غرار الثورات الحمراء التي تندلع في كل زمان ومكان ، عبر الأعصار التاريخية حين يحاول المشتركون فيها التشكيل بأعدائهم ، أو خصومهم ، إلا أن هذه الثورة قد حفلت وسط الصور الدامية بصورة أخرى تتبطن بالمرودة والإنسانية ، ورقة الشعور . وقد ظهر هذا الطابع الإنساني أكثر ما يكون ظهوراً بين أفراد الطبقة المتوسطة من سكان القاهرة ، فقد أظهروا في أحلال

(١) يقول الجبرتى : « باشر السيد أحمد المحروقى ، وباق التجار ، ومسائير الناس ، التخلف والنقصان ، والماكل والشارب ، وكذلك جميع أهل مصر ، كل إنسان مع بنفسه وبه يحيى ما يملكه ، وأعان بعضهم ببعض ، وفعلوا ما في وسعيهم وطاقتهم من الممكنة » .

ج ٣ ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ٩١ - ٩٢ .

ساعات الثورة عواطف نبياة ، ومشاعر سامية ، حين آتوا في بيوتهم الفرنسيين العزل من السلاح ، وأضفوا عليهم الحجية ، وقدموا لهم ما كانوا في حاجة إليه من طعام ، في وقت عزت فيه الأقوات ، وتوقفت تماماً حركة البيع والشراء . وقد كشف الفرنسيون أنفسهم عن هذه الحقائق ، ومنهم من كان موجوداً بالقاهرة ، وشاهد أحداث الثورة . نذكر منهم دينو فيقا Denon Vivant (١)

فقد قال في كتابه : « لئن كان السوقه وبعض الكبراء ، وكل رجال الدين ، قد ظهروا متغصبين وقساة في ثورة القاهرة ، فإن الطبقة المتوسطة ، وهي في جميع البلاد أكثر الناس عملاً بأحكام العقل والفضيلة ، برئت على أسمى عواطف الإنسانية والكرم ، على الرغم من فوارق العادات والدين واللغة ، وهي فوارق جعلتنا أغراياً عنهم (أي عن المصريين) ، في بينما التحرير يض على القتل كان يجري من شرفات المآذن بغيرة دينية ، وبينما كانت شبح الموت والمذابح والأشلاء تتنقل في الشوارع ، كان جميع أصحاب المنازل التي يقطنها فرنسيون يسارعون إلى إنقاذهم وإخفاهم ، وإمدادهم بحاجتهم في الحال . أخبرتنا سيدة تقيم في الحي الذي نسكن فيه أن حائطنا هو حائط مشترك ، يفصل بينها وبيننا . وإذا هوجعنا فليس أمامنا إلا أن نهدمه ونأخذ إلى مقر الحرير في دارها : وحدث أن أحدنا أحد الجيران بالقوت مما كان يحتزنه لديه دون أن نرجوه في شيء من ذلك ، مع أنه لم يكن هناك شيء يمكن شراؤه في المدينة ، وكان كل شيء يوحى بقرب وقوع مجاعة . أزال هذا الحار كل العلامات

(١) كان دينو فيثا ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وعضوًّا بمجمع مصر العلمي . وقد اختار بونابرت قصر حسن كأشف شركس بالناصرية مقرًا لهذا الجمع ، وهو من أجمل قصور المالكية ، وأسستولى على التصور المجاورة له ، والتي كان المالكية قد شيدوها ، وقد خصصها بونابرت لسكنى أعضاء الجمع وبعثة العلوم والفنون ، كقصر قاسم بك ، وقصر إبراهيم كتخدا السناري ، وبيت أمير الجم ، المعروف بأبي يوسف ،

التي يمكن أن تدل على مكاننا وجلسنا ياسخن الشباك أمام بابنا ، ليصرف عننا
أنظار المهاجرين ويعملهم بعتقدون أن هذا المنزل هو داره^(١)

وأعند المؤلف يصف حادثا ثالثا ، على غرار الحادثين الأوائلين ، وخاص من ذكر هذه القصص الثلاث إلى القول بأنه « في الاستطاعة لإبراد عاقد من قصص أخرى ، تم عن رقة الإحساس ، وترهن على أن العواطف الإنسانية

(1) Si la papulace, quelques grands, et tous les dévots se montrèrent fanatiques et cruels dans la révolte du Caire, la classe moyenne, celle où dans tous les pays résident la raison et la vertu, fut parfaitement humaine et généreuse, malgré les mœurs, la religion et la langue, qui nous rendoient (*s/c*) si étrangers les uns aux autres: tandis que des galeries des minarets ou excitoit (*s/c*) sauttement au meurtre, tandis que la mort et le carnage parcourroient (*s/c*) les rues, tous ceux dont les Français habitoient (*s/c*) les maisons s'empessoient (*s/c*) de les sauver, de les cacher, de venir au-devant de leurs besoins. Une vieille dame du quartier où nous demeurions nous fit dire que notre mur étoit (*s/c*) mitoyen, que si nous étions attaqués nous n'avions que à l'abatre, et que son harem seroit (*s/c*) notre asyle (*s/c*). Un voisin, sans que nous l'en eussions prié, nous fit des provisions aux dépens des siennes, tandis qu'on ne trouvoit (*s/c*) rien à acheter dans la ville, et que tout annonçoit (*s/c*) la disette: il ôta tous les signes qui pouvoient (*s/c*) faire remarquer notre demeure, et vint fumer devant notre porte pour écarter les assaillants, en leur faisant croire que la maison étoit (*s/c*) à lui ”

Denon , Vivant; Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du Général Bonaparte. Paris, 1803, Quatrième édition, 2 vols., t. I, pp. 205-206.

(2) كان شابان يسيران في أحد الشوارع ، فاختطفهما أشخاص مجهولون ، وذهبوا بهما إلى أحد المنازل ، واعتقد الشابان أنها عاصمة قابل سقطان على أيدي هؤلاء الأشخاص ، ولما مني بعض الوقت دون أن يجدان لها سوء ، أعتقدا أن خاطفهما ينتظرون بهما لتهببا وسعيها ، يهدون أدراته وسوائله عن تهكير رؤيته ، ولمسا زرانا في سكر الاستهلاك الفاسد بين أثاثين ، ودن الشابين المخطوفين لاستهلاك اللذة بين الفريقيين . فقد أودع المخطوفون أولادهم المسمى آدرة ، ودليل على حسن ذيهم نحو هذين الشابين .

انظر : المرجع السابق ، نفس المزء ، ونفس الصفحة الأخيرة .

النبيلة تتجلى أشد ما تكون روعة في الأوقات التي يبدو فيها أن العلاقات بين
بني الإنسان قد انقطعت تماماً :

وقد أكد المؤرخ الفرنسي المشهور ريبو Reybaud الطابع
الإنساني في ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، وقال : « إن جميع الفرنسيين تقريباً الذين
التجأوا إلى بيوت الطبقة المتوسطة ^(١) ، قد وجدوا فيها أمناً تاماً » ، وضيافته صادقة
^(٢)
خالصة » ، وذكر القصص الثلاث التي سردها من قبله دينو فيشا ، وعقب
عليها بقوله : إنه قد وقعت حوادث أخرى كثيرة مشاهدة ، كشفت عن
عواطف إنسانية نبيلة ، تجلت في أفراد الطبقة المتوسطة من سكان القاهرة
الذين كان عليهم أن يقفوا في وجه مظاهر التعصب ، ولذلك فإن عواطفهم
الإنسانية النبيلة تكون أكثر قيمة ، وزناً وتقديرآ في مثل هذه الملابسات
التي عاش فيها أفراد الطبقة الوسطى . وأخيراً فإن هناك مؤرخاً فرنسياً محمدثاً
أشاد بالسلوك النبيل لبعض سكان القاهرة حين عرضوا حياتهم للأخطار وهم
ينفذون جنوداً فرنسيين كانوا محربين من السلاح ومعزولين عن زملائهم ،
وفوجئوا بالثوار يقبحون عليهم يريدون الفتائج بهم ، فأنقذهم أهل القاهرة من
موت محقق . وأخذ هذا المؤرخ الحديث يذكر نقلاً عن ريشاردو Richardot
^(٣)
بعض الأمثلة على هذا الشعور الإنساني .

(١) استخدم ريبو عبارة « المنازل التركية » les maisons turques وهو يقصد
منازل الطبقة المتوسطة من المصريين سكان القاهرة ، كما يفهم من سياق تعليقه المترجم إلى اللغة
العربية في سياق هذه الدراسة ، أما تعليقه كما سجله قلمه باللغة الفرنسية فكان :

Une foule de traits semblables révélerent, dans la classe
moyenne des habitans (sic) du Kaire, des sentimens(sic) d'humanités...

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 183 - 184

(2) Op. cit., p. 183.

(3) Bainville Jacques; L'Expédition Française en Egypte. (1798 - 1801).

dans:

Précis de l'Histoire d'Egypte. par divers Historiens et Archéo -
logues, 4 vols. Tome III, Le Caire, 1933, deuxième partie. pp. 150 -
151.

العلاقة بين الشيخ السادات والفرنسيين

ونرى أن نشير هنا إشارة سريعة إلى العلاقة بين الشيخ محمد السادات رئيس لجنة الثورة ، وبين رجال الاحتلال الفرنسي : كان السادات على رأس علماء الأزهر الذين رفضوا عضوية الديوان ، منذ اليوم الأول الذي أصدر فيه بونابرت قراراً بتشكيل ديوان القاهرة ، ومع ذلك فقد كان موضع رعاية خاصة من بونابرت . أهدى إليه بونابرت في أوائل شهر سبتمبر ١٧٩٨ خاتماً^(١) من الماسن ، كما كان يتردد عليه في داره القريبة من المشهد الحسيني ، ولكنه كان يتوجس خيفة من نشاطه ، ويحسب حساباً كبيراً لمكانته العالمية في المجتمع القاهري بالذات ، وكان يعتقد أنه "على صلات وثيقة بالأمراء المماليك ، وبعملاه السلطان ، وأنه يتلقى منهم رسائل سرية . وفي مذكرات بونابرت ما يشير إلى أن هنـا الاتهـام كان صحيحاً ، وأنه كان ضالعاً مع خصوم الحكم الفرنسي^(٢) ، ومع ذلك لم يكف بونابرت عن التودد إليه ، رغبة في استئصاله ، وقد أصدر بونابرت قراراً في ٢٣ من أغسطس ١٧٩٨ بتشكيل لجنة برئاسة الشيخ محمد السادات وعضوية كارلو دي روسي Carlo de Rosetti فنصل النسا العام ، والخزال چونو Junot من قادة الجيش الفرنسي للنظر في الظلامات التي يتقدم بها الأفراد من مصادرة ممتلكاتهم أو أموالهم . ونص القرار على أن تعقد هذه اللجنة جلساتها يومياً من الساعة الثامنة صباحاً^(٣) حتى الظهر : وقد رفض الشيخ السادات عضوية اللجنة . ولم يرد في المصادر الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة باشرت مهمتها . ويهمنا أن تعين الشيخ محمد السادات رئيساً لهذه اللجنة دليلاً على ما كان يكتبه بونابرت له من تقدير وإجلال

(١) الجرق ، مصدر سابق ذكره ج ٣ ، ص ١٧ .

(2) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 244-245.

(3) Correspondance de Napoléon ; t. IV, doc. no. 3093, en date du 6 fructidor, VI^e, année de la République. (23 août 1798).

عميقين ؛ كما يوجد بين أوراق بونابرت أمر أصدره في السابع عشر من شهر سبتمبر ١٧٩٨ إلى بوسيلج Poussielgue مدير الشؤون المالية بالجيش الفرنسي ، يوصيه خيراً بالشيخ محمد السادات ، ويطلب منه الإبقاء على جميع امتيازاته ، ومنها جميع القرى الداخلة في التزام الشيخ السادات ، والأراضي الزراعية ، والمرتبات المقررة له من قبل من ديوان الروزنامة . وعلى الرغم من مظاهر الاحترام التي أوصى بونابرت بإضافتها عليه ، فقد ظل ثابتاً على مبدئه ، لم يبدل له تبديلاً ، فرأس لجنة الثورة في أكتوبر ١٧٩٨ ،

ولما تم إخماد الثورة استجوب الفرساليون الشيخ محمد السادات ، فنفي عن نفسه تهمة التحرير على الثورة ، وقرر أنه كان مرضاً ، فلم يشرك في أحداها . ولم يأخذ بونابرت بهذا الدفاع ، وفكراً في توقيع عقوبة الإعدام عليه ، ولكنه عدل عن هذا الرأي ، لأنه أدرك أن الضرر من إعدامه أكثر من نفعه ، إذ أن إعدامه يجعل منه شهيداً في نظر الشعب ، وكان يظفر بالاحترام العميق ، والتقدير البالغ في كافة بلاد الشرق :

(1) "Le Cheih Sâdât avait reçu 25,000 paras de la Monnaie, par anticipation sur ce qui lui était dû, le 1^{er} de Moharrem; mon intention est qu'il ne soit pas recherché sur ces 25,000 paras, que vous l'assuriez que tous les villages qu'il possède lui resteront, et que les titres lui en seront remis au moment de l'enregistrement, enfin que vous traitez avec lui pour lui donner un équivalent, en terres, des pensions qu'il avait sur la Monnaie. Voyez-le ou écrivez lui pour tous ces objets".

Voir:

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3332, le 1^{er} jour complémentaire, VI^e année de la République. (17 septembre, 1798.)

(2) "... Il faudrait lui (le cheykh Sadât) faire couper la tête. Dans la situation des esprits, cette mort aurait plus d'inconvénients (*sic*) que d'avantages, son nom était vénéré de tout l'Orient; c'eût été en faire un martyr."

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., *qayr*, cit., t. I., p. 254.

وذكر بونابرت حديثاً مثيراً ، دار بيته وبين المخازل كامير ، وكان الأخير قد جاء من الإسكندرية ، وذهب لمقابلة بونابرت في مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في ٢٢ من أكتوبر ١٧٩٨ ، ووقع بصره على الشيخ السادات ، وكان يبدو على الشيخ أنه شبه مقبوض عليه .

بونابرت — إنه زعيم الثورة .

كاميرون — ولماذا لا تدعوه رمياً بالرصاص ؟

بونابرت — إن هذا الشعب مختلف عن شعبنا ، وعاداته تختلف عن عاداتنا . يجب أن يكون لهذا الشعب زعماء ، وإن أفضل أن يكون زعماً من مثل هذا الطراز الذي لا يستطيع أن يركب حصاناً ، أو يمسك سيفاً ، إن أفضل هذا الطراز من الزعماء ، على طراز زعماء مثل مراد باشا وإبراهيم باشا ، وإن إعدام هذا الرجل العجوز الضعيف لن ينجم عنه أي نفع ، بل سيكون له نتائج مؤسفة ، بالنسبة لنا ، غير ما تظن^(١) »

* * *

وتآزمت العلاقات مرة أخرى بين الشيخ السادات وبين بونابرت ، حين أمر الأخير في ٢٦ من يونيو ١٧٩٩ بعزل ملا زاده ابن القاضي العثماني ، واعتقاله في القلعة . اعترض الشيخ السادات على هذا القرار أمام رسول بونابرت ، وقال : إذا كان القاضي العثماني قد انضم إلى وكيل البشا ، وغادر معه مصر ، فيجب ألا يؤخذ ابن بما فعله الأب ، وهذا ابن من أبناء العائلات الكريمة وهو بعيد عن موطن الأصلي ، والدته وسائر أفراد أسرته في قلق زائد وحزن عظيم ، وأضاف إلى ذلك قائلاً : إن الفرنسيين يقولون دائماً إنهم أصدقاء للعثمانيين ، ولكن اعتقال ابن القاضي العثماني يعصف بهذا الادعاء ، ويسيء للطن بالفرنسيين ، ويكتنف أقوالهم في نظر المصريين :

(1) Op. cit., p. 257.

ولما عاد الرسول إلى بونابرت ، وترجم إليه ما قاله الشيخ السادات ، اشتد حنقه عليه ، وأمر بإحضاره ، وأنبه على موقفه ، وحجزه إلى ساعه متأخرة من الليل ، وتدخل كل من الشيخ محمد المهدي ، والمندوب الفرنسي (القوميسير) بديوان القاهرة ، واستطاعا تمثيله بونابرت ، وسيم لشيخ بالانصراف . قال الجبرتي : « فتكلما بهم ما الشيخ محمد المهدي ، ووكيل الديوان الفرنسياوي باليوان ، حتى سكن غيظه ، وأمره بالانصراف إلى منزله ، بعد أن عوقه حصة من الليل » :

* * *

واستمر الشيخ محمد السادات تمثيل فيه أروع صور المقاومة للاحتلال الفرنسي . لقى الكثير من صنوف المهانة والاضطهاد والتعذيب على أيدي الفرنسيين ، ولكن لم تان له قناة : كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية التي نشبت في ٢١ مارس ١٨٠٤ ، واستمرت ثلاثة وثلاثين يوماً ، وما أخذ الفرنسيون الثورة في ٢١ أبريل ، مستخدمين أعنف الوسائل ، من إحراء أحياط بأكملها ، وقصص شديد مركز بالمدفعية ، اعتقلوا الشيخ محمد السادات . وكان هذا الشيخ الجليل الطاعن في السن ينام على التراب ، ويتوسد الحجر ، وأمر الجنرال كليير بضربه ثلاثة عصا يومياً ، نصفها في الصباح ، ونصفها في المساء . وكان الجنود يضربونه أحياناً في حضور زوجته ، وإمعاناً منهم في إيلام الزوجة التي كانت تشاهد هذا المنظر ، والدموع تهمر من عينها . واحتسبه الفرنسيون بقدر كبير من الغرامات الخربية التي فرضها كليير على سكان القاهرة ، وصعد إليه في القاعة برلمى اليوناني أو برتقمان أو

(١) كان هذا المندوب هو جلوتـي Gloutier .

(٢) عوقة ، معناها حجزه .

(٣) انظر تفاصيل هذه الأزمة في الجبرتي ، ج ٣ ، ص ص ٧٢ - ٧٣ .

(٤) بلغت قيمة الغرامة اثنى عشر مليون فرنك ، يدفع نصفها نقداً ، والنصف الآخر عروضاً كالحلزونية والصحف وما إليها ، وكان نصيب الشيخ السادات من هذه الغرامة مائة وخمسين ألف ريال ، أى ما يقرب من ثمانمائة ألف فرنك ، وذلك بعد أن أضيفت إليه الغرامة المقرودة على الشيخ العتاني ، وكان الأخير قد هرب ؛ وكانت داره قد احتُفت .

« فرط الرمان » ، ومعه زين الفقار كتّخدا بونابرت^(١) ، فطلب منها الإذن له في النزول إلى داره ، لتدبير المال المطالب بدفعه ، وفاء للغرامة المفروضة عليه . قال الخبرى وهو يصور هذه المشاهد الدامية : « ونزل الشيخ السادات وركب إلى داره ، فذهب معه عشرة من العسكر ، وجلسوا على باب داره ، فلما مضت حصة من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر أيضاً ، فأركبوه ، وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان . فأرسل إلى عثمان باك البرديسى ، وتدخل عليه فشح فيه . فقالوا له : أما القتل فلانقتله لشفاعتك ، وأما المال فلا بد من دفعه ، ولا بد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ، وقبضوا على فراشه ومقدمه وحبسوهما ، ثم أزلوه إلى بيت قائم^(٢) ، فكثت به يومين ، ثم أصعدوه إلى القلعة ثانية^(٣) ، وحبسوه في حاصل ، ينام على التراب ويتوسد بحجره ، وضر به تلك الليلة ، فاقام كذلك يومين ، ثم طاب زين الفقار كتّخدا ، فطلع إلىيه هو وبرطمان : فقال لها أزلتني إلى داري حتى أسعى وأبيع متاعي وأشهد حال ، فاستأذنا له ، وأنزلوه إلى داره ، فأحضر ما وجده من الدرهم ، فكان تسعه ألف ريال معاملة ، منها ستة آلاف ريال فرانس ، ثم قوموا ما وجدوه من

(١) يقتضى النظام الذى وضعه بونابرت لديوان القاهرة الجديد الذى أنشأه فى ٢١ من ديسمبر ١٧٩٨ بعد تعطيل الديوان الأول ، أنشئت وظيفتان يائدوين ، أحدهما فرنسي وهو جلوتىء الذى سبق أن أشرنا إليه ، والآخر مسلم هو الأمير زين الفقار ، وكان يطلق عليه : كتّخدا بونابرت أو وكيل بونابرت وجاء فى وثائق بونابرت أن اسمه : ذو الفقار .

Carrespondance de Napoléon; t. v, doc. no. 3785, en date du 1er Nivôse an VII de la République (21 decembre 1798).

(٢) المقدم هو وكيل أعمال شخص كبير ، له نشاط واسع ، وتستخدم أيضاً بمعنى وكيل دائرة أعمال ، كما تستخدم في مجالات الطوائف والطرق الدينية بمعنى الشخص الموكل بإعطاء المعهد بالنيابة عن شيخ الطريقة .

(٣) حاكم القاهرة العسكري ، وقائد حاميتها .

(٤) الحاصل ، هو الغرفة التي تستخدم لخزن البضائع .

(٥) انظر ما ذكره نقولا ترك عن ختم بيته وسلاماته ، وكيف باع الفرنسيون أمتعته ص ٩٠ من الأصل العربي ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ثابت .

(٦) قوموا ، أي قدوا قيمتها أو ثمنها .

المصباح والفضيات ، والفراوى والملابس وغير ذلك بالخنس الثن ، فبلغ ذلك خمسة عشر ألف فرانسة ، فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات أحداً وعشرين ألف فرانسة ، والمحافظون عليه من العسکر ملازموه ، لا يترکونه يطلع إلى حرمه ولا إلى غيره . وكان وزع حرمه وابنه إلى مكان آخر ، وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتثرون ، ويحفرون الأرض على الخبايا ، حتى فتحوا الكنیفات ، ونزلوا فيها فلم يجدوا شيئاً ، ثم نقاوه إلى بيت قائمقام ماشياً ، وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا في الصباح ، ومتناها في الليل ، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوها ، فأحضروا محمد السنديني تابعه وقرروه حتى عاين الموت ، حتى عرفهم بمكانتهما ، فأحضروهما وأودعوا ابنه عند أغاث الإنکشارية ، وحبسو زوجته معه ، فكانوا يضربونه بحضورهما وهى تبكي وتصيح ، وذلك زيادة في الإنکاء : ثم إن المشايخ وهم : الشرقاوى ، والفيومي ، والمهدى ، والشيخ محمد الأمير ، وزين الفقار كتخدا ، شفعوا في نقلها من عنده ، فنقلوها إلى بيت الفيومي ، وبقى الشيخ على حاله ، وأخذوا مقدمه وفرشه وحبسوها ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا :::::::::: :: ، وأضاف الخبرى صورة أخرى من الاضطهاد الذى تعرض له الشيخ السادات فى الشهر التالى وهو المحرم ١٢١٥ (٢٥ مايو - ٢٣ يونيو ١٨٩٠) فقال « أصعدوا فى الخامس من محرم الشيخ السادات إلى القلعة ، وكان أرسـل إلى كبار القبط بأن يسعوا فى قضيته ورهن حصصه ، ويغلق الذى عليه ، فردوه عليه بأنه لا بد من تشليل قدر نصف الباقى أولاً ، ولا يمكن غير ذلك ، وأما الحصص فليست فى تصرفة ، ولما تكرر إرسـاله للنصارى وغيرهم ، نقلوه إلى القلعة ، ومنعوه الاجتماع بالناس ، وهى المرة الثالثة » :

(١) معناها المراحيس ، ومفردها كيف أى مرحاض ، وهى تجمع كتف بضم الكاف والنون

(٢) معناها أكرهوه على الاعتراف ، عن طريق التعذيب البدنى .

(٣) الخبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٤٨ .

(٤) معناها يسدد ما عليه .

(٥) الخبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

وقد أكد هذه الواقعة وزاد عليها الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وهو يتناول وقائع ثورة القاهرة الثانية ، فقال إن الفرنسيين «باعوا جميع متاع الشيخ السادات ، فلهم يف بثلث ما طلب منه ، فأخذنوا منه» في نظير الباقى التزامه وتعلقاته ، ماعدا العقار والرزق ، والتزام الحريم » .^(١)

ولبونابرت رأى خطير وصريح ، سجله في مذكراته ، إذ قرر أن سوء المعاملة التي لقيها الشيخ السادات كانت سبباً غير مباشر في قتل الجنرال كليبر . انتقاد بونابرت لإسراف الفرنسيين في تعذيب هذا الشيخ وإهانته ، عقب إخراجهم ثورة القاهرة الثانية ، وقال لأنفسهم تغافلوا عن مركزه الممتاز ، وتناسوا أنه ينتمي إلى الأسرة النبوية الشريفة : وقد كان للتسوة التي لقيها صاحب الميم في نفوس الشعب بعامة ، ورجال الأزهر بخاصة ، فلهم ينسوا ما فعله كليبر بالشيخ السادات : ولما جاء سليمان الحلبي إلى مصر معتزماً قتل كليبر ، أقام في الأزهر ، واستطالت إقامته في المسجد قرابة ثلاثين يوماً ، ولكن تجاهل الأزهريون نية القاتل ، ووقفوا موقفاً سليمياً ، فلهم ينظروا الساطات الفرنسيية بما يبيته سليمان الحلبي من خطط لاغتيال كليبر ، لأنفسهم كانوا يرجون انتقاماً ذريعاً من كليبر .^(٢)

وتعرض بونابرت مرة أخرى في مذكراته لهذا الموضوع ، فقرر أن ضرب الشيخ محمد السادات بالعصا أثار السخط العام بين علماء الأزهر ، وامتد هذا السخط إلى سائر قطاعات الشعب المصري ، وما لبث أن احتملت غضباً بلاد الشرق بأجمعها ، وقد دفع كليبر الثمن غالياً ، وانتقم مشايخ الأزهر

(١) الشيخ عبد الله الشرقاوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ص ٥٧ - ٥٨ .

(2) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. p.

منه انتقاماً قاسياً^(١). ولا يزال إلى اليوم بعض المؤرخين الفرنسيين يشاطرون بونابرت رأيه، وينسبون اغتيال الخراش كثيراً إلى سوء معاملته لشيخ محمد السادس^(٢) :

وللمرة الرابعة اعتقل الفرنسيون الشيخ محمد السادس ، وتم هذا الاعتقال في أوائل شهر مارس ١٨٠١ عقب وصول الحملة البريطانية إلى الإسكندرية في أول مارس ، وكانت بقيادة أميرال لورد كايث^(٣) Keith ، واستبد الانزعاج والاضطراب بالفرنسيين ، واستفسر الشيخ السادس عن سبب اعتقاله في هذه المرة الرابعة ، فكانت الإجابة ، أنه اشتهر بمحنته الشمديدة للفرنسيين ، وبقدرته على إثارة عواطف الجنود ، واستجابة الشعب له ، وهي ذرائع انتحلها الفرنسيون لتبرير اعتقاله . وقد ظل في الاعتقال إلى أن تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة ، ويقرر البرتقالي أن اعتقاله الأخير قد تم « من غير إهانة »^(٤) ، ونختلف مع البرتقالي في هذا الوصف ، لأنه ليس من الضروري أن تلحق الإهانة بجسم الإنسان ، فهوئ ما هو أبلغ من الإهانة الحسدية ، وهو إيلام النفس . لقد تعرض الشيخ السادس في أثناء اعتقاله لمحنة ألمة ، إذ توفي ابنه ، فلم يفرج الفرنسيون عنه ، وكل مافعلوه أنهم سمحوا له بالاشتراك في تشيع الجنائز ، ونزل من القلعة وهو تحت الحراسة ، ولما انتهت الجنائز أعيد إلى المعتقل ، وهو يبكي ابنه وفلدة كبدة ، وقد كان يعاق عليه أعدب

(١) ibid. t. II, pp. 349-350.

(٢) Bainville J; ouvr. cit., p. 151.

(٣) كانت هذه الممارسة تحمل جيشاً بريطانياً بقيادة الجنرال سير رالف أبراكومبي Sir Ralf Abercomby وتصحّبها بعض سفن المدفعية العثمانية ، وقوة بحرية عثمانية ، وقد ظهرت الممارسة تجاه الإسكندرية ، في أول مارس ، وألقت مراصيها في خليج أبي قير في صباح اليوم التالي ، وأُزيلت جنودها إلى شاطئ أبي قير في ٨ مارس .

(٤) البرتقالي، مصادر سبق ذكره، ج ٤، ٣ ص ١٥٠

الآمال . ذكر الجبرق وهو يترجم للشيخ محمد السادس السادات ، « ومات ولده
الذى كان سماه محمد نور الله ، وهو معوق ومبونع . فاذدوا له فى صدوره
جنازة ولده ، فنزل وصاحبته شخص حرس منهم ، فلازمه حتى واراه ،
وعاد به ذلك الحرسى إلى القلعة ، وكان هذا الولد مراهقاً . له من المهر اثنا
عشرة سنة ، كان في أمله أن يكون هو الخليفة في بيته من بعده . ويأبى الله
للا ما يريد » .

وبينما كان الشيخ السادس في معتقله يعاني آلام الوجدة والحزن . إذا به
ينقل إلى مسجد سارية بالقلعة . وفوجئ بوجود أربعة من كتاب المشائخ
علماء الأزهر معتقلين فيه ، وهم : الشرقاوى ، شيخ الخاتم الأزهر درئيس

(١) منها معتقل ، وهناك بعد طلاق تارىخي دان أذر : وما في ذلك أبوفت هو « ونسمع
الإنسان ثوت البشق » .

(٢) منها مطرد من ،

(٣) الجبرق ، مصدر مبنى ذكره ، ج ٤ ، سن ص ١٩٢ . ١٩٣ .

(٤) هو مسجد في قلعة الجبل ، بالقرب من زاوية الشيخ محمد التميمي ، وربه عليه مطرد ، وهو ذلك
جامع سيدى ساريه ، وتعلق على مصاحبه الآثار . مسجد سارية الجبل ، والشائع في الأزديق أنه إذا
المسجد ينسب إلى صاحب جامع هو ساريه بن قاسم ابن عم زيد بن خالد ، أو
نسبه إلى كنانة ، وقد استقر ضم ابن زيد في رسالته شاهد الصحاحي في مصر . فذكر هنري داود
سارية الجبل ، وقرر المتربي في سلطنة سعد ذكره موضوع المقام ، وذكر من رب المزارس ، أن
أبا الحسن الرديني دفن بخطف سارية . شرق قبة الدير واد بالقلعة ، وله مقام في ذلك ، أو في المقام
محمد التميمي مدفون بزاوية بالقرب من سيدى ساريه ، وابن زيد ، ١٥٢٨ هـ ، روى أن عاصمه
الصحابي الجليل جاء إلى مصر ، أو ذات يوم ، أو ذكر فيها ، وماربه أنا هو عاصمه . ثم ذكره
المشبور ، المنسوبة إلى عمر بن الخطاب ، وقد وردت هذه المقصود ، في قبة ، أو في المقام ، معه
الصحيحية . ويجمع فريق من الباحثين على أن إنشاء هذا المقام سمه إلى الله ، الهماطي ، على أهل
تقدير ، وأنه كان وضعه على الماء والملائكة والسد على لسان إبراهيم عليه السلام ، والذى يشهد
إليه التبرك به وحل أقضياتهم الهامة . وقد جدد بناءه سليمان باشا الخاتم للوالى العثمانى من قبل
السلطان سليمان المشرع سنة ١٥٢٨ هـ (١٩٣٥ م) ، وهذا المسجد مسجل في مصلحة الآثار المصرية
تحت رقم ١٤٢ (انظر : فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة ، طبعة سه ١٩٥١) ،

ديوان القاهرة ، والمهدى ، والصاوي ، والفيومى ، وكان الأمر قد صدر باعتقالهم في الساعة الرابعة من صباح ٢٥ مارس ١٨٠١، بعد أن تأكدت الأنباء بتدهور مركز الفرنسيين الحربي في مصر، ثم صدر أمر لاحق في أوآخر مايو ، باعتقال الشيخ محمد الأمير .

من يد من سياسة بونابرت الإسلامية

على الرغم من نشوب ثورة أكتوبر في القاهرة ، والدور القيادي الذي اضطاع به الأزهر في التخطيط لها ، وفي المشاركة في أحدهما ، مضى بونابرت في سياسته الإسلامية ، ولكن اتسمت هذه السياسة في الفترة التي أعقبت ثورة أكتوبر مباشرة بالتناقض ، فقد أمر بتحويل بعض المساجد إلى قلاع ، وهدم البعض الآخر لأغراض تبدو في ظاهرها لتجميل القاهرة ، ولكنها كانت خادمة للأغراض العسكرية ، بيمجاد طرق واسعة مستقيمة ، تستطيع القوات الفرنسية التحرك فيها بسهولة وسرعة ، لمواجهة سكان القاهرة إذا قاموا بشورة أخرى . وقد أساءت هذه الإجراءات إلى المشاعر الدينية لدى الشعب المصري

(١) نذكر على سبيل المثال : جامع الظاهر بيبرس ، جعل الفرنسيون منه حصيناً حصيناً ، وانحدروا من مثارته برجلًا ، ونصبوا على أسواره الضخمة مدفعاً ، ورابط الجنود بخيولهم داخل المسجد ، وأقاموا فيه مساكن ومتاجر عسكرية ، وأطلقوا على الجمامع « قلعة سلكوكوسي » Le Fort Sulkowski البرق ، هذه التسمية ، فكان يطلق على هذا الحصن تارة قلعة جامع الظاهر ، وتارة أخرى القلعة الظاهرية .

انظر كلام :

Guémard G.; Inscriptions françaises de l'enceinte du Caire.
Paris, 1929, p. 9.

La Jonquiére; ouvr. cit., t. III, p. 290,

البرق مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص من ٣٤ - ٣٣ .

(٢) نذكر على سبيل المثال: الجامع الجاود لقنة الدكوة غرب الأزبكية، هدموه بمحلة توسيع ميدان الأزبكية ، كما هدموا المساجد الجاودة لقنة إمبابة ، ومسجد المقس ، المعروف باسم مسجد أولاد عنان .

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 192-193.

واعتبرها إنها كما صارت خاتمة جديداً لأماكن العبادة . وأمرأً يتعارض مع تصريحه لعلماء الأزهر في مقابلة ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨ بأنه يريد أن تستدر إقامة الصلاة في المساجد بانتظام ، وعلى النحو الذي جرت به العادة من قبل . ولكن بونابرت كان يعتمد اعتماداً كلياً في تلك الفترة بالذات على حكم الإرهاب .

إعادة ديوان القاهرة

كان بونابرت قد عطل ديوان القاهرة ، كنوع من العقوبة لسكان القاهرة خلال فترة اشتدت فيها وطأة الإرهاب ، وترادفت المظالم ، وتواترت المحن على أهل القاهرة ، ثم ظهر له خططاً تعطيل الديوان ، إذ زادت الوحشة بين القاهريين والفرنسيين ، وسيطر شعور العداء على العلاقات بين الفريقين . وقد صور الأستاذ عبد الرحمن الرافعي الحالة النفسية التي حملت بونابرت على التفكير في إعادة ديوان القاهرة . فقال إنه « أدرك أن استمرار حكم الفزع والإرهاب في القاهرة يجعل البلاد كلها في هرج الثورة ومرجها ، ويزعزع الاحتلال الفرنسي ، ويصنه بالعجز عن إقرار الخواطر وتبذلها ، ورأى (بشاقب نظره) أن ليس في مقدوره حكم البلاد بقوة السيف والنار ، وتبين له من تجربة تعطيل الديوان أن لا سبيل إلى حكم الشعب دون وساطة زعمائه وكبارائه ، فعاد يفكر في إعادة الديوان بعد أن استمر مغطلاً أكثر من شهرين » . وقد أصدر بونابرت مشوراً في ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ بإعادة الديوان ، ووضع له

(١) أماناً تختلف مع الأستاذ الرافعي حين قال : إن نظره بونابرت في سنته للشعب المصري ، كانت دائمًا ثانية .

(٢) تاريخ الحركة القروية ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الطبعة الثالثة ص ١٠ .

(٣) وثيقة رقم ٣٧٨٥، تاريتها أول يوم من شهر نيسان من السنة السابعة من الندويم الجمهوري.

- ١٧٩ -

نظاماً جديداً ، بحيث يكون أكثر تمثيلاً لسكان القاهرة على اختلاف مهنيهم ،
وحرفهم ، ودياناتهم^(١) .

الاحتفال برؤية هلال شهر رمضان

أخذ بونابرت من أقرب موعد بداع شهر رمضان ١٢١٣ فرصة للتقارب
إلى سكان القاهرة ، جرياً على سياسته الإسلامية ، فأصدر أوامره إلى محاسب
القاهرة ، واسمه حسن أغاخرم ، بإقامة احتفالات رائعة ابهاجاً بحلول شهر
رمضان ، وأن تسير في شوارع القاهرة ليلاً الصيام المواكب الدينية التقليدية ،
ومواكب الطوائف ، يتصل بها شيوخها ونقباؤها ، وأعلامها وشاراتها ،
وأن تمر هذه المواكب بدار بونابرت ، ودار حاكم القاهرة العسكري ، ودار قاضي
القضاة ، ودار أمير الحجج . يقول الخبرني وهو يستعرض حوادث ٢٦ شعبان
١٢١٣ : «أعرض حسن أغاخرم المحاسب لساري عسکر أمير رکوبه المعتمد
لإثبات هلال رمضان ، فرسم له بذلك على العادة القديمة ، فاحتفل بذلك
المحاسب احتفالاً زائداً ، وعمل ولية عظيمة في بيته أربعة أيام ، أو لها السبت
وآخرها الثلاثاء ، دعا في أول يوم العلماء والفقهاء والمشايخ والوجاقيلة وغيرهم ،
وفي ثاني يوم التجار والأعيان ، وكذلك ثالث يوم ورابع يوم دعا أيضاً أكابر
الفرنساوية وأصحابهم . وركب يوم الثلاثاء بالأئمة الكاملة زيادة عن العادة ،
وأمامه مشايخ الحرف ببطولهم وزمورهم ، وشق القاهرة على الرسم المعتمد ،

(١) كان الديوان يتكون من هذين : الديوان الكبير أو العمومي ، ويتكون من ستين عضواً
عينهم الفرنسيون ، وتتضمن قرار إنشاء الديوان اسماءهم ، وكانوا يمثلون مجتمع القاهرة على
النحو الآتي : ١٤ من علماء الأزهر والمشايخ ، ٢٦ من التجار والصناع ، ١١ من العسكريين ،
٢ من مشايخ الأخطاط ، ٤ من الأقباط ، ٣ من الأجانب . والديوان الدائم أو المسؤول ، ويكون
من أربعة عشر عضواً ، ينتخبهم أعضاء الديوان العمومي من بينهم ، وقد انتخب الشيخ عبد الله
الشراوى رئيساً ، والشيخ محمد المهدى سكريراً .

(٢) أمتد شهر رمضان ١٢١٣ من ٦ فبراير ١٧٩٩ حتى ٧ مارس ١٧٩٩ .

ومن على قائم مقام ، وأمير الحج ، وساري عسكري بونابرت ، ثم رجع بعد الغروب إلى بيت القاضي بين القصرين ، فأثبتوه هلال رمضان ليلة الأربعاء ، ثم ركب من هناك بالموكب ، وأمامه المشاعل الكثيرة ، والطبلول والزمور والنقاير ^(١) والمناداة بالصوم ، وخلفه عدة خيالة عارية رعوهم ، وشعورهم مرحية على أقفيتهم بشكل بشغ مهول ^(٢) . وكتب بونابرت في ١٠ فبراير ١٧٩٩ إلى حكومة الديركنوار في باريس رسالة ضافية ، تناولت شئ المسائل ، وكان مما جاء به أنه احتفل بشهر رمضان احتفالاً بلغ أروع مظاهر العظمة ، وأنه قام بذات المراسيم التي كان يؤديها من قبل الباشا العثماني ^(٣) . ويلاحظ أن هذه الاحتفالات قد أقيمت خلال الأيام القليلة التي سبقت سفره إلى بلاد الشام على رأس الحملة العسكرية ، وكان قد غادر القاهرة في العاشر من فبراير (٥ من رمضان) ، ويلاحظ أيضاً أنه أمر المنادين بالمرور في شوارع القاهرة ، منذ أول يوم في شهر رمضان ، ينهون على المسيحيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم باحترام تقاليد شهر الصيام ، فلا يتجاهرون بالأكل أو الشرب ، أو التدخين في الأسواق ، أو بمرأى من المسلمين ^(٤) .

(١) النقاير : هي الطبلول الكبيرة الحجم .

(٢) الجبرق ، مصدر سابق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٣ .

(٣) وثيقة رقم ٣٩٥٢ مؤرخة في الثاني والعشرين من شهر پليسيوز من السنة السابعة من التقويم الجموري (١٠ من فبراير ١٧٩٩) من بونابرت إلى حكومة الديركنوار

Correspondance de Napoléon , t. V.

وقد جاء فيها :

«Le Ramazân, qui a commencé hier, a été célébré de ma part avec la plus grande pompe; J'ai rempli les mêmes fonctions que remplissait autrefois le pacha. »

(٤) سبق أن أشرنا إلى هذه النقطة عند الكلام على العامل الرابع من العوامل المساعدة على قيام ثورة أكتوبر ، وفضحيف هنا حادث اعتماد بالضرب وقع من أحد المتعمدين من سكان القاهرة ، عندما شاهد أحد المسيحيين يدخلن في أحد أيام رمضان ، فانهرب ، فرد عليه المسيحي وأغلظ له ==

الفرنسيون يجاملون المسلمين في شهر رمضان

جامعات السلطات الفرنسية المسلمين إلى حد بعيد في خلال شهر رمضان ^(١) ١٢١٣ (٦ فبراير - ٧ مارس ١٧٩٧) ، مما كان ووضع عجب المسلمين ودهشتهم ، ولا بد أن هذه المجاملات كانت بليغاعز من بونابرت قبل أن يغادر القاهرة إلى الشام في ٥ من رمضان . وتعددت ظاهر المجاملات ، وكان من بينها : « أن الفرنساوية صاروا يدعون أعيان الناس والمشائخ والتجار للإفطار والسحور ، ويعملون لهم الولائم ، ويقدرون لهم الموائد على نظام المسلمين عادتهم ، ويتولى أمر ذلك الطباخون والفراشون من المسلمين تطميناً لخواطرهم ، ويذهبون لهم أيضاً ويخضررون عندهم الموائد ، ويأكلون معهم في وقت الإفطار ، ويشاهدون ترتيبهم وتنظيمهم ، ويخذلون حذوهم ، ووقع منهم من المسابرة للناس ، وخفض الحانب ما يتعجب منه ، والله أعلم » :

ولاحظ الجبرتي أيضاً كنوع من مجاملات الفرنسيين لشعب المصري في شهر رمضان ١٢١٣ الحرية المطلقة التي تركها الفرنسيون لأهل القاهرة في ليالي هذا الشهر ، من فتح الأسواق وال محلات ليلاً « والذهب والمجيء ،

في القول ، فنزل المتعتمم من دااته وضربه « واجتمع عليه الناس ، وحضر حاكم الخطة ، فوفدهما إلى قائم مقام ، فسأل (أي استفسر) من النصارى الحاضرين عن عادتهم في ذلك ، فأخبروه أن من عادتهم القديمة أنه إذا استهل شهر رمضان لا يأكلون ولا يشربون في الأسواق ، ولا يمرأ من المسلمين أبداً ، فضرب النصراني ، وترك المتعتمم لسيله » .

انظر : الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

(١) كان بونابرت قبل سفره إلى بلاد الشام قد أصدر أمراً يتعين الجذر ال درجا حاكماً لـ القاهرة والوجه البحري ، ووكيله عنه في أثناء غيابه ، ويطلق عليه الجبرتي القائم مقام دوجا ، وكان يساعدته يوسف سليم مدير الشئون المالية ، وكان يشرف على الشئون الإدارية ، وقد ترك بونابرت للأون تعليمات ضافية عن الطريقة التي يتبعها في حكم القاهرة بالذات في أثناء غيابه ، وكان من بينها مجملة أحصاء الديوان ، وأحترامهم ورعايتهم .

انظر الوثيقة رقم ٣٩٥٠ .

وزيارة الإخوان ليلاً ، والمشي على العادة بالفوانيس ودونها ، واجتماع الناس للسهر في الدور والقهاوي ، ووقود المساجد ، وصلاة التراويح ، وطواف المسحرين ، والتسلی بالرواية والنقول ، وترجی المأمول^(١) .

وكان من بين هذه المجاملات إخلاء الطرق من العسكريين ، وعدم مرور المتخلفين منهم إلا في النادر ، واستهفاوهم بالليل جملة .

موكبكسوة الكعبة

وأمر بونابرت برصد اعتماد مالي كبير لعمل الكسوة الشريفة ، بحيث يزداد في زخارفها ونقوشها ، لتفوق في روعتها ميشلاتها التي كانت تصنع في مصر في العهود الإسلامية السابقة على دخول الفرنسيين البلاد^(٢) ، ويواوح أن السلطات الفرنسية قد تراحت في تنظيم موكب الكسوة بعد سفر بونابرت في حملته على الشام ، لأنه طبقاً للتقاليد التي سار عليها أهل القاهرة كان الاحتفال بالكسوة يتم في أول يوم سبت يحل بعد انتهاء شهر رمضان ، وانقضى هذا اليوم دون أن يحدث شيء ما ، وانهز المرجفون في المدينة هذا الموقف السامي للسلطات الفرنسية ، فأذاعوا أن الفرنسيين يزمعون إلى خاء الحج إلى بيت الله الحرام ، وكانت هذه أول سنة يحل فيها موسم الحج بعد الاحتلال الفرنسي لمصر ، وسارعت السلطات الفرنسية إلى الرد عملياً على هذه الشائعة ، وبلغت إلى وسيلة الإعلام المألوفة وقتذاك ، فأمرت المنادين بأن ينطلقوا في شوارع القاهرة في يوم الجمعة ٨ من شوال يذيعون أن الاحتفال بالكسوة

(١) الجبير، مصدر سابق ذكره، ج ٣، ص ٤٨.

(2) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 228-229.

(3) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit.; t. V. pp. 151-152.

الشريفة يم في اليوم الثاني (السبت ٩ من شوال ١٢١٣-١٦ من مارس ١٧٩٩)، وقد حرصت السلطات الفرنسية حرصاً بالغاً على إضفاء أهمية زائدة على موكب الكسوة، ليجيء بالغ الروعة، جاماً لظاهر العظمة، فأشركت في الموكب أفراد شئ الهيئات الرسمية: الدينية والمدنية والعسكرية بملابسهم الرسمية، وفرقة الموسيقى: يقول الخبرتي: «وفي ثامنه (شوال ١٢١٣) يوم الجمعة نودى في الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قرا ميدان^(١)، والتنبيه باجتئاع الوجاقات، وأرباب الأشair وخلافهم على العادة في عمل الموكب، فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس في الأسواق وطريق المرور، وجاسوا للفرحة، ففروا بذلك، وأمامها الوالي والمحتسب، وعليهم القفاطين والبيشات^(٢) وجميع الأشair بطبعهم وزموتهم وكاساتهم، ثم ببرطمانين كتحدا مستحنة ظان

(١) قرا ميدان: كلمتان معناهما الميدان الأسود؛ وهو يقع بين قلعة الجبل ومساجد السلطان حسن، والرفاعي، وال محمودية، وتقوم في وسطه حدائق صغيرة، وكانت توجد به مصطبسة الحمل، ويبدأ منها سير موكب الحمل، ويعرف هذا الميدان حالياً باسم ميدان صلاح الدين، وكان يطلق عليه في بعض الفترات سوق العصر.

(٢) الوالي، معناها هنا رئيس الشرطة.

(٣) القفاطين، بجمع قفطان، ومعناها هنا رداء رسمي كان يرتديه أصحاب المناصب الكبرى، أو الذين يعهد إليهم القيام بهمأ كبيرة، وجرت التقليد في العصر العثماني أن يقصد البشا العثاني هذا القفطان في حفل كبير يقام في القاعة، ويحل فيه الفرمان السلطاني بتقبيل المحافظ به المنصب، أو ترقيته إلى أمير طباخانة، أو الأمير الذي تدق له الطبول عند تحركته، لسموه مركزه، وينزل المحافظ به من القاعة، ورتدياً هذا القفطان في موكب رسمي إلى داره.

(٤) بيشات: بجمع بيشاش، وهو نوع من القفاطين، وصاحبها أقل مرتبة من صاحب القفطان.

(٥) جميع الأشair: معناها أفراد جميع طوائف الأشair، ويطلق عليهم أرباب الأشair، أو أصحاب الأشair، وتنتهي كل طائفة إلى أحد مشائخ الطرق الصوفية، ويذهب أفراد الطائفة معاً في الليل للأشتر الكاف في الاحتفالات التي تقام بمناسبة ولاد الأولياء، ولكل طائفة شعارها وعلمهها ويرتدى أفرادها زياً موحداً، ويتقىدهم حلة الطبلول، ومدفعاً فيها فحم موقد، يضعون فوقهما طبوكلاً بهة من الوقت، حتى يكون للطبل صوت داو.

(٦) الكاسات: هي قطع من النحاس مستديرة الشكل، في حجم الريال، تمسك في أصابع اليد، وتضرب كل قطعتين بعضهما ببعض، فينبعث منها صوت موسيقى إيقاعي، وهي لا تزال تستخدم في الرقص الشرقي بوجه خاص، ويطلق عليها «صاجات».

(٧) هو برلمي اليوناني، أو برتقمان، أو فرط الرمان، وكيل محافظة القاهرة،

وأمّا منه نفر اليونجكيرية من المسلمين نحو المائتين أو أكثر ، وعدة كبيرة من نصارى الأروام بالأسلحة ، والملازمين بالبراقع ، وهو لا يس فردة عظيمة ، ثم واكب القلقات ، ثم موكب ناظر الكسوة وهو تابع مدحه في كتّخدا البشا ، وخلفه النوبة التركية »^(١) :

ويتبين من كتابة الجبرتي أن السلطات الفرنسية وهي في حرصها على إضفاء مظاهر الأبهة على الموكب قد تخبطت في تنظيمه . فأشركت عناصر غير مرغوب في وجودها في مثل هذا الاحتفال الديني الإسلامي ، وبهذا الجبرتي تعليقاً لاذعاً على هذا التخبط الذي لازم سياسة الفرنسيين في تنظيم الموكب ، إذ يقول : « فكانت هذه الركبة من أغرب الموكب ، وأعجب العجائب ، لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال ، وتنوع الأحوال ، واجتماع الملل ، وارتفاع السفل ، وكثرة الحشرات ، وعجائب المخواقات ، واجتماع الأصداد ، ومخالفة الوضع المعتاد ». واضعف أن ما أثار الجبرتي هو

(١) معناها الإنكشارية .

(٢) سبق شرح هذا المصطلح التاريخي في ص ٨٧ ، هاشم رقم ٥ من هذه الدراسة .

(٣) ناظر الكسوة ، بمطلع تاريخي معاه مدير مصاححة الكسوة الشرفية ، وآمن مقرر هذه « المصلحة » في الكلمة ، فإذا انتهت العمل من صنعتها وزخرفتها ، نفاثات بها التأثير وعمقها ، مسجد الإمام الحسين ، وتودع به حتى يحين موعد قيام قادة الحج المصري ، هو في أنداده في أول النصف الثاني من شهر شوال ، فتنقل إلى المجاز في حراسة أمير الحج ، وسردار الحج . وآمن يتم نقل الكسوة الشريفة من الكلمة إلى المسجد الحسيني في استقبال رسمي ، بدأ من فرائد ذات أيام الكلمة ، ويكون أمير الحج وسرداره ، والأمراء المالكية ، وفرايدات بيتهن الاستئذان العلائق في انتظار إزالة الكسوة من الكلمة إلى حيث يبدأ الاحتفال ، ويزول الرأي من العامة إلى المساجد ، وتنقل أجزاء الكسوة على جمال مخصوصة لهذا النرض ، ويبدأ الموكب الرئيسي ، وآمن ، زاد ، أبيب بن الجبيش ، والموسيقى العسكرية ، والعلماء ، وأرباب الطلاق الصوفية ، وشيخ الطريقة ومن إليهم ، وينتهي الاحتفال عند مسجد الإمام الحسين .

(٤) معناها فرقة الموسيقى .

(٥) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

وجود برتلمي ، أو فرط الرمان ، في حفل ديني إسلامي ، واهتمام هذا اليوناني الشرس بالناحية المظهرية ، يصفها على شخصه :

رفع الأعلام على منارات الأزهر

مضى بونابرت يحاول إظهار توقيره للجامع الأزهر بشئ الوسائل التي تراعى له ، فلما احتل الجيش الفرنسي قلعة العريش في ٢٠ من فبراير ١٧٩٩ ، وهو في طريقه إلى عكا ، أرسل كتبة من الجنود إلى القاهرة تحمل الأعلام التي غنمتها في تلك القلعة ، وعهد إلى الجنرال دوجا نائبه في حكم مصر أن يرفعها على منارات الجامع الأزهر كوسيلة إعلامية بانتصار الفرنسيين ، وكتب إليه من العريش في ٢٢ من فبراير ١٧٩٩ يقول : «إنني أريد أن تقابوا الشقيق المهدى ، وشئ أعضاء الديوان ، وتنفقو معهم على إقامة حفل صغير لاستقبال الأعلام المرسلة إليكم . وإذا كان في الاستطاعة تنظيم هذا الحفل بطريقة طبيعية ، فضعوها في الجامع الأزهر إيدانًا بالانتصار الذي أحرزه جيش مصر على عساكر الخزار وأعداء المصريين » . ويعلق الأستاذ عبد الرحمن الرافعي على هذه الرسالة بقوله : « بهذه العبارة الرقيقة أراد نابليون أن يجذب إليه قلوب المصريين ، وأن يشعرهم السرور بانتصار الفرنسيين ، ولذلك تراه يعبر عن جيشه بأنه «جيش مصر» ، وأنه انتصر على الخزار ، وعلى «أعداء المصريين» ، ولا يمكن أن يعبر بأحسن من هذا الأسلوب ، لمحاولة اكتساب قلوب الشعب ، ولكن هيات أن ينخدع الشعب عن ذات نفس ^(١) بذات لسان » .

(١) الوثيقة رقم ٣٩٨٧ مورخة في الرابع من فانتوز من السنة السابعة من التقويم الجمهوري :

Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) الرافعي ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

ووصلت إلى القاهرة الكبيرة الفرنسية، وقوامها مائة جندى، يركبون الخيول،
ويحملون الأعلام التي غنمها الفرنسيون، ومعهم الأسرى من المماليك يركبون الحمير.^(١)
وكان في استقبالهم عند مشارف القاهرة، الأغا وهو محافظ القاهرة، وبرتامى
وكيل المحافظ، ومعهما « طبول وبيارق وطوانق »، ومشوا معهم إلى الأزبكية
من الطريق التي أحدثوها، ودخلوا بهم إلى بيت قائمقام، فأخذوا سلاحهم
وأطلقوا عليهم، فذهبوا إلى بيتهم ^(٢) :

ويصف الجبرتي الحفل الذي أقيم في ساحة الجامع الأزهر برفع الأعلام
على منارات الجامع، فيقول إنه في عصر اليوم الأخير من شهر رمضان ١٢١٣^(٣)
حضر عدّة من الفرنسيين ومعهم كثيرون من المشاة، وهم راكبون الخيول، وعدّة
من المعاشرة، وفيهم جماعة لابسون عمامات بيض، وجماعة أيضاً ببرانيط، ومعه
لغير ينفع فيه، وبيدهم بيارق، وهي التي كانت عند المسامين على قلعة
العرיש، إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر، فاصطفوا رجالاً وركباناً بباب
الجامع، وطلبو الشیخ الشرقاوى فسلموه تلك البيارق، وأمروه برفعها
ونصبها على منارات الجامع الأزهر، فنصبوا بيرقين ماؤزين على المنارة الكبيرة
ذات الهلالين، عند كل هلال بيرقاً، وعلى منارة أخرى بيرقاً ثالثاً، وعند
رفعهم ذلك ضربوا عدّة مدافع من القلعة بهجة وسروراً، وكان ذلك ليلة عيد
الفطر، فلما كان عند الغروب ضربوا عدّة مدافع أيضاً لإعلاماً بالعيد ^(٤) .

(١) يذكر الجبرتي أن عددهم كان مائة عشر ملوكاً، وأربعة كشاف.

(٢) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٥ - ٤٦.

(٣) كان يقابل يوم الخميس ٧ من مارس ١٧٩٩.

(٤) الجبرتي، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ٤٦ - ٤٧.

بونابرت يعلن عن عزمه على اعتناق الإسلام وبناء مسجد ضخم

ولما عاد بونابرت إلى القاهرة في ١٤ من يونيو ١٧٩٩ من حملة الشام طلب من أعضاء الديوان كتابة منشور يوجه إلى الشعب ، فكتبوا منشوراً ضافياً^(١) قال فيه الجبرتي : « إنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء » ، وقد تضمن هذا المنشور عرضاً مشوهاً لأحداث حملة بلاد الشام وأسباب عودة بونابرت إلى مصر ، ذكر منها سببين ، أولاً : « أنه وعدنا برجوعه إلينا بعد أربعة أشهر ، والوعد عند الحردين » ، وثانياً : نزوع المفسدين من المماليك والعربان ، إلى إثارة الفتنة في بعض أقاليم مصر ، ونصحهم بالإخلاد إلى السكينة ، ثم جاء في المنشور : « ولما حضر سارى عسكراً إلى مصر أخبر أهل الديوان من خاص وعام أنه يحب دين الإسلام ، ويعظم النبي عليه الصلاة والسلام ، ويحترم القرآن ، ويقرأ منه كل يوم باتفاق ، وأمر بإقامة شعائر المساجد الإسلامية ، وإجراء خبرات الأوقاف السلطانية ، وأعطي عوائد الوجاقلية ، وسعى في حصول أقوات الرعية ، فانظروا هذه الألطاف والمزايا ، بركة نبينا أشرف البرية ، وعرفنا أن مراده أن يبني لنا مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له في الأقطار ، وأنه يدخل في دين النبي المختار ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام » :

(١) كان الجبرتي يقصد من وراء هذا التأييج الشيخ محمد المهدي ، وقد ناقش كل من الأستاذ أحد حافظ عوض ، والأستاذ عبد الرحمن الرافعي هذه المسألة ، الاول عرضها ، والثانى وهو يترجم للشيخ المهدي .

انظر : فتح مصر الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٨ .

تاریخ الحركة القومیة ، مرجع سبق ذکرہ، ج ۲، ص ۲۷۶ .

(٢) أي دفع المخصصات المقررة للعسكريين غير الفرنسيين .

(٣) الجبرتي ، مصدر سبق ذکرہ، ج ۳ ، ص ص ٧١ - ٧٢ .

وقد أورد هذا المنشور المعلم نقولا ترك في مذكراته ، نشر وترجمة الأستاذ فيث ، ص ص ٥ - ٥٤ ، وزاد عليه أسماء المؤقتين عليه ، وكأنه حسب الترتيب الآتي : السيد خليل البكري نقيب الأشراف ، الفقير عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان ، الفقير محمد المهدى كاتم سر الديوان ، الفقير مصطفى الصاوى خادم العلم ، الفقير سليمان القبوى خادم العلم ، على كاخيه باشى اختيار مستحفلان ، يوسف باشى جاويش تفكمجيان ، السيد أحد الحروق ، =

ولم يخدع المصريون بما جاء في هذا المنشور ، واعتقدوا أنه مجرد دعاية كاذبة مضللة ، لاستهلاك إلى جانب بونابرت ، وكان تعليقهم عليه تعليمةً قاسياً ، أثبتته المعلم نقولا ترك ، وأشارنا إليه من قبل في هذه الدراسة ، ودامت الأحداث على أن بونابرت لم يعتنق الإسلام ، ولم يشيد مسجداً^(١) .

= وأورد هذا المنشور أيضاً الأستاذ أحمد حافظ عوض ، وزاد عليه نشر صدورتين بالزفوجراف ، إحداهما للنص العربي ، والآخر للنص الفرنسي .

الناظر : أخذ حافظ عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٥ .

(١) خاص بونابرت في أحاديث صافية مع علماء الأزهر ، كان يبدي فيها رغبته في اعتناق الإسلام ، وذكر أن في استطاعته أن يجعل أفراد الجيش الفرنسي يعتقدون الإسلام ، بناء على أمر يوم بسيط *un simple ordre du jour* يصدره لهم ، كما أعلن عن عزه على بناء مسجد شيخ يطلق عليه اسم مسجد السلطان الكبير ، وكان يخلو له أن ينبعث نفسه بهذا اللقب ، ويلاحظ أن الجبرتي امتنع تماماً عن الإشارة إلى هذه التسمية ، وكان بونابرت دائم الشكوى لضم من الخطيب غير الودية التي كان يلقاها أئمّة المساجد في خطب الجمعة ، وقرر أنه كثيراً ما طلب من أعضاء الديوان أن يوقفوا هذه الحملة الوجهة ضد الفرنسيين ، ولكن اتفصح أن اتصالات أعضاء الديوان بأئمّة المساجد لم تكن مبشرة ، ثم قال لهم في إحدى الجلسات : « لا بد أن نضع حدأً لهذه الفتنة ، أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تأمر الناس بأن يخلفوا يمين الطاعة لي » . فتصدى له الشيخ عبد الله الشرقاوي ، وطالب منه تنفيذه وعده باعتناق الإسلام ، وحبب له هذه الخطولة ، وزينها في قلبه ، وقال له إنه إذا اعتنق الإسلام الضوى تحت لوائه مائة ألف عربي في البلاد العربية واستطاع أن يفتح بهم الشرق . وكانت ذريعة بونابرت في التسويف أن هناك عقبتين تحولان دون اعتناقها هو وجنوده الإسلام ، هما تحريم شرب الخمر ، وضرورة إجراء عملية الختان ، وتساهم علماء الأزهر ، فقالوا إنه من الممكن التجاوز عن هذين الشرطين بصفة مؤقتة ، فلما ضيغفوا عليهما الخطأ طلب منهم مهلة سنتين ، يعتاد خلالها الجنود التصاليد الإسلامية ، ثم يعتقدون الإسلام .

وما هو جدير بالذكر أن الجبرتي قارن بين اشتئار الفرنسيين بثقافيات الأديان ، وبين تمسك الإنجليز بأهداب الدين ، وكان مسا سجا في هذا الصدد : « إن الفرنسيوية لا يتدبرون بدين ، ويهملون بالطهارة والتسموية ، وأما هؤلاء الإنكليز فإنهم نصارى على دينهم ، ولا تخفي عداوة الأديان . »

انتظر كلاماً :

الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 215-217.
Bainville J.; ouvr. cit.; p. 147.

بونابرت يقرر : علماء الأزهر هم أغزر علماء الإسلام علينا لما أصبح العداء سافراً بين الفرنسيين والعمانيين ، انتهز بونابرت فرصة خروج قاضي القضاة العثماني على الفرنسيين ، وأعلن قراره بعد عودته من الشام ، بتمصير منصب قاضي القضاة في مصر ، وشغلها بالشيخ أحمد العريشى من علماء الأزهر^(١) ، وفي منشور مؤرخ في ٢٧ من يونيو ١٧٩٩ وجهه بونابرت إلى أعضاء ديوان القاهرة قال فيه إنه رأى تمثياً مع روح القرآن الكريم أن «يعهد إلى العلماء باختيار القاضي من بينهم ، وإن الشيخ العريشى الذي وقع عليه اختياركم أصبح متقدراً منصب القضاء ، وإن الخلفاء الدين كانوا يتصرفون طبقاً لأحكام القرآن كانوا يتولون الخلافة بانتخاب جمهور المؤمنين » ، ثم صارحهم فيه بزوال السيادة العثمانية على مصر ، وقال إن حكومة العثمانيين أشد ظلماً من حكم المماليك ، إلى أن قال : « وهل يوجد إنسان يعتقد أن علماء مصر المولودين هم ليس فيهم من تؤهله كفايته وفضائله إلى الأضطلاع بمنصب قاضي القضاة؟ » ، وأمر بونابرت بإقامة حفل تكريماً للشيخ أحمد العريشى ، دعا إليه أعضاء الديوان العمومي والعلماء والأعيان من غير أعضائه ، وفي الحفل

(١) كان بونابرت قد عهد إلى العمامه مع أعضاء الديوان بالانتخاب مصرى يحل محل قاضي القضاة العثماني ، فدعا الشيخ أحمد العريشى أغلبية الأصوات ، إذ ظفر بستة عشر صوتاً ، من ثلاثة وعشرين صوتاً .

(٢) وثيقة رقم ٤٢٤ مؤرخة في التاسع من ميسيلدور من السنة السابعة من التقويم الجمهوري ، المفسر :

Correspondance de Napoléon, t. V.

وقد نشر الجيرق هذا المنشور على النحو الذى عربه متوجو الحملة ، وتلى في الديوان ، وكأنه ما جاء فيه شخصاً بپنهان السيادة العثمانية ، والإشادة بكمالية علماء الأزهر : « وعرفوا أهل مصر أنه القضاة وفرغت دولته العثمانية من أقاليم مصر ، وبطلت أحكامها منها ، وأخبروهن أن حكم الشيش أشد تبعاً من حكم المماليك ، وأكثر ظلماً ، والواقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبر وكفاية ، وأهلية لأحكام الشرعية ، يصلحون القضاة أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم ... » ، انظر الجيرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٣ .

خلع بونابرت خلعة ثمينة على قاضى القضاة الذى خرج فى موكب حافل ، أمر بونابرت بتنظيمه له فى ذهابه إلى دار المحكمة الكبرى بين القصرين ،
 ليتقلد مهام منصبه . ووجه بونابرت مانشوراً مؤرخاً في ٣٠ من يونيو ١٧٩٩ إلى
 حكام الأقاليم يأمرهم تبليغ الدواوين نبأ انتخاب الشيخ أحمد العريشى لمنصب
 قاضى القضاة ، وتأسيساً على هذا الانتخاب ينبغى أن يتلى قضاة الأقاليم تقاديم
 القضاة من قاضى القضاة المصرى ، وأعلن أيضاً في هذا المنشور زوال السيادة
 العثمانية على مصر ، وكان ممـا قاله في هذا الصدد : « على حكام الأقاليم أن
 يوضّحوا للأعيان بأنه قد آن الأوان لإنهاء الحكم العثمانى الذى هو أشد ظلاماً
 من حكم المماليك ، إن مما يتنافى مع روح القرآن أن يتولى القضاة في مصر
 رجال من الآستانة لا يعرفون لغة البلاد ، إن الآستانة لم تعرف الإسلام إلا بعد
 مضي ثلاثة أو أربعة قرون من وفاة الرسـول ، ولو بعث الرسـول من
 جديد فلا يختار الآستانة لرسالته ، بل يختار القاهرة ، هذه المدينة المقدسة
 على ضفاف النيل ، وإن الرئيس الذى للإسلام هو صديقنا شريف مكة ،
 كما أن علماء القاهرة هم بلا منازع أعلم علماء الإسلام ، إن القائد العام
 يريد أن يكون القضاة كلهم من أبناء مصر ، لهم إلا أن يكونوا من
أشراف مكة والمدينة» .^(٢)

(١) انظر أمرأً أصدره بونابرت إلى المحاكم دولجافى ٨ من شهر ميسيدور من السنة السابعة
 من التقويم الجمهورى (٢٦ من يونيو ١٧٩٩) بتنظيم هذا المثلـل .
 الوثيقة رقم ٤٢٢١

Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) وثيقة رقم ٤٢٣٨ مؤرخة في ١٢ من ميسيدور من السنة السابعة للتقويم الجمهورى

Correspondance de Napoléon, t. V.

وما يذكر في هذا الصدد أن بونابرت تسأله في مذكراته : « كيف تكون مصر جنة الله
 في أرضه ، وبـلـاد الحجاز مهبط الوحي ، خاصـعـين لـشـعـبـ خـرـجـ منـ بـلـادـ القـوـقـازـ ؟ ، وإـذـا فـرـضـ
 أنـ مـحـمـداـ «ـ صـلـواتـ اللهـ عـلـيـهـ »ـ قـدـ بـعـثـ الـيـوـمـ ، فـإـلـىـ أـيـنـ يـلـهـبـ ؟ـ هـلـ يـلـهـبـ إـلـىـ مـكـةـ ؟ـ كـلـاـ ،ـ لـأـنـهـاـ
 لـمـ نـعـدـ عـاصـمـةـ لـدـوـلـةـ إـسـلـامـيـةـ .ـ هـلـ يـلـهـبـ إـلـىـ الـآـسـتـانـةـ ؟ـ كـلـاـ ،ـ لـأـنـهـاـ مدـيـنـةـ دـنـسـةـ profane ،ـ

١٩١

إسهام بونابرت في احتفالات المولد النبوى الشريف

كان إسهام بونابرت في احتفالات المولد النبوى الشريف ، والتى أقيمت فى القاهرة فى شهر أغسطس ١٧٩٩ آخر مظهر عملى وشخصى لسياساته الإسلامية ، قبل أن يغادر مصر نهائياً إلى فرنسا فى ٢٢ من أغسطس ١٧٩٩ ، وقد حرص على إضفاء مظاهر الروعة والعظمة على هذه الاحتفالات ، فأمر بأن تشارك فيها وحدات من الجيش الفرنسي والموسيقات العسكرية ، وأن تقام احتفالات أمام مقر القيادة العامة للجيش فى الأزبكية ، وأن تقام الزينة ، وتقد القناديل ، وأن تطلق المدفع نهاراً ، والصواريخ والألعاب الناريه ليلاً ، على غرار ما اتبع فى احتفالات المولد النبوى فى العام السابق (١) قال الجبرى : « وفي يوم الثلاثاء حادى عشر من ربيع أول ١٢١٤ عمل المولد النبوى بالأزبكية ، ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وعشوا عنده ، وضرروا بركرة الأزبكية مدفع ، وعملا محرقة وسواريخ ، ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة ، وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً ، ولسراج قناديل ، وأصطناع مهرجان » .

بونابرت يضيف جديداً إلى احتفالات المولد
وقد أضاف بونابرت جديداً إلى احتفالات المولد النبوى فى سنة ١٧٩٩ بالنسبة لاحفالات العام السابق ، فقد حرص على أن يشهد لها مصطفى باشا

ـ يزيد فيها عدد الكافرین على عدد المؤمنین ، ولو ذهب إليها لأصبح فى وسط أعدائه ، إنه بلا شك يفضل مياه النيل المقدسة ، وينزل في الجامع الأزهر ، وهو أول مفتاح للكعبة المقدسة » .

انظر :

Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t.I., pp. 215-216.

(١) كان هذا التاريخ المجرى يقابل فى التقويم الميلادى الثالث عشر من أغسطس ١٧٩٩ ،

(٢) الجبرى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

قائد الجيش العثماني وضباطه الذين وقعوا في الأسر في معركة أبي قير البرية ، كما حضرها الضباط العثمانيون الذين أسرهم الجيش الفرنسي في حملته على بلاد الشام . وذكر بونابرت أن العظمة التي تجلت في احتفالات المولد قد بهرت مصطفى باشا وسائر الضباط العثمانيين ، وأطلق بونابرت سراح بعض أولئك الضباط ، وأوفدهم في صبيحة اليوم التالي لليلة الختامية للمولد إلى الآستانة وإلى مكة المكرمة ، ليقلعوا إلى الساطعات هناك تفاصيل الاحتفالات بالمولد النبوى ، وما اقرنـت به من مظاهر الأبهة والعظمة . وأرسل بونابرت إلى الحكام الفرنسيين في أقاليم مصر ، يطلب منهم توزيع منشورات باللغة العربية على الأهالى تصف لهم الاحتفال العظيم الذى أقيم فى القاهرة ب المناسبة المولـد النبوـى الشـرـيف ، وأن القـائـمـ العـامـ قد استـمعـ لـقصـةـ المـولـدـ ، وكـانـ يـحـفـ بـعـنـ يـمـينـ وـشـمالـ كـبـارـ المشـاـيخـ عـامـاءـ الأـزـهـرـ .

تصرفات بونابرت الأخيرة ودلائلها

ويلاحظ أن احتفالات المولد النبوى الشريف التى أقيمت بالقاهرة فى سنة ١٧٩٩ قد وقعت فى خلال الأيام السبعة التى قضتها بونابرت فى العاصمة منذ وصوله إليها من الإسكندرية فى الحادى عشر من أغسطس ١٧٩٩ عقب انتصاره فى معركة أبي قير البرية ، وبين رحيله نهائياً من القاهرة فى الشـامـ عشر من أغسـطـسـ ، وهـىـ فـتـرةـ قـصـيـرـةـ تـزـاحـمـتـ فـيـهاـ الأـعـمـالـ عـلـيـهـ ، لأنـهـ كانـ يـعـدـ فـيـ الـخـفـاءـ مـعـدـاتـ سـفـرـهـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ ، وـيـضـعـ التـرـيـبـاتـ الـعـسـكـرـيـةـ وـالـإـدـارـيـةـ الـتـىـ تـسـيرـ عـلـيـهـ الـحـمـلـةـ مـنـ بـعـدـهـ فـيـ حـكـمـ مـصـرـ ، وـفـيـ الدـافـعـ عـنـهـ ، وـلـكـنـهـ استـطـاعـ وـسـطـ هـذـهـ المـشـاغـلـ إـلـجـاسـمـ أـنـ يـدـبـرـ مـنـ وـقـتـهـ مـتـسـعـاً لـوـضـعـ الـلـمـسـاتـ

(1) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. II, p. 149.

(2) Loc. cit.

(3) Correspondance de Napoléon, t. V., doc. no. 4362.

١٩٣ -

النهاية لاحتفالات المولد ، والإسهام بشخصه في حضورها ، ويأمل هذا
السلوك على منتهى البراعة والدهاء من جانب بونابرت ، لأنه ظل حتى أواخر
أيام إقامته في مصر يتظاهر أمام الشعب المصرى بالاحترام العميق للدين الإسلامى
ولرسول الله صلوات الله عليه :

واستهدف بونابرت من هذا السلوك غرضاً جديداً ، هو تأكيد سياسته
الإسلامية للقائد الذى قر رأيه على أن يعهد إليه بقيادة الحملة من بعده ،
وهو الجنرال كليبر ، وقد أراد بونابرت أيضاً أن يكون مسلكه قدوة يحتذىها
قادة الجيش ، والحكام العسكريون فى الأقاليم المصرية . والحق أن بونابرت ،
في أوامره إلى رجاله فى شتى جهات مصر ، كان يحرص على التنبيه عليهم
باظهار الاحترام لعقيدة المصريين الدينية وتقاليدهم :

بونابرت يوصى خلفه خيراً بعلماء الأزهر

وفي يوم رحيله من الإسكندرية إلى فرنسا ترك رسالة ضافية ، مؤرخة
في ذات اليوم وهو الخامس من شهر فرuctidor من السنة
السابعة من التقويم الجمهوري الفرنسي (٢٢ من أغسطس ١٧٩٩) إلى الجنرال
كليبر ، شرح له فيما الخطة التي يسير عليها في حكم مصر ، وكان مما جاء
في هذه الرسالة عن السياسة الإسلامية : « وإنكم تعرفون ، أيها المواطنون
القائد ، نظرتى إلى السياسة الداخلية لمصر ، ومهما تفعلون فستجدون المسيحيين
دائماً أصدقاءنا ، ولكن يجب منهم من أن يتتجاوزوا حدود الأدب مع
مواطنهم ، والاستخفاف بهم ::::: وإذا حصلتم على ثقة كبار مشائخ القاهرة
كسبتم الرأى العام في مصر كلها ، ومن بين الزعماء الذين يمكن أن يتخذهم
هذا الشعب قادة له ، ليس هناك من هم أقل خطراً من المشايخ الذين هم قوم

هيابون ، لا يعرفون القتال ، ولكنهم — شأنهم في ذلك شأن القسيسين —
يوحون بالتعصب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متتعصبين^(١) .

وفي ذات اليوم الذي غادر فيه بونابرت مصر نهائياً ، وجه رسالة من الإسكندرية إلى أعضاء ديوان القاهرة ، وقد استهلها بهذه العبارة : « إلى ديوان القاهرة المختار من بين أكثر الناس استئناراً ، وأكثرهم تعفلاً » ، وذكر لهم أسباب سفره إلى فرنسا على النحو الذي أراد أن يصوره لهم ، وأخبرهم أنه سوف يعود إلى مصر، ثم قرر أنه عهد بالقيادة العامة في أثناء غيابه إلى الجنرال كليير ، « وهو رجل ذو صفات ممتازة ، وقد أوصيته أن يحفظ للعلماء والمشايخ ما كتت أحفظه لهم من المحجة والود . فابلدو ما في وسعكم ليثق به الشعب المصري ثقته بي ، ولدي عودتي بعد شهرين أو ثلاثة أشهر أكون راضياً عن الشعب المصري ، ولا أحمل للمشايخ إلا المديح وحسن الجزاء » ، ويختلف نص هذه الرسالة عن النص الذي أورده الجبرتي ، وينحصر هذا الاختلاف

(1) "Vous connaissez, citoyen Général, quelle est ma manière de voir sur la politique intérieure de l'Egypte. Quelque chose que vous fassiez, les chrétiens seront toujours nos amis. Il faut les empêcher d'être trop insolents (*sic*) En captivant l'opinion des grands cheyks du Kaire, on a l'opinion de toute l'Egypte; et, de tous les chefs que ce peuple peut avoir, il n'en est pas de moins dangereux que des cheyks qui sont peureux, qui ne savent pas se battre, et qui, comme tous les prêtres, inspirent le fanatisme sans être fanatiques".

انظر الوثيقة رقم ٤٣٧٤ في الجزء الخامس من مراسلات نابليون .
وأنظر أيضاً :

Reybaud Louis et autres ; ouvr. cit., t. VIII. pp. 295 - 302.

(2) انظر الوثيقة رقم ٤٣٧٧ في الجزء الخامس من مراسلات نابليون .
وأنظر أيضاً :

La Jonquière; ouvr. cit., t. V, p. 607.

في أن رواية الجبرتي لم ترد فيها إشارة إلى وصية بونابرت للقائد كليلير بمجامدة علماء الأزهر ، ومرد هذا الاختلاف إلى أن الجبرتي باعترافه ذكر « مضمون الكتاب » :

ذلك هو مدى حرص بونابرت على إظهار آيات الود والاحترام والتقدير لعلماء الأزهر ، لم يفته أن يسجله في ذات اليوم الذي اتخذ فيه طريقه في البحر سرياً ، من بقعة مهجورة على شاطئ سيدى جابر بالإسكندرية ، وفي ظلمة الليل ، خوفاً من أن يكتشف الأسطول الإنجليزي أمره ، ويظفر به صياداً ثميناً ، ويغدو أخيناً أسيراً ، يعيش في ذل الإسار ، سين عدداً :

* * *

حقيقة العلاقات بين الأزهر والاحتلال الفرنسي

يرى البعض أن الأزهر كان أول هيئة دينية إسلامية تعاونت مع الاحتلال الفرنسي عقب دخول الفرنسيين القاهرة في يوليو ١٧٩٨ ، تأسساً على أن فريقاً من كبار المشايخ علماء الأزهر قد قبلوا عضوية ديوان القاهرة الذي أنشأه بونابرت . كان تفوق الفرنسيين عسكرياً هو العامل الأهم الذي أدى إلى تمكينهم من البلاد . وواجه علماء الأزهر - بصفتهم زعماء الشعب - الموقف

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

(٢) يذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ إلخامن الأزهر ورئيس ديوان القاهرة سرياً آخر ، إذ يقول : « والسبب الذى أوجب لأهل مصر وقرابها بعض الانقىاد إليهم ، عجزهم عن مقاومتهم ، بسبب هروب المالكى الذين منهم آلات القتال » .

انظر كتابه : تحمة الناظرين ، فيمن ولى مصر من الولاة والسلطانين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

ورأى الشرقاوى مردود عليه بأن السلاح الرئيسي لدى المالكى كان سلاح الفرسان ، بينما القوة الضاربة الرئيسية لدى الفرنسيين كانت سلاح المدفعية ، وهو سلاح فتاك ، كفل للفرنسيين الانتصار الخاطف في المعارك التى خاصوها ، سواء فى شباريس أو فى إمبابة أو فى غيرها ، وكان سلاح الفرسان يمثل سلاح العصور الوسطى ، بينما كان سلاح المدفعية يمثل العصور الحديثة ، ومن ناحية أخرى فإن هروب المالكى الذى أشار إليه الشرقاوى هو حكم عام ، لا يتسحب على جميع =

على علاته بعد دخول الفرنسيين القاهرة ، وهم لا يستطيعون لهم دفعاً ، وظهرت عدة بواعث أملت على هذا الفريق من كبار علماء الأزهر قبول عضوية ديوان القاهرة : كان « النظام الجديد » le nouveau régime جاءت به الحملة الفرنسية ينفيق عن دولة مسيحية أوروبية هي الجمهورية الفرنسية ، وكان على رأس النظام الجديد في مصر الجنرال بونابرت ، وهو مسيحي أوروبي ، ويعاونه في حكم البلاد كبار القادة الفرنسيين ، وهم على شاكلته ، وكان لامناص من تعليم هذا « النظام الجديد » بالقاح إسلامي، وتمثل هذا القاح في كبار المشايخ علماء الأزهر ، الذين وقع عليهم الاختيار لعضوية ديوان القاهرة ، ليشاركوا في حكم الشعب المصري عن طريق إبداء المشورة وبخاصة في مسائل الشريعة الإسلامية : أدرك بونابرت هذه الحقيقة ، كما أدركها علماء الأزهر ، وقد أفصحت بونابرت عن هذا الاتجاه في مذكرةه التي أشرنا إليها في مسهل هذا البحث ، ونقلنا فقرات منها معربة ، وذكرنا جزءاً

= الماليك ، لأنه إذا كان الأمير إبراهيم بك قد هرب إلى الشرقية ، فإن الأمير مراد بك قد السحب إلى الصعيد ، وفارق كبير بين هروب قائد وبين انسحاب قائد ، وقد انسحب مراد بك ليجد تنظيم قواته ، ويحاود النصارى من جديد ، وقد رفض عرض بونابرت في أكتوبر ١٧٩٨ بعقد صلح معه ، على أساس تخويف مراد بك حكم الصعيد ، من شلال أسوان جنوباً ، إلى ما يلي جرجا شمالاً بنصف فرسخ ، على أن يكون تابعاً لفرنسا ، وأن يدفع خزانة الجيش المراج المقرر على هذه الأقاليم . وكان مراد بك مصدر متابعته بمنطقة الفرنسيين ، تجنب الاشتراك معهم في معارك حاسمة ، وبالإلى نوع من الحرب يجيده الماليك وهو حرب الكر والفر ، وكان إذا أدرك أن المسركة تدور في غير مصلحته ، انسحب إلى الصحراء ، أو إحدى الواحات ، ليسترد ألقابه ، ويبيّد تنظيم صفوفه ، ثم يعيده الكرة على الفرنسيين ، وإنضم إليه أهالي الصعيد المسلمين ، وكذلك مرت الحجاز الذين تطوعوا للدفاع عن مصر ، وعبروا البحر الآخر من جهة إلى التصیر ، واجتازوا الصحراء الشرقية إلى قنا ، وقطّع عليهم المصادر الفرنسية أسلوب « الملكاويون » les Meccaouis وهي تسمية تطلق على خطأ ، لأنهم لم يكونوا جهباً من مكة المسكرمة ، بل كانوا منهم أهالي المدينة المنورة ، والطائف ، وينبع ، و Migda ، وسائر جهات الحجاز ، وقد بلغ عددهم مئات الآلاف مقابل ، نفروا خفافاً وتقدلاً ، وصمموا على الفوز بإحدى الحسينين : الاستشهاد في سبيل الله ، أو النصر ، ولذلك كانوا شخصياً أشداء للفرنسيين .

منها بنصها الفرنسي ، وأفصح عن هذه الحقيقة أيضاً الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وهكذا التى علماء الأزهر وبونابرت عند ضرورة إيجاد حلقة اتصال بين السلطات الفرنسية وبين الشعب المصرى : وقد ذهب الشيخ الشرقاوى إلى القول بأن إنشاء الدواوين ، سواء في القاهرة أو في الأقاليم وإشراك علماء الأزهر في عضويتها، إنما كان رحمة بالشعب المصرى .

وكما تركنا بونابرت يعبر عن رأيه في هذه المسألة ، ندع الشيخ عبد الله الشرقاوى يفصح عن وجهة نظره فيما ، وقد مهد لها برأيه في الفرنسيين من حيث نزعهم نحو الإباحية ، وابتعادهم عن المسيحية الحقة : قال عنهم : « إنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية ، يقال لهم نصارى قاتوليقية، يتبعون عيسى – عليه السلام – ظاهراً ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ويقولون إن الله واحد ، لكن بطريق التعليل ، ويحكمون العقل ، ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ، يضعونها بعقولهم ، ويسمونها شرائع ، ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاً ، وأن الشريائع المنسوبة إليهم كتابية عن قوانين وضعوها بعقولهم ، تناسب أهل زمانهم . ولذا جعلوا في مصر وقرابها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، وكان ذلك رحمة بأهل مصر ، فإنهم جعلوا من جملة ديوانها

(١) أي ذوو طباع تنسم بالإباحية .

(٢) أي كاثوليكي .

(٣) يلاحظ أن معظم هذه الآراء التي رددتها الشيخ الشرقاوى قد وردت في منشور السلطان سليم الثالث إلى الشعب المصرى يأمره بالجهاد الدينى ضد الفرنسيين .

(٤) يقصد بمصر مدينة القاهرة .

(٥) القرى الكبار : يقصد بها عواصم المحافظات .

جماعة من المشايخ ، وصاروا يراجعونهم في بعض أشياء لا تليق بالشرع ^(١) .

وهنالك باعث آخر لعلماء الأزهر على قبول عضوية ديوان القاهرة ، فقد كانوا مدفوعين برغبتهم في أن يكونوا في مركز رسمي يسمح لهم بالتدخل لدى سلطات الاحتلال ، لدفع أذى الفرنسيين عن الشعب ، وكان قيام كبار المشايخ علماء الأزهر بهذا الدور إبان الحكم الفرنسي استمراراً للدور الذي قاموا به من قبل في أثناء الحكم العثماني – بصفتهم زعماء الشعب – من التدخل لدى الحكام البغاة ، وبخاصة الأمراء المماليك ، لرفع المظالم التي كانت تنهى على الشعب من يمين ويسار ، وقد تمثلت آنذاك في الغالبية العظمى من كبار علماء الأزهر الرعامة الشعبية ، الحانية ، العطوفة ، النظيفة التي كانت لا تبغى من وراء تدخلها لدى الحكام جزاء ولا شكوراً . وفي خلال سنوات الاحتلال الفرنسي الذي استطاع ثلاثة أعوام وبعض عام ، قام علماء الأزهر بدورهم التقليدي ، واستطاعوا في وسط الأزمات السياسية والحربية التي حفمت بها هذه الفترة أن يدرأوا عن الشعب الكثير من أذى الفرنسيين ، وإن لم يسلم كبار علماء الأزهر أنفسهم من هذا الأذى في بعض الأوقات العصيبة الحالكة السوداء التي مرت بالفرنسيين ، وبخاصة في الفترات التي صحبت أو أعقبت قيام المصريين بالثورات عليهم . ولكن كان هناك فارق كبير بين دور علماء الأزهر في العصر العثماني المملوكي ، وبين دورهم على عهد الحملة الفرنسية : كان تعاونهم مع الأمراء المماليك يقوم على التعاون الاختياري ، بينما كان دورهم أيام الاحتلال الفرنسي هو خضوع ضرورة . وكانت صلات علماء

(١) تحفة الناظرين ، مرجع سابق ذكره ، ص ٥٥ .

(٢) انظر محاجنا الثاني الذي نوقش في الندوة العلمية الدولية للغة القاهرة ، وكان موضوعه « دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم المماليق » ، وقد نشر في الجلد الثاني من بحوث الندوة ص ٦٦٧-٧٢٥ .

(3) Dr. Afaf Loutfi El Sayed.
في البحث الذي تقدمت به إلى مؤتمر لندن لتاريخ مصر الحديثة في أبريل ١٩٦٥ ، ونشر في مجلة بحوث المؤتمرات ، ص ٢٧١-٢٧٢ .

الأزهر أعضاء الديوان بالسلطات الفرنسية صلات تقوم على مداراة الفرنسيين والظاهر يجاملهم ، ولكن كانت قلوبهم نافرة من الحكم الفرنسي .⁽¹⁾

كان علماء الأزهر الذين قبلوا عضوية الديوان يشعرون في قرارة نفوسهم أن هذه العضوية لا تشرفهم، وأن الشعب قد ظن بهم الظنون ، ولم يكن لهذا الديوان سلطة قطعية في أية مسألة تعرض عليه ، وكانت السلطة العسكرية ، الممثلة في قيادة الجيش الفرنسي ، هي المرجع الأعلى في كل المسائل التي تعرض على الديوان ، وكانت سلطة هذا الديوان لا تتجاوز حدود مدينة القاهرة ، وكان نشاط المشايخ مقيداً بتعهدهم بـلا يتصرفوا تصرفاً يضر بمصالح الفرنسيين ، ولذلك كانوا يعملون - كما ذكرنا - تحت رقابة مستمرة دقيقة من رجال المخابرات الفرنسية : وما هو جدير بالذكر أن بونابرت لم يهدف إطلاقاً إلى إقامة حياة نيابية في مصر ، كما يظن بعض الباحثين ، فإن هذا الحكم العسكري لم يكن يطمئن إطلاقاً إلى الأنظمة النيابية ، وهو لم يطبقها في فرنسا ، فلن يأت أولى إلا ينشئها في مصر :

كان بونابرت من ناحية أخرى حريصاً على أن يختار لعضوية الديوان أكثر العلماء منزلة ، وأعظمهم جاهماً، وأكثرهم مهابة ، وأوفرهم فنوداً، ليضفوا على الديوان أهمية ومكانة في نظر الجمahir ، وكان في تأليفه من كبار العلماء تنويه ظاهر بأهمية الجامع الأزهر ، ومكانة علمائه ، والاعتراف بـ عـامـهم (٢)، وكان يقابل هذا الإصرار من ناحية بونابرت تخرج من جانب علماء الأزهر : حدثت مشادة عنيفة بين بونابرت وبين الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر ورئيس ديوان القاهرة : كان بونابرت قد

(1) Rifaat M.; The Awakening of Modern Egypt. London, 1947, pp. 8 - 9.

(٢) محمد عبد الله عباد ، تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الطبعة الثانية ، ص ١٥٥

طلب أعضاء هذا الديوان للحضور في أول سبتمبر ١٧٩٨ إلى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية ، ولما استقر بهم المقام نص بونابرت وغادر الصالون الكبير ، ثم عاد وبيه طيالسة ، يحمل كل طيلسان منها ثلاثة ألوان : الأزرق ، والأبيض ، والأحمر ، وهذه الألوان الثلاثة هي شعار الثورة الفرنسية ، وغدت ألوان العلم الفرنسي ، وأراد بونابرت أن يضع علماء الأزهر هذا الرداء المثلث الألوان على أكتافهم وفوق ملابسهم . ورأى بونابرت من باب التكريم أن يضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى ، فاحمر وجه الشيخ واستنشاط غضباً ، ورمى به إلى الأرض ، وغضبه بونابرت من هذا التصرف ، وقال إن الشيخ الشرقاوى لا يصلح للاستاذة ، وقد حاول عبئاً المستشرق فانتور Venture كبير متربجى الحملة أن يقنع سائور المشايخ بأن ارتدائهم الطيلسان تكريماً لهم ، يرفع منزلتهم في أعين الفرنسيين ، ويجعل الجنود يؤدون لهم التحية العسكرية كلما مررا بهم ، وكان مما جاء على لسان هذا المستشرق قوله : « يا مشايخ ، أنتم صرتم أحباباً لصارى عسكراً ، وهو يقصد تعظيمكم ، وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميرتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة في قلوبهم . » فقالوا له جملة معتبرة ، تصور مدى الحرج الذى كانوا يشعرون به : « ولكن قدرنا يضيع عند الله ، وعند إخواننا المسلمين » ، ورأى بونابرت أنه إذا أصر المشايخ علامة الأزهر على رفض ارتداء الطيلسان ذى الألوان الثلاثة ، فلا مناص من أن ^(٣) يضعوا فوق صدورهم « الجوكار » ، وهى العلامة التى يقال لها الوردة ، فقالوا

(١) يذكرها الجبرق طيلسانات ، فى صيغة بفتح المؤنث السالم ، وهذا خطأ ، ومن رددها طيلسان ، وينقصد به « شال » ، أي قطعة كبيرة من القماش ، توسيع على الكتفين وتغطيهما .

(٢) الجوكار ، مصدريه ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٣) الجوكار : كلمة فرنسية ، كتبها الجبرق باللغة العربية كما شعها ، وقد وردت فى كتابه فى أكثر من موضع (ج ٣ ، وعلى سبيل المثال ص ٣ ، ١٦ ، ١٧) ، والأصل الفرنسى الكلمة هو la cocarde بمعنى شارة أو علامة أو شريط أو وردة من حرير ، وقد ~~هي~~

- ٢٠١ -

أمهلونا حتى تروى في ذلك ، واتفقوا على أثني عشر يوماً » : وقد أراد بونابرت من حمل علماء الأزهر أعضاء الديوان على وضع شارة الجمهورية ترغيب الشعب في الاقتداء بزعمائه ، ووضع هذه الشارة المثلثة الألوان ، وإن كثرة الأوامر التي كان يصدرها بونابرت تباعاً في هذا الصدد ، مما يدل على اهتمامه الرائد بالالتزام المصريين بحمل شعار الجمهورية . وفي أحد الأوامر

== شرح الجبرق هذه اللفظة بقوله : « والجوكار ثلاث قطع من جوخ أو حrir أو غير ذلك ، مستديرة في قدر الريال ، سوداء وحراء وبيضاء ، توضع بعضها فوق بعض ، بحيث تكون كل دائرة أقل من التي تتحتها ، حتى تظهر الألوان الثلاثة كالذواير الخيط بعضها ببعض » . ص ٣ ، وقد أخطأ الجبرق في إيراد كامنة (سوداء) ، ومحتمها زرقاء ، ولعل قطعة الجوخ كانت زرقاء ، قاتمة اللون إلى حد بعيد جداً ، فاعتبرها أو اعتقادها سوداء .
أما نقول لا ترك فيكتب هذه اللفظة « كوكاردا » ، ويشر إليها بأنها « النيشان الفرنسي » .

انظر :

مذكرات فقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ثقيت ، ص ١٦ .

(١) أصدر بونابرت أمراً يحتم على جميع سكان مصر حمل الشارة المثلثة الألوان ، وأمر بـ لا تسمح السلطات الفرنسية ابتداء من أول شهر فاند مير Vendémiaire من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨) أية شكوى أو مظلمة ، أو طلب من أحد أفراد الشعب المصري ، إلا إذا كان حاملاً هذه الشارة . وقد ألغى المصريون من وضع الشارة اقتداء بعلماء الأزهر ، وترجع بونابرت . يقول الجبرق : إن بونابرت أمر بإلزامه هذا الأمر بالنسبة لعصابة الشعب ، وأنزلم بعض الأعيان ، ومن يزيد الدخول عند الفرنسيين حاجة من الحاجات بوضعها ، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم ، وبرغونها إذا خرجوا من عندهم ، واستمر هذا النظام معمولاً به بضعة أيام ، ثم صرف النظر عنه » .

انظر كلًا من :

الجبرق ؛ مصدر سابق ذكره، ج ٣ ، ص ١٧ .

وجريدة :

Courrier de l'Egypte. No, 6. Le 2ème jour complémentaire
VI année de la République.

ومجموعة من اسلافناapision .

Correspondance de Napoléon t. IV.

وثيقة رقم ٣٢٣٩ مؤرخة في ١٨ من شهر فرنسية من السنة السادسة من التقويم الجمهوري (٤ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) ،

التي أصدرها إلى الخزان مينو في رشيد طلب من أعضاء الديوان أن يضع كل منهم على كتبه طيلساناً ، أو شالا مثلث الألوان ، وأن يضع الأغوات حول عمامتهم شريطًا مثلث الألوان .^(١) ولكن أمام إصرار علماء الأزهر على رفض وضع الشارة على آية صورة من الصور ، صرف الفرنسيون النظر عن هذه المسألة جملة وتفصيلاً :

وكان حضور علماء الأزهر أعضاء الديوان الحفلات التي كانت الساطعات الفرنسية تقيمها في المناسبات الدينية الإسلامية ، وفي المناسبات القومية الفرنسية نوعاً من الرغبة في محاجلة الفرنسيين ، أو في مداراتهم . وإن عضوية علماء الأزهر في الديوان قد سمحت لهم بالتدخل لدى بونابرت لوقف تنكيله بسكنان القاهرة في أعقاب ثورتهم الأولى في أكتوبر ١٧٩٨ ، كما نجحت وساطتهم في إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين الذين رابطوا بداخنه ، وانتهكوا حرماه بعد إخماد هذه الثورة :

وقد استخدم بونابرت المشايخ أعضاء الديوان في كتابة المنشورات « وتنميّتها » لمطالبة الشعب بالإخلاص إلى السكينة ، أو لإذاعة آنباء انتصاراته العسكرية ونحو ذلك من مسائل الإعلام والدعائية ، وكان الشعب يدرك تماماً أن هذه المنشورات لا تصور الحقيقة ، وأنها لا تعبّر عن رأي علماء الأزهر أعضاء الديوان ، وأنهم إنما كتبواها رغبة في مداراة الفرنسيين ، وأن تأييد المشايخ للسلطات الفرنسية إنما هو تأييد شكلي :

ولابد أن نشير إلى موقف علماء الأزهر أعضاء الديوان في أثناء مقدمات ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، فقد كان رسول السلطان العثماني وأحمد باشا الجزار ،

(١) وثيقة رقم ٤٣٢٥ مؤرخة في ٢١ من شهر فرستيبر و من السنة السادسة من التقويم الجمهوري

Correspondance de Napoléon, t. IV (١٧٩٨) من شهر سبتمبر

والأمير إبراهيم بك ومن إليهم، يحملون سرًا إلى القاهرة منشورات ومكتبات تطلب من المصريين القيام على الفرنسيين : وعلم علماء الأزهر أعضاء الديوان بأمر هذه المنشورات ، وكانوا في ذات الوقت يقابلون بونابرت باستمرار ، ولكنهم التزمو الصمت حيال تداول هذه المنشورات وحيال إذاعتها ، بمعرفة أئمة المساجد ، فلم يخروا بونابرت بأمرها . ويحمل بعض الباحثين على علماء الأزهر أعضاء الديوان ، ويقولون إن هؤلاء العلماء قد غرروا بالفرنسيين ، وأن تصريحهم كان تصريحًا غير أخلاقيًّا^(١) : وقد فات هذا الفريق من الباحثين أن علماء الأزهر لم يكونوا من رجال المخابرات الفرنسية ، ولم يدخل في اختصاصاتهم كأعضاء في ديوان القاهرة التجسس على مواطنهم ، وإبلاغ السلطات الفرنسية بما يحدث في العاصمة ، ومن الثابت تماماً أن هؤلاء العلماء أعضاء الديوان لم يسهموا إيجابياً في تحريض سكان القاهرة على الثورة ، وإنما اكتفوا بمثل هذا الموقف السلبي . وقد ذكر بونابرت في مذكراته أن أعضاء الديوان زادت هواجسهم بعد صدور فرمان السلطان ، وخشوا مغبة تحالف الإنجليز والروس والعثمانيين ضد الفرنسيين ، واعتقدوا أن الدائرة سوف تدور على الجيش الفرنسي في الشرق . وإن كل ما نستطيع أن نخاطب إليه من هذا الموقف ومن غيره ، هو أن علماء الأزهر أعضاء الديوان لم يظهروا ولاء قلبياً لبونابرت ولا للفرنسيين ، وأن التأييد الذي كان يظهره هؤلاء العلماء كان تأييداً شكلياً ، وأن نجاح بونابرت معهم كان نجاحاً خداعاً

وقد سبق أن شرحنا موقف الشيخ محمد السادس من ثورة أكتوبر ١٧٩٨ وقلنا إن بونابرت عدل عن إعدامه ، حين أدرك أن إعدامه يضر بمركز الفرنسيين ، أكثر مما ينفعهم ، ونضيف هنا أن ضباط الجيش الفرنسي وجنوده

(١) كريستوفير هيروولد : بونابرت في مصر مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٣ .

(2) Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 245.

نعوا على برناپوت تسامحه وتساھله مع هـذا الشیخ، وغیره من کبار رجال
الأزھر، وقد وصفهم الصباط والجنود بأنهم أُسـس البلاء الذى نزل بالفرانسيين،
وأنهم مسئـلون عن الدمـ الفرنـسى الذى أـرـيق فـي الثـورـة، وأن مـساـکـهم لمـ يـكـنـ
سلـیـاـ، وخلـصـوا منـ هـذـه الـاتهـامـاتـ إـلـىـ أنـ المشـایـخـ عـلـمـاءـ الأـزـھـرـ رـجـالـ
«ـعـوـاجـزـ مـنـافـقـونـ»ـ، مـنـ وجـهـ النـظـرـ الفـرنـسـيـ بـطـبـيـعـةـ الحالـ :ـ

(1) Op. cit., p. 256.

(٢) پاداً شهر صفر ١٢١٤ في الخامس من يوليو، والتهن في الثامن من أغسطس ١٧٩٩.

وكلها على نسق واحد تزيد عن المائة ، مضمونها بأن المسلمين وعسكرو العثمانيين ومن معهم ملكوا الإسكندرية في ثالث ساعة من يوم السبت ^(١) سادس ^(٢) عشر صفر ، فصار الناس يحكى بعضهم لبعض ^(٣) :

وقد غمرت موجة من الابتهاج علماء الأزهر أعضاء الديوان بهذه الانتصارات العثمانية ، واعتبروها بداية النهاية للحكم الفرنسي في مصر ، ولم يتحفظوا في إبداء ابتهاجهم ، وتناسوا مراكيزهم الرسمية التي كانت تتطاب منهم بمحاملة الفرنسيين ، أو على الأقل التظاهر بالمجاملة : وسرعان ما احفلت السلطات الفرنسية في القاهرة أن التصرفات التي تصدر عن المشايخ أعضاء الديوان يغلب عليها الطابع غير الودي نحو الفرنسيين ، بل إنها تتعارض مع المصالح الفرنسية ، ففضلاً عن الابتهاج الذي لم يحاولوا إخفاءه وقع صدام بين أعضاء الديوان وبين محافظ القاهرة ، واسمه مصطفى أغاخ ، وكان معروفاً عنه أنه من عملاء الفرنسيين ، ومن أوعون الحكم الفرنسي ^(٤) : أراد أن يقتل كل يوم عدداً من الأهلين بدون أدنى سبب ، سوى إشاعة الإرهاب في نفوس سكان القاهرة ، حتى لا يقوموا بثورة على الفرنسيين في أثناء اشتباك الأخيرين في الحرب ضد العثمانيين في أبي قير ، ووقف المشايخ في وجه المحافظ يطالبوه

(١) تحمل عبارة الخبر في دليلاً جديداً على الطابع الإسلامي للمجتمع ، وأن الجنسيات وسمياتها لم تكن تفرق بين المسلمين .

(٢) كان لإيراد الخبر على هذا النحو لا يخلو من المبالغة ، لأن العثمانيين لم يقتربوا من الإسكندرية ، بل ظلوا منابطين في أبي قير ، بعد أن أحرزوا الانتصارات الخاطفة .

(٣) الخبر ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٤) كان الفرنسيون قد عزلوا في ٤ من أكتوبر ١٧٩٨ الحافظ السابق محمد المسماوي الذي كان قد عين بناء على اقتراح أعضاء ديوان القاهرة في أول إنشاء هذا الديوان ، وصدر قرار في ذات اليوم بتعيينه وكيلاً لأمير الحج ، وعين الفرنسيون مكانه مصطفى أغاخ محافظاً للقاهرة ، وظلل في منصبه حتى أقي مصر عليه في ثورة القاهرة الثانية .

بإطلاق سراح المعتقلين قبل أن يتم قتلهم ، وتصدى الشیخان محمد المهدی ومصطفی الصاوی للمحافظ ، وأخذنا يعفانه على تصریفاتہ ، وینظر انه بسوء العاقبة ، وتدخل الحنرال دوجا Dugua بين أعضاء الديوان وبين المحافظ . وازدادت مخاوف الحنرال حين نقل إلیه البعض أن سکان القاهرة يتأهبون للثورة على الفرنسيین ، فأرسل الحنرال دوجا في طلب الشیخ المهدی « وتکلم معه في شأن ذلك وحاججه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان ، فقام المهدی خطيباً ، وتکلام كثيراً ، ونفي الريبة ، وكذب أقوال الأخصام ، وشدد في تبرئة المسلمين عمما نسب إليهم »⁽¹⁾ ، ویعلق الخبری على موقف الشیخ المهدی بقوله : « وهذا المقام من مقاماته المحمودة » :

ويقرر الفرنسيون أن الصدر الأعظم كان متصلًا بعلماء الأزهر أعضاء الديوان ، وكان هؤلاء المشايخ يطلبون منه أن يعتذر نيابة عنهم للسلطان عن مظاهر الود الذي يبدونه في العلن للفرنسيين ، ويؤكدون للصدر الأعظم في خطاباتهم أن هذا العطف الظاهري يخفى وراءه فكرة مسبقة بتأييد السلطان ونبذ الفرنسيين ، كما كانت توجد مراسلات سرية بين معظم مشايخ الأزهر أعضاء الديوان ، وبين قادة الجيش العثماني الذي كان يتجمّع في دمشق :

وقع اختيار السلطات الفرنسية في القاهرة على بوسيلج Poussielgue مدير الشؤون المالية للجيش ، ليراقب عن كثب^١ تصرفات علماء الأزهر وأعضاء الديوان ، ويوافى بها بونابرت في أبي قير ، ويصفه أحد كبار المؤرخين والسياسيين الفرنسيين بأنه مراقب ذو نظر ثاقب ، ورأى سليد^(٢)

(١) الجبرق ، مصادر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

2) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit., t. IV, p. 229.

observateur judiciaux et fin 1799 إلى بونابرت في أبي قير عبر بوسيلج عن رأيه في علماء الأزهر أعضاء الديوان فقال : إن معظمهم خونة أو مت指控ون ، وتكلم ريبو Reybaud عن مسلك أعضاء الديوان إبان الفترة العصبية التي واجهها الفرنسيون بنزول العثمانيين في أبي قير فقال : « وفي كل يوم كانت تقع حوادث جديدة ، تكشف عن هذا التغير في مسلك الديوان ، وفي اتجاهه ضد الفرنسيين ، فتارة كان يتجاوز اختصاصاته ، ويسيء استغلال سلطته بصورة لا يمكن احتمالها ، وتارة أخرى كان يحدث صدام بين أعضاء الديوان وبين رؤساء الشرطة من أجل إطلاق سراح مسلم مذنب ، وتارة ثالثة كان يعمد إلى تخفيض الضرائب المقررة على مشايخ البلاد ، للإضرار بمصالح جامعي الضرائب الأقباط . وفي كل مناسبة كانت تبدو على أعضائه روح جديدة كانت تتسم بالعداء لغزة الذين استولوا على مصر ، وكانت مصالح أخرى هي التي أوجت بهذه الروح الجديدة المعادية » .

وقابل علماء الأزهر بفتور ووجوم شدائد الأنبياء التي تعاقبت بعد ذلك عن النكسة التي حلّت بالعثمانيين في موقعة أبي قير البرية (من ٢٥ يوليو ١٧٩٩) ووقوع مصطفى باشا القائد العثماني في الأسر ومعه ثلاثة آلاف جندي ، عدا ثمانية آلاف جندي بين قتيل وجريح ، واستيلاء الفرنسيين على مدفع الجيش العثماني وذخيرته : ولاحظ الفرنسيون الكابة التي علت وجوه أعضاء الديوان ، فازدادت نقمتهم عليهم ، وأمرت السلطات الفرنسية في القاهرة بإطلاق المدفع من القلعة ، وعرض كتائب الجيش في شوارع القاهرة وإقامة

حفلات ابتهاجاً بانتصار الفرنسيين في معركة أبي قير البرية، ومع ذلك فقد
ظل علماء الأزهر على حالهم النفسية المكتوبة^(١) :

وكان بونابرت قد أمر برحليل الأسرى العثمانيين من أبي قير إلى القاهرة،
فلما باغوها وأشار بعرضهم في الأزبكية، ليراهם سكان العاصمة^(٢) ، ثم أمر بأن

(1) Le Divan lui-même avait des vœux secrets en faveur des Osmanlis, et cherchait peu à cacher sa joie des premiers succès de Moustafa - Pacha.

Plus tard même, et après que le canon de la citadelle eut annoncé l'éclatante victoire d'Abouqyr, l'attitude de cette assemblée resta froide et peu affectueuse. Loin d'accueillir, comme autrefois, avec un plaisir enthousiasme, ce succès des armes françaises, elle parut s'en soucier à peine,...

Pour un œil de longue portée, il était visible que la plupart des cheyks du Divan subissaient alors des influences extérieures. Une correspondance secrète existait entre eux et les chefs des troupes ottomanes, qui se formaient dans les plaines de Damas.... Le Grand Vizir lui-même se trouvait en relations avec les cheyks et les ulémas, et ceux - ci, dès cette époque, cherchaient à excuser, aux yeux du Sultan, leurs sympathies publiques pour les Français, par l'arrière - pensée d'une trahison en faveur de la Porte.

Chaque jour, des faits nouveaux venaient trahir ce changement de direction dans le Divan. Ses empiètements, ses abus de pouvoir devenaient intolérables. Ici, c'était un conflit avec les chefs de la police, pour faire relâcher un coreligionnaire coupable; là, c'étaient des réductions accordées sur l'impôt aux cheyks-el-beled, des dégrèvements (*sic*) prononcés au détriment des perceuteurs coptes, partout enfin une tendance nouvelle se révélait, hostile aux conquérants (*s/c*) de l'Egypte et conseillée par d'autres intérêts."

Op. cit., pp. 226-228.

(2) رأى بونابرت لدواعي الأمان لا يدخل مصطفى باشا القائد العثماني الأسير مدينة القاهرة، فارسله مع ابنه إلى الجيزة، حيث أقاما في قصر مراد بك، وأمر بونابرت بمعاملة كريمة انظر :

Daressy (G.); Moustapha pacha, le prisonnier d'Aboukir. (Bulletin de l'Institut d'Egypte, t. XI, session 1928-1929, pp. 43-70.)
أما سائر الأسرى فقد اقتيد بعضهم إلى قلعة الجبل، والبعض الآخر إلى قلعة سلڪوسكي (جامع الطاهر)، وأبقى الفرنسيون البعض الثالث في الإسكندرية.

يطاف بهؤلاء الأسرى في طرقات القاهرة ، ليبيد أى شاك خامر القاهريين في انتصار الفرنسيين ، ويقول نقولا ترك : « حصل عند أهل القاهرة قهر عظيم » ، أى انتابهم حزن شديد عندما تأكدوا من هزيمة العثمانيين ^(١) :

وقف بونابرت ، عقب وصوله إلى القاهرة ، علىحقيقة مشاعر المصريين بعامة ، وعلماء الأزهر أعضاء الديوان بخاصة ، وكان پوسيليج قد أوضح له ما أحمله في تقاريره إليه ، من ظهور الروح العدائية على المشايخ العلماء ، وانتهز فرصة حضورهم إليه للسلام عليه بعد عودته من الإسكندرية ، كما يقضى عليهم واجبهم كأعضاء في الديوان ، فوجه إليهم قارص الكلم ، وأنهى باللائمة على الشيختين الصاوي والمهدى : وأمامنا صورتان لهذا المشهد المثير بين بونابرت وأعضاء الديوان ، كتبهما معاصران للحملة ، هما الجبرتي والمعلم نقولا ترك : أما الأول فيقول : « ولما استقر سارى عسكر فى منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن سارى عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه ، وأما فى هذه المرة فليس كذلك ، لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لا يرجعون ، بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحانين ومستبشرين ، وكنتم تعارضون الأغا فى أحكامه ، وأن المهدى والصاوي ماهم بونو ، أى ليسوا بطبيعين ونحو ذلك :: :: ^(٢) : أما نقولا ترك فيذكر أن بونابرت قال لهم إنه كان يظن أن المصريين يكنون له حبا ، ويفرون لانتصاره ، ويتأملون هزيمته ، ولكنه لسن عكس ذلك تماماً ، ومضى يقول في حديثه للمشايخ إنه قدم لهم كل مظاهر الحب ، وإنه أكد لهم مراراً أنه يحب النبي

(١) مذكرات نقولا ترك ، ترجمة ونشر وتعليق الأستاذ ثابت ، ص ٥٩ .

(٢) الجبرتي ، مصدر سابق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٧ - ٧٨

— صلوات الله عليه — لأنه بطل صنديد ، قاد غزوات حربية ناجحة ، وخاص من حاديه إلى القول بأنهم يشعرون بنفور من الفرنسيين ، ويظلون بهم الظنو ، « سوف يأتي يوم تبشوون فيه الأرض بخشاً عن عظام الفرنسيين ، وتسوة ونها بدموعكم »^(١) . فالروايتان العريبتان متفقتان في وصف مشاعر الاستياء التي استحوذت على بونابرت من مسلك المصريين بعامة ، وعلماء الأزهر بخاصة إزاء الحكم الفرنسي ، وكيف كانوا يستبشرون بكل أزمة يتعرض لها الفرنسيون ، أملا في اهتزاز مركزهم ، والإطاحة بحكمهم :

ومن الأدلة على أن علماء الأزهر كانوا يرون أن عضوية الديوان لا تشترف صاحبها ، أن الاختيار وقع على الشيخ عبد الرحمن الجبرى المؤرخ ليكون عضواً في ديوان القاهرة ، عندما أعيد تشكيله على نسق جديد ، على عهد الجزار مينو ، وأشار الجبرى إلى هذا التشكيل الجديد لديوان القاهرة في حوادث شهر جمادى الآخرة ١٢١٥ (٢٠ أكتوبر - ١٧ نوفمبر ١٨٠٠) ، وذكر اسمه بطريقة ملتوية مبهمة ، بعيدة عن الصراحة التي عرفت عنه . قال « شرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الأول ، من تسعة أئمة متعممين لا غير ، وليس فيهم قبطي ولا وجاقلى ، ولا شامي ولا غير ذلك ، وليس فيه خصوصى وعمومى على ما سبق شرحه ، بل هو ديوان واحد مركب من تسعه رؤساء ،

(١) النص المحرق لنقولا ترك هو : «فسوف يأتيكم زمان الذي به تفتشوون على عظام الفرنسياوية وت تكونون عليها» ، ص ٩٥ ، وقد أثبتنا في المتن ترجحنا للنص الفرنسي الذي كتبه الأستاذ ثيت ، وهو :

“Une jour viendra où vous déterrerez les ossements des Français pour les arroser des vos larmes” . p. 78.

وأنظر بخصوص هذا الحديث الذي دار بين بونابرت وبين علماء الأزهر .

Chauvin; ouvr. cit., pp. 20-21.

(٢) وجاقلى : يجمعها وجاقلية ، مشتقة من الكلمة التركية ، أو جاق بمعنى المقد ، ثم استخدمت بمعنى فرقه عسكرية ، والوجاقلى أحد المسكريين .

هم : الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، والمهدى كاتب السر ، والشيخ الأمير ، والشيخ الصاوى ، وكاتبته ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ خليل البكرى ، والسيد على الرشيدى نسيب سارى عسكر ، والشيخ الفيومى :::: وبدلأ من أن يذكر الخبرتى اسمه صريحاً عمداً إلى التعميمية ، وعبر عن أهمه بكلمة « كاتبه » ، وقد وردت هذه الألفاظة بعد اسم الشيخ الصاوى ، وقد يختلط الأمر على البعض ، إذ يظنون أن المقصود هو كاتب الشيخ الصاوى ، ولا يمكن أن يكون هذا الأسلوب في التعبير عن نفسه مظهاً من مظاهر تواضع العلماء ، إنما كان شعوراً منه بالحرج يفتعل في أعماق نفسه :

أزمة عدم ثقة

والحق أنه كانت هناك أزمة عدم ثقة بين الأزهر والاحتلال الفرنسي ، وقد أظهر الفرنسيون شعوراً عدائياً سافراً نحو علماء الأزهر ، بعد إخراج ثورة القاهرة الثانية التي اشتعلت في ٢٠ مارس ١٨٥٠ ، واستطاعت كما ذكرنا، ثلاثة وثلاثين يوماً حتى ٢١ أبريل ، لم تكن زعامة هذه الثورة خالصة لعلماء الأزهر وغيرهم من قطاعات الشعب المصري ، ولكن شاركوهـم في التحريرـضـنـ عـلـيـهاـ وـزـعـامـهـاـ وـقـيـادـهـاـ العـسـكـرـيـوـنـ العـمـانـيـوـنـ ، وـالأـمـرـاءـ الـهـامـالـيـاـتـ؟ـ كما أنها بدأت في حى بولاق ، عندما تنادى إليها الحاج مصطفى البشتلي ، ومع ذلك فقد صبـالـخـنـرـالـ كـلـيـبـرـ جـامـ غـضـبـهـ عـلـىـ كـبـارـ الـشـاـيخـ عـلـمـاءـ الأـزـهـرـ ، وـدـعـاهـمـ إـلـىـ الـاجـتمـاعـ بـهـ فـيـ صـبـاـحـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ ٣ـمـنـ ماـيـوـ ١٨٥٠ـ (٨ـ مـنـ ذـيـ الـحـجـةـ ١٢١٤ـ)ـ ، وـلـمـ يـدـرـ بـخـلـدـهـمـ شـيـءـ عـنـ المـفـاجـأـةـ المـفـزـعـةـ الـتـىـ أـعـدـهـاـ لـهـمـ كـلـيـبـرـ ، (١)ـ وـالـتـىـ جـعـلـتـ هـذـاـ الـاجـتمـاعـ هـوـ أـحـلـكـ اـجـتمـاعـ شـهـدـوـهـ ، قـابـلـهـمـ مـقـابـلـةـ جـاـفـةـ ،

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذا الاجتماع في مؤلفنا « عمر مكرم بطل المقاومة الشعوبية ». القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ص ٧٨ - ٨٣ تحت عنوان « الاجتماع الأغبر » .

ونعى عليهم مساكهم إبان الثورة ، وقرر أنّ ضررهم على الفرنسيين أكثر من نفعهم لهم ، « لأنكم إذا حضر أخصاصنا قتلت معهم ، وكتتم وإياهم عاينا ، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين ، فكان جزاً لكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلכם عن آخركم ، وحرق بلدكم ، وسيحرقكم وأولادكم » ، ودافع علماء الأزهر عن تصريحاتهم ، فقالوا إنّ الفرنسيين قد أذاعوا على الشعب نصوص اتفاقية العريش ، متضمنة جلاء القوات الفرنسية عن مصر « وعرفتمونا أننا صرنا في حكم العثماني من ثالث يوم في شهر رمضان ، وأنّ البلاد والأموال صارت له ، وخصوصاً وهو سلطاناً القديم ، وسلطان المسلمين »^(١) ، وقد أنهى كليب المناقشة بأنّ أبلغهم أنه قرر فرض غرامة حربية على سكان القاهرة ، حددها باثني عشر مليون فرنك ، وخصص علماء الأزهر بنصيب موفور من هذه الغرامة الفادحة^(٢) :

وكان على رأس هؤلاء الشيخ محمد السادات ، والشيخ محمد الجوهري ، والشيخ فتوح الجوهري ، والشيخ مصطفى الصاوي ، والشيخ العناني وغيرهم ، وخرج كليب وأغلق عليهم الباب ، ولما أرادوا الأنصار فتحهم الحراس ، وحيل بينهم وبين أداء صلاة الجمعة ، واستمر الحراس متحفظين على علماء الأزهر . واستقر الرأي على إطلاق سراح المشايخ الذين لديهم مدخلات مالية تكفي لتعطية نصيبهم المقرر عليهم أداوه من الغرامة الحربية ، فكان الواحد منهم يصرف إلى داره لحضور قيمة الغرامة ، وهو محاط بجنود مددجي السلاح ، يذهبون ويغدون به لاستيفاء المبلغ . أما غيرهم من عجزوا عن دفع المبلغ بأكمله ، فقد اعتقلوا في أماكن متفرقة في القاهرة ، وأمتهنت كرامتهم ، بل أهدرت آدميتهم في المعتقلات :

(١) الجبرق ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠٧

(٢) ذكر الجبرق أنها عشرة ملايين فرنك ، بينما ألمحت المصادر الفرنسية على أنها لا ١١ مليونا

وقد مر بنا كيف سبق الشيخ محمد السادات إلى القلعة ، حيث اعتقل في أحد المخازن بها ، حيث كان ينام على التراب ويتوسد بحجر ، ويضرب ضرباً مبرحاً ، صباحاً ومساءً .

وظلت نظرة الفرنسيين إلى الأزهر يشوبها الشك والظنون ، والترbusn بعلماء الأزهر ، على أساس أنهم الهيئة القديرة على تحريات الشعب ، وإثارة مزيد من المتاعب في وجه الحكم الفرنسي ، وازداد الفرنسيون إمعاناً في سياسة الإرهاب ، وخيم على القاهرة جو كثيف ، واجتمعت على سكانها أحوال الحرائق ، والقتل ، والتدمير ، والمجاعة ، والاعتقال ، والتعذيب ، وفرض الغرامات الحربية الفادحة ، وغير ذلك من صنوف التنكيل . وحل عيد الأضحى في العاشر من ذي الحجة ١٢١٤ (٥ من مايو ١٨٠٠) ، «ومضى ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يشعر به أحد ، ونزل بهم من البلاء والنذل ما لا يوصف
 وضاق خناق الناس ، وتنموا الموت فام يجدوه»^(١) :

بفية الأزهر في بعض طلابه

قويت شكوك الفرنسيين في موقف رجال الأزهر من الاحتلال الفرنسي بعد مصرع الجنرال كليبر في ١٤ من يونيو ١٨٠٠ ، فقد كان قاتله سليمان الحاج من طلاب الأزهر القدامي ، وقضى في رحابه ثلاثة أعوام ثم غادر مصر ، وعاد إليها بعد ذلك في ١٤ من مايو ١٨٠٠ يعتقد أنه جاء مغازيًّا في سبيل الله ، ونزل في الأزهر وأقام به شهراً يدرس خطوات وتحركات كليبر ، وتعرف بأربعة من طلاب الأزهر ، أفضى إليهم بعزمه على اغتيال الجنرال كليبر .

(١) الخبرق؛ مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ص ١٠٩

وكان التحقيق في القضية يتجه في أحيان كثيرة إلى ذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الحامع الأزهر ، وإلى اصطدام القراءن أو الأقوال التي ثبتت علمه أو علم غيره من كبار العلماء بنية القاتل ، ولكن لم يسفر التحقيق في النهاية عن شيء من ذلك ، وصدر حكم المحكمة العسكرية - التي كانت تتكون من تسعه أعضاء من كبار العسكريين - بإعدام سليمان الحلبي ، وأربعة من طلاب الأزهر ، ونص الحكم على وسائل تنفيذ أحكام الإعدام من الخا Zhao ، إلى قطع الرؤوس ، إلى إحرق بعض الجثث ، وترك البعض الآخر تفترسها الجوارح . وجاء في حيثيات الحكم أن المحكمة وهى تحدد طريقة تنفيذ الإعدام في المتهمن

(١) محمد عبد الله عنان ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٨٠ .

ويقول الخبرى : إن الفرنسيين أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ أحمد العريشى قاضى التضييق ، ومحجزوهما إلى منتصف الليل ، ثم ألقاوهما بإحضار الأشخاص الذين وردت أسماؤهم على لسان المتهم ، فذهب الشيشان فى معهية الأغا وهو الحافظ إلى الحامع الأزهر ، حيث تم القبض على ثلاثة من المطلوب القبض عليهم ، ولم يجدوا الرابع .

ج ٣ ، ص ١١٦ .

(٢) كان الآتراك العثمانيون يستخدمون الخا Zhao كوسيلة من وسائل ثلاث فى إعدام المذنبين أو الأسرى ، أما الوسيطان الأخريان فكانتا المشار والسيف ، وكان السلطان محمد الفاتح يستخدم الطرق الثلاث ، فكانت أوروبا تعرف طريقة الخا Zhao ، وقد دخلت هذه الطريقة إلى مصر فى عصر دولي المماليلك .

انظر عرضاً لطريقة استخدام الخا Zhao فى الإعدام ، وشرح الوسيطين الآخرين فى مؤلفنا : «أوربا فى مطلع العصور الحديثة» . القاهرة ، الجزء الأول ، ١٩٦٩ ، ص ٦٣٧ .

(٣) نص الحكم على أن تحرق اليدين لسليمان الحلبي ، ثم «يتخوزق» أى يendum فوق الخا Zhao وتترك جثته حتى تفترسها الجوارح ، وأن يعدم شركاوه الأربعه بقطع رؤوسهم ، ثم توضع فوق أبابيت ، ثم تحرق بقية جثتهم ، وأن تنفذ أحكام الإعدام أمام الجندول والأهالى فوق كل العقارب بجهة الناصرية ، على مقربة من القلعة التي شيدوها الفرنسيون فى هذه الجهة ، وعرفت باسم طابية قاسم بك بالناصرية ، أو طابية المجتمع العلمى .

- ٢١٥ -

قد وضعت في اعتبارها طريقة الإعدام التي تستخدم في مصر في قضایا الجنایات الكبرى والتي تتناسب مع شخصیة المجنى عليه .^(١)

ويعلق الأستاذ عنان على إعدام الطلاب بقوله : « وهكذا فوج الأزهر مرة أخرى ، في ظل الاحتلال الفرنسي ، في عدد من طلابه ، بعد أن فوج في ثورة القاهرة الأولى ، في عدد من علمائه : ييد أن الفجيعة كانت في كل مرة عنوان زعامته » .^(٢)

إغلاق الأزهر

وعلى الرغم من أن التحقيق لم يثبتت إدانة علماء الأزهر في مصري الجنرال كليبر ، إلا أن الفرنسيين لم تطمئن قلوبهم إلى سلامته ووقف هولاء العلماء . وكان في تقديرهم للموقف أن إقامة القاتل ثلاثة يوماً في الأزهر ينسج خيوط فعلته ، دليل على أن الأزهر هو المكان « الصحي » الذي تدبر فيه المؤامرات الكبرى لاغتيال كبار القادة ، والإطاحة بالحكم الفرنسي . وبدت من الجنرال مينو في مستهل عهد القيادة الثالثة للحملة تصيرات استفزازية ، فقدم ذهب إلى الأزهر في ٢١ من يونيو ١٨٠٠ ومعه الجنرال بليار Bélliard الحكم العسكري لمدينة القاهرة والأغا – المحافظ – وطافوا في أرجاء الجامع ، وأمرروا بمحفر بعض الأماكن بداخله ، محجة التفتیش على الأساجحة ، ثم عمدا حصاراً لعدد المجاورين وهو طلاب الأزهر ، وكتبوا اسماءهم في قوائم ، ثم أمروا

(١) Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Solyman el - Halaby, assassin du Général en chef Kléber et traduction turc des pièces. Au Caire, an VIII.

وقد أعيد نشر حیثيات الحكم في :

Revue d'Egypte, II et III, 1895 - 1896.

و جاء في النص العربي لحيثيات الحكم ، الذي نشره الجنرال : « ثم اتفقا جميعهم – أي أعضاء المحكمة – أن يذبوا المذنبين ، ويكونن لائق للذنب الذي صدر » ج ٣ ، ص ١١٧ – ١٣٣ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، مرجع سابق ذكره ، ص ١٨١

بألا يبيت أحد من الغرباء في الجامع ، وألا يأوي إليه أفاق ، وأنخرجوه منه
الطلاب العثانيين ، ومنهم الشوام ، واشتم سائر الطلاب أن السلطات الفرنسية
تبثت لهم أمرًا ، ورأوا أن يفسدوا عليهما خططها ، فشرعوا في نقل ممتلكاتهم ،
وكتبهم ، وإخلاء الأروقة ، ونقل الكتب الموقوفة بها إلى أماكن خارجة عن
الجامع ^(١) .

ورأى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وزملاؤه أن بقاء الجامع مفتوحاً في مثل هذه الظروف العصيبة التي تمتاز بها البلاد ، أمر لا يخلو من خطأ ، ومن الصعب أن يحسن الفرنسيونظن بالأزهر ، بعد الأحداث المعاقبة التي اهتز لها الحكم الفرنسي ، فقر رأى العلماء على أنه من الأفضل إغلاق الجامع كلياً ، وكان يترتب على هذا الإغلاق إيقاف الدراسة في الأزهر وتعطيل شعائر الصلاة . وفي عصر ذات اليوم ذهب وقد من العلماء يتكون من المشايخ الشرقاوى والمهدى والضاوى إلى الحنرال مينو ، واستأذنوه في إغلاق الجامع وتسميره ، وشرحوا له وجهة نظرهم ، فقالوا لهم يهدفون إلى « منع الريبة بالكلية ، فإن للأزهر سعة لا يمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من بيته به ، واحتج بذلك على إنجاز غرضه ، ونبيل مراده من المسلمين والفتاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيين بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطنًا » . وفي صباح اليوم التالي - الجمعة ٢٨ من محرم سنة ١٢١٥ (٢١ من يونيو سنة ١٨٠٠) تم إغلاق الجامع وتسمير أبوابه من جميع الجهات . وكانت هذه أول مرة في تاريخ الأزهر يغلاق فيها بعد أن لبث (٣) منذ إنشائه نحو مئانية قرون ونصف قرن مفتوح الأبواب لكل طالب وقادسياً .

(١) أبخارق، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ١٣٤.

٢) المصادر السابقة .

(٣) محمود عبد الله عنان ، مترجم سبق ذكره ، ص ١٨٣ .

وكإجراء وقائي تكميل تم إغلاق وتسمير جامع محمد باك أبي الذهب المواجه للجامع الأزهر ، وأنخرج من المدرسة القائمة فيه الطلبة الآتراك :

وظل الأزهر مغلقاً زهاء عام ، ولما أذيعت أنباء الصلح ، وشرع الفرنسيون في الحلاة بادر أولو الأمر في يوم الأربعاء ١٩ من صفر ١٢١٦ (الثانية من يوليو ١٨٠١) بفتح أبوابه وكتسه وتنظيمه . ومن المصادرات الغربية أنه في ذات هذا اليوم رحل عن القاهرة مع الفرنسيين برئاسة اليوناني وكثير من أعيان الاحتلال الفرنسي من الأقباط والمسامين على حد سواء ، وكلملأ نصارى الشوام والأروام .

وقد حرص يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم على زيارة الجامع الأزهر في ذات الأسبوع الذي أعيد فيه افتتاحه ، وطاف بمقصوريته وأروقته ، وأنعم على خدم الأزهر بالعطايا ، ثم قفل راجعاً إلى مسكنه بناحية الخلي بشاطئ النيل في بولاق ، بعد أن قضى في رحاب الجامع الأزهر « ساعة لطيفة » :

* * *

هذه بعض صور من مقاومة الأزهر للاحتلال الفرنسي ، وهي صور حافلة بأروع مظاهر الكفاح والنضال في تاريخ مصر ، والإسلام ، والعروبة ، في وجه أول موجة من موجات الرمح الأوروبي الاستعماري نحو و الشرق الإسلامي في التاريخ الحديث :

وأنهت سياسته بمنابر إسلامية إخفاقاً ذريعاً ، لأنها استناد إلى إظهار الاحترام العميق للدين الإسلامي ، أو التظاهر بإبداء مثل هذا الاحترام ، واطمأن إلى المشاركة الإيجابية في الأعياد والمواسم ، والخلفات الإسلامية ،

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٢) إلبرت ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

والنقرب إلى علماء الأزهر ، وهم لم يبادلوه ودًا بود : وكانت مجاملاً لهم له من سبيل المداراة ، ولم يقدر بونابرت تمام التقدير أهمية العازل الديني الذي كان يفصل بين الشعب المصري والفرنسيين ، في الوقت الذي كان الفرنسيون يجراءون عليهم وتصرفاً عليهم وأفعالهم يعصفون بالسياسة الإسلامية للاحتلال . وكان أن اعتمد بونابرت على الحديد والنار في ضرب الانتفاضات التي كان يقوم بها الشعب في كل حين وآن ، مما جعل إقامة الفرنسيين في مصر ، إقامة قلقة غير مستقرة .

وكان الأزهر موئل المعارضين للمحكوم الفرنسي ، وفي رحاب الأزهر خطط علماؤه لثورة القاهرة الأولى ، وتنادوا إليها ، وأسهموا فيها ، وتحملوا ويلاتها ، وامتهنت حرمات المسجد ، وفجع الأزهر في ثلاثة عشر هالسا من علمائه :

وفي أعقاب ثورة القاهرة الثانية تعرض كبار علماء الأزهر لأقسى أنواع التعذيب والإيذان ، وفرضت عليهم الغرامات الحريرية الفادحة ، وبيعت ممتلكاتهم ، والخليل الذهبية لزوجاتهم ، استيفاء للغرامات التي فرضت عليهم . وتفنن الفرنسيون في تقديم وجبي الإفطار والعشاء للشيخ محمد السادس في معتقله ، وكان قوام كل وجبة خمس عشرة عصا ، تهال على جسم هذا الشيخ الجليل الطاعن في السن ، الذي وهن العظم منه ، واشتعل رأسه شيئاً .

وعقب مقتل كثيير فجع الأزهر في بعض طلبه : قطعت رعوسهم ، ووضعت فوق (نبابيت) ، وأحرقت بقية أجزاء جثتهم . أما سليمان الحبي ، الأزهرى التعليم ، فقد « خوزقه » الفرنسيون ، وبينما كان الاحتلال الفرنسي يافوز أنفاسه الأخيرة صدرت أوامر القادة الفرنسيين باعتقال شيخ الأزهر وكبار العلماء في معتقل القلعة . وفي هنا الصدد يقول الشيخ عبد الله الشرقاوى :

« وقد حبسونا في القلعة مع إخواننا من العلماء ، خوفاً من قيام أهل البلد عليهم ، كما وقع منهم سابقاً ، فكثنا في القلعة مائة يوم ، من تسعه ذى القعدة إلى أواخر صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف . وبسبب خروجنا من الحبس وقوع الصلح بين المسلمين وبين الفرنسيين^(١) »، وقد تخللت فترة الاعتقال وفترة عرفات ، وأيام عيد الأضحى ، ورأس السنة الهجرية ، ويوم عاشوراء ، قصوها في غيابة المعتقل . وهكذا ظلت أزمة عدم الثقة تخيم على العلاقات بين الأزهر والسلطات الفرنسية ، حتى آخر أيام الاحتلال ، وأثبتت الصراع المريض الذي خاضه الأزهر ضد الفرنسيين أنه يحتفظ بحيوية دافقة ، تظهر عند الملمات ، وأنه كان يشكل مركز الصداررة في الحياة العامة ، في شتى جوانبها السياسية ، والدينية ، والعلمية ، والفكرية :



(١) الشيخ عبد الله الشرقاوى ، مرجع سابق ذكره ، ص ٥٨ .

من أهم المصادر والمراجع التي ورد ذكرها في هوامش هذا البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية

١ - أحمد حافظ عوض :

فتح مصر الحديث أو نابلتون بونابرت في مصر: القاهرة ، ١٩٢٥

٢ - الجبرتي :

عبد الرحمن حسن الجبرتي (الشيخ) :

مظہر التقديس بذہاب دولۃ الفرنسيس ۵

مخطوط من ثلاثة نسخ في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ،

نحمل الأرقام الآتية على التوالي :

١٣٢٨ ، تاريخ ، المكتبة التيمورية ۵

١٠١ ، تاريخ مكتبة الأمير مصطفى فاضل :

٣٣٠ ، تاريخ ۵

٣ - الجبرتي ۵

عبد الرحمن حسن الجبرتي (الشيخ) :

عجائب الآثار في التراجم والأخبار ۵ القاهرة، طبعة بولاق ،

١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) أربعة أجزاء ۵

— ٢٢٢ —

٤ — أمين سامي باشا :

تقويم النيل ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٩٢٨ هـ

٥ — شفيق غربال (محمد) :

الجنرال يعقوب ، والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر

في سنة ١٨٠١ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٣٢ هـ

٦ — شفيق غربال (محمد) :

منهج مفصل للدروس العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على
ما هي عليه اليوم . مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية . القاهرة ، ١٩٦١ :

٧ — عبد الرحمن الرافعى :

تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر : القاهرة ،

الجزء الأول الطبعة الرابعة ، ١٩٥٥ هـ

الجزء الثاني الطبعة الثالثة ، ١٩٥٨ هـ

٨ — عبد الرحمن زكي (دكتور) :

موسوعة مدينة القاهرة في ألف عام هـ القاهرة ، ١٩٦٩ هـ

٩ — عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :

عمر مكرم ، بطل المقاومة الشعبية : القاهرة ، ١٩٦٧ هـ

١٠ — عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :

دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني هـ

بحث نوقش في الندوة العلمية الدولية لأندية القاهرة (مارس - إبريل

١٩٦٩) ، ونشر في المجلد الثاني من بحوث الندوة . مطبعة دار الكتب ، القاهرة ،

١٩٧١ ، ص ص ٦٦٧ - ٧٢٥

- ٢٢٣ -

١١ - عبد الله الشرقاوى (الشيخ) :

تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلطانين : القاهرة ،
طبعة بولاق ، ١٢٨٦ھ (١٨٧٠ م) .

١٣ - على مبارك باشا :

الخطط التوفيقية الحديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبالادها القديمة
والشهرة . القاهرة ، طبعة بولاق ، ١٣٠٦ھ (١٨٨٨ م) : عشرون جزءاً :

١٤ - كرستوفر ج : هيرولد :

بونابرت في مصر: ترجمة فؤاد اندراؤس : القاهرة ، ١٩٦٧ :

١٥ - محمد حافظ غانم (دكتور) :

مبادئ القانون الدولي العام : دراسة لضوابطه الأصولية والأحكام
العامة . القاهرة ، ١٩٦١ :

١٦ - محمد رفعت رمضان (دكتور) :

على باك الكبير . القاهرة ، (لم تذكر سنة الطبع) ، الناشر: دار
الفكر العربي .

١٧ - محمد عبد الله عنان :

تاريخ الجامع الأزهر : القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ :

١٨ - محمد فؤاد شكري (دكتور) :

الحملة الفرنسية وظهور محمد علي : القاهرة ، (لم تذكر سنة الطبع)
الناشر : دار المعارف :

١٩ - محمد فؤاد شكري (دكتور) :

عبد الله چاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ، ١٩٥٢ :

- ٢٢٤ -

٢٠ - نقولا الترك (المعلم) :

ذكر تملك جهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية :
نشر وترجمة وديجرانج ، باريس ، ١٨٣٩ .

٢١ - نقولا ترك (المعلم) :

مذاكرات نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فيت چاستون :
القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٠ .
٢٢ - فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة : طبعة سنة ١٩٥١ .

— 225 —

أانيا : المصادر والمراجع غير العربية

1 — Afaf Loutfi El - Sayed, Dr. : The Role of the 'Ulamā' in Egypt during the early nineteenth century.

A study presented to the Conference on the Modern History of Egypt, held in April, 1965, at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

2 — Bainville Jacques ; L'Expédition Française en Egypte. (1798 - 1801).

dans :

Précis de l'Histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues. 4 vols. tome troisième. Le Caire, 1933, deuxième partie.

3 — Belliard; Mémoires du comte Belliard, lieutenant-général, pair de France, écrits par lui-même, recueillis et mis en ordre par M. Vinet, un de ses aides de camp. Paris, 1842, 3 Vols.

4 — Berthier (général), Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie. Paris, an IX (1801).

5 — Bourienne (Louis Antoine Fauvelet de); Mémoires de M. Bourienne, ministre d'Etat, sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration. Paris, 1829, 10 vols.

6 — Chabrol de : Essai sur les mœurs des habitans (*sic*) modernes de l'Egypte.

dans :

Description de l'Egypte. Seconde édit. t. XVIII, première partie.

7 — Charles-Roux F.; La politique Musulmane de Bonaparte. Revue des Etudes Napoléoniennes. XIV^e année, t. I, 1925.

8 —————— ; Bonaparte, Gouverneur d'Egypte. Paris, 1935.

(١٠)

— 226 —

9 — Chauvin Victor; La Légende Egyptienne de Bonaparte.
Mons, 1902.

10 — Copies of Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, intercepted by the Fleet under the command of Admiral Lord Nelson. With an English Translation. 1798 - 1799. 2 vols. XXIII - 248 pages ; XXXI - 236 pages.

11 — Correspondance de l'Armée française en Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, publiée à Londres, avec une introduction et des notes de la chancellerie anglaise. Traduites en français et suivies d'observations par E. Th. Simon. Paris, an VII (1799).

12 — Courrier de l'Egypte.

جريدة اخبارية سياسية كانت تصدرها الحملة الفرنسية في مصر ، وتحفظ دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
بمجموعتين من أعدادها ، تحت رقم 539 ورقم
Pér. 673

13 — Daressy G., Mustapha pacha, le prisonnier d'Aboukir. Bulletin de l'Institut d'Egypte. t. XI, session 1928-1929.

14 — Dehérain H.; L'Egypte turque. Pachas et Mameluks du XVI^e au XVIII^e siècle. L'Expédition du général Bonaparte.

dans :

Hanotaux (Gabriel); Histoire de la Nation Egyptienne. t. V.

15 — Desgranges (ainé); Histoire de l'expédition de Français en Egypte par Nakoula el-Turk, publiée et traduite par M. Desgranges ainé. Paris, 1839.

16 — Denon Vivant; Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte. Paris, 1803, Quatrième édition, 2 vols.

17 — Deny; Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire, 1930.

— 227 —

18 — Description de l'Egypte; ou Recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition de l'armée française. Paris, seconde édition, dite de Panckoucke, (1821 - 1829), 26 volumes de texte et le même nombre de planches.

19 — Djabarti El, Abd - El - Rahman ; Merveilles Biographiques et Historiques, ou Chroniques du Cheikh Abd El Rahman El-Djabarti. Traduites de l'Arabe par Chafik Mansour Bey, Abdul Aziz Khalil Bey, Gabriel Nicolas Kahl Bey et Iskender Ammoun Effendi. Le Caire, Imprimerie Nationale, 1888 - 1897. 9 vols.

20 — Dozy ; Supplément aux dictionnaires arabes. 2ème édition, Leyde - Paris, 1927.

21 — Galland Antoine, Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'armée française, avec la position et la distance réciproque des principaux lieux de l'Egypte; un coup d'œil sur l'économie politique de ce pays, quelques détails sur ses antiquités, et la procédure exacte de Soleyman, assassin du général Kléber. Paris, 1803, 2 vols.

22 — Geoffroy Saint-Hilaire (E.); Lettres écritées d'Egypte, recueillies et publiées avec une préface et des notes par E. T. Hamy. Paris, 1901.

23 — Gourgaud et Montholon; Mémoires pour servir à l'histoire de France sous le règne de Napoléon, écrits à Sainte-Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité. Paris, 1823, 7 vols.

24 — Guénard G.; Les inscriptions françaises de l'enceinte du Caire.

Communication rapportée à l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, le 28 Septembre 1928. Paris, 1929.

25 _____ ; Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts de l'Institut d'Egypte. Le Caire, 1936.

26 — Hazlitt William ; The Life of Napoleon. New York, 10 vols.

27 — Ibrahima Salama Dr.; L'Enseignement Islamique en Egypte. Le Caire, 1939.

— 228 —

28 — Holt P.M.; Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic. London, 1968.

This volume contains the essays contributed to a Conference on the Modern History of Egypt, held in April, 1965 at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

29 — Jehan d'Ivray (Mme Fahmy Bey); Bonaparte et l'Egypte. Paris, 1914.

30 — Jomard; Description de la ville et de la citadelle du Kaire accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens (*sic*) sur sa distribution, ses monumens (*sic*), sa population, son commerce et son industrie.

dans :

Description de l'Egypte, t. XVIII, 2ème partie, pp. 118 - 538.

31 — Lacroix (D.); Bonaparte en Egypte. (1798 - 1799). Paris, 1899.

32 — La Jonquière (C.); L'Expédition d'Egypte. 1798 - 1801. Paris, Charles Lavauzelle, 1899 - 1907. 5 vols.

33 — Martin P.D.; Histoire de l'Expédition française en Egypte (1798 - 1801) précédée d'un précis de la domination arabe. Paris, 1815, 2 vols.

34 — Meynard Barbier de; Dictionnaire turc - français. Paris, 1881 - 1886. 2 vols.

35 — Napoléon 1^{er}; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798 - 1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le général Bertrand. Paris, 1847, 2 vols.

36 — ; Correspondance de Napoléon 1^{er}, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III. Paris, 1858 - 1870, 32 vols. Tomes IV et V: l'Expédition d'Egypte.

— 229 —

37 — Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Solyman el - Halaby, assassin du général en chef Kléber et traduction turke des pièces. Au Caire, an VIII.

38 — Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali-bey, et suivis du récit des événemens (*sic*) servenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed-Ali, d'après les mémoires, matériaux, documens (*sic*) inédits fournis par MM. le comte Belliard, maréchal Berthier, etc., Paris, 1830 – 1836, 10 vols. Les tomes III à VIII sont consacrés à l'histoire de l'expédition française en Egypte, les rédacteurs sont x. – B. Saintine, J. J. Marcel et L. Reybaud.

39 — Rifaat M.; The Awakening of Modern Egypt. London, 1947.

40 — Samuel Bernard; Mémoire sur les monnoies (*sic*) d'Egypte.
dans :

Description de l'Egypte, t XVI, PP. 267 - 506.

41 — Shafik Ghorbal; The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era based on Researches in the British and French Archives. London, 1928.

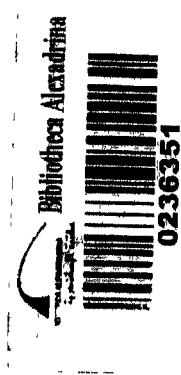
42 — Turc Nicolas; Chronique d'Egypte 1798 – 1804; éditée et traduite par Gaston Wiet. Le Caire, 1950.

43 — Turk-el Nakoula; Histoire de l'Expédition des Français en Egypte; publiée et traduite par M. Desgranges ainé. Paris, 1839.

44 — Volney Constantin F.; Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. Paris, 1787.

45 — ————— ; t II. Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785, suivi de considérations sur la guerre des Russes et des Turcs, publiées en 1788 et 1789. Paris, 1822.

رقم الإيداع بدار الكتب ٦٣١٠ لسنة ١٩٧١



0236351